بسم الله الرحمن الرحيم

# أَنَا وَالهُدْهُد

رواية للأولاد والبنات

تأليف: عُمَر الصَّاوي

لوحات: ڤيجيليو سلڤادور

obeikandl.com

ح عمر الصاوي ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الصاوي عمر
أنا والهدهد./ عمر الصاوي. - الرياض. ١٤٢٩هـ.
٢٠٠ ص؛ ١٧ × ٢٢سم
ردمك: ٢-١٣٥٦-٠٠-٦٠٣- ٩٧٨
١- القصص العربية - مصر أ- العنوان
ديوي ٨١٣، ٠٣٩٦٢ ١٤٢٩/٥٥٣٧

رقم الإيداع: ١٤٢٩/٥٥٣٧
ردمك: ٢-١٣٥٦-٠٠-٦٠٣- ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الناشر: العبيكان للنشر
الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة
هاتف: ٩٢٠٠١١٦٤٤ - ٩٢٠٠٢١٦٨٩٠٠ فاكس: ٢١٦٨٩١٠
ص.ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥٧١

التوزيع: مكتبة العبيكان
الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة
هاتف: ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس: ٤٦٥٠١٢٩
ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر

obeikandl.com

# أَنَا وَالهُدْهُد

رواية للأولاد والبنات

(ما بين ١١ ـ ١٦ سنة)

العبيكان
Obeikan

obeikan.com

obeikandl.com

# أنَا وَالهُدْهُد

رواية للأولاد والبنات

عُمَر الصَّاوي

obeikan.com

# العُشُّ الأخْضَر

كُنْتُ صَغِيرًا فِي مِثْلِ سِنِّكُمْ ، عِنْدَمَا حَدَثَتْ لِيَ هَذِهِ الْحِكَايَةُ الأغْرَبُ مِنَ الْخَيَالِ!!

لَمْ يُصَدِّقْنِي الْكِبَارُ عِنْدَمَا حَكَيْتُهَا لَهُمْ، حَاوَلْتُ أَنْ أُقْنِعَهُمْ، وَأَكَّدْتُ لَهُمْ صِدْقَ مَا أَقُولُ، ولَكِنَّهُمْ سَخِرُوا مِنِّي، وَاتَّهَمُونِي بِالْكَذِبِ، وَأَنَا أَكْرَهُ الْكَذِبَ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ فِي الدُّنْيَا، وَلِذَلِكَ حَزِنْتُ حُزْنًا شَدِيدًا، وَقَرَّرْتُ مِنْ يَوْمِهَا لاَّ أُحَدِّثَ أَحَدًا فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ، وَأَنْ أَحْتَفِظَ بِهِ لِنَفْسِي، سِرًّا دَفِينًا فِي قَلْبِي، وَفِي دَفْتَرِ مُذَكِّرَاتِي، الَّذِي لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ إِنْسَانٌ.

وَمَرَّتْ سَنَوَاتٌ وَسَنَوَاتٌ وَسَنَوَاتٌ، صِرْتُ خِلاَلَهَا شَابًّا، ثُمَّ أَبًا، ثُمَّ جَدًّا، وَلَكِنَّنِي لَمْ أَنْسَ مَا حَدَثَ، وَازْدَادَ مَعَ الأَيَّامِ اقْتِنَاعِي بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَهْمًا مِنَ الأَوْهَامِ،

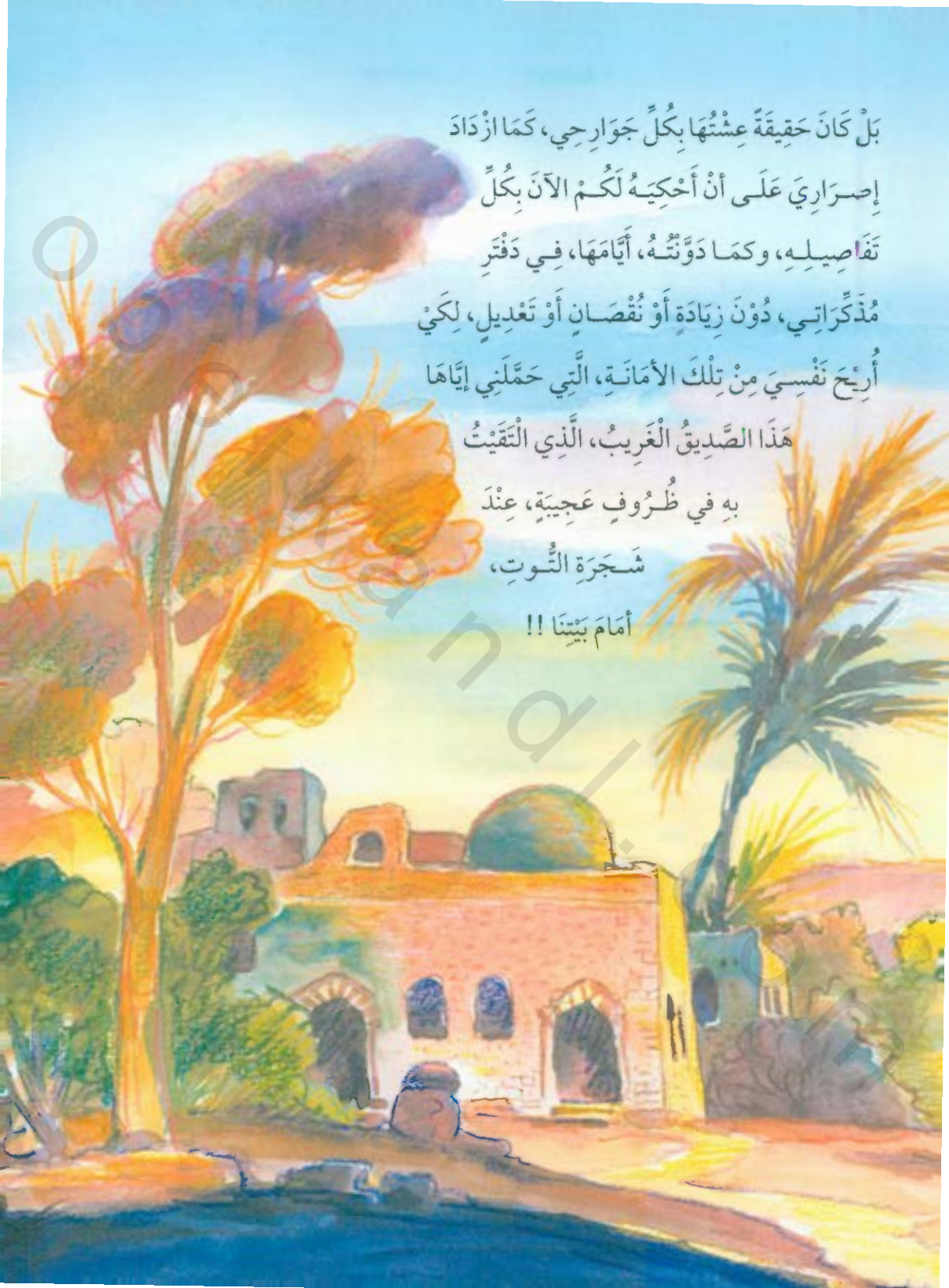

بَلْ كَانَ حَقِيقَةً عِشْتُهَا بِكُلِّ جَوَارِحِي، كَمَا ازْدَادَ
إِصْرَارِيَ عَلَى أَنْ أَحْكِيَهُ لَكُمْ الآنَ بِكُلِّ
تَفَاصِيلِهِ، وكَمَا دَوَّنْتُهُ، أَيَّامَهَا، فِي دَفْتَرِ
مُذَكِّرَاتِي، دُوْنَ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ أَوْ تَعْدِيلٍ، لِكَيْ
أُرِيحَ نَفْسِيَ مِنْ تِلْكَ الأَمَانَةِ، الَّتِي حَمَّلَنِي إِيَّاهَا
هَذَا الصَّدِيقُ الْغَرِيبُ، الَّذِي الْتَقَيْتُ
بِهِ فِي ظُرُوفٍ عَجِيبَةٍ، عِنْدَ
شَجَرَةِ التُّوتِ،
أَمَامَ بَيْتِنَا !!

فِي تِلْكَ الأَيَّامِ الْبَعِيدَةِ، كُنْتُ أَعِيشُ مَعَ أُسْرَتِي وَعَائِلَتِي الْكَبِيرَةِ، فِي قَرْيَةٍ هَادِئَةٍ خَضْرَاءَ، كُلُّهَا زَرْعٌ وَشَجَرٌ وَطَيْرٌ وَمَاءٌ، تُطِلُّ عَلَى نِيلِ مِصْرَ الْعَظِيمِ، الَّذِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ (الْبَحْرَ) لأَنَّهُ كَانَ وَاسِعًا جِدًّا، وعَمِيقًا جِدًّا مِثْلَ الْبَحْرِ.

## حِكَايَةُ الشَّجَرَة

قَرِيبًا مِنَ النَّهْرِ كَانَ بَيْتُنَا، وَأَمَامَهُ كَانَتْ شَجَرَةُ التُّوتِ، تَقِفُ عَلَى حَافَّةِ الْمَاءِ، كَأَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَغْسِلَ قَدَمَيْهَا، تَمَامًا مِثْلَمَا كُنَّا نَفْعَلُ، نَحْنُ الصِّغَارَ، عِنْدَمَا نَقِفُ هَكَذَا، انْتِظَارًا لِمَوْجَةٍ تَرْتَفِعُ، وَتَخْرُجُ عَنِ النَّهْرِ، فَتَجْرِي إِلَيْنَا، وَتَبُلُّ أَقْدَامَنَا، وَلَكِنَّ الشَّجَرَةَ لَمْ تَكُنْ تَلْعَبُ مِثْلَنَا، وَتَجْرِي هَرَبًا مِنْ تِلْكَ الْمَوْجَةِ الرَّقِيقَةِ، الَّتِي يُرْسِلُهَا إِلَيْنَا الْقَارِبُ الْبُخَارِيُّ الْكَبِيرُ، وَهُوَ يَعْبُرُ سَرِيعًا فِي النِّيلِ.

كُنْتُ أُحِبُّ شَجَرَةَ التُّوتِ، وَأَشْعُرُ وَكَأَنَّهَا أُخْتُ جَدَّتِي، فَهِيَ تَقِفُ مُنْحَنِيَةً بِجِذْعِهَا انْحِنَاءً شَدِيدًا، مَائِلَةً بِأَغْصَانِهَا عَلَى النَّهْرِ، تَمَامًا مِثْلَ جَدَّتِي الَّتِي تَسِيرُ مُنْحَنِيَةَ الظَّهْرِ. وَلَكِنَّ الشَّجَرَةَ لَمْ تَكُنْ عَجُوزًا مِثْلَ جَدَّتِي، كَمَا كُنْتُ أَظُنُّ!!

هَذَا مَا قَالَتْهُ لِي جَدَّتِي، عِنْدَما حَكَتْ لِي، وَقَالَتْ :

(انْحَنَتْ شَجَرَةُ التُّوتِ، هَكَذَا، مُنْذُ كَانَتْ شَجَرَةً صَغِيرَةً طِفْلَةً. حَدَثَ لَهَا هَذَا بَعْدَ عَاصِفَةٍ هَوْجَاءَ، قُلْنَا وَقْتَهَا: إِنَّهَا انْحَنَتْ هَكَذَا لِكَيْ تَتَوَضَّأَ وَتُصَلِّيَ، وَتَدْعُوَ اللهَ أَنْ يُوقِفَ الْعَاصِفَةَ، الَّتِي أَطَاحَتْ بِكَثِيرٍ مِنْ أَخَوَاتِهَا الشَّجَرَاتِ الصَّغِيرَاتِ

وَقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ لِدُعَائِهَا، فَتَوَقَّفَتِ
الْعَاصِفَةُ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَعْتَدِلْ!!
فَقُلْنَا: إِنَّهَا تُحِبُّ النَّظَرَ إِلَى
صُورَتِهَا الْمُنْعَكِسَةِ عَلَى
صَفْحَةِ الْمَاءِ اللاَّمِعَةِ
الْبَرَّاقَةِ، مِثْلَ فَتَاةٍ
جَمِيلَةٍ تُسَرِّحُ
شَعْرَهَا فِي المِرْآةِ!!
وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: إِنَّهَا
شَجَرَةٌ غَيْرُ كُلِّ الشَّجَرِ، فَهِيَ تُحِبُّ
أَنْ تَشْرَبَ بِأَغْصَانِهَا مِنْ مَاءِ
النِّيلِ!!

ومَرَّتْ أَيَّامٌ وَأَيَّامٌ وَأَيَّامٌ، وَظَلَّتِ الشَّجَرَةُ تَكْبُرُ وَتَكْبُرُ، وَهِيَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، تَمُدُّ أَغْصَانَهَا، وَتَفْرِشُ ظِلَّهَا الأَخْضَرَ عَلَى الأَرْضِ، وَعَلَى صَفْحَةِ الْمَاءِ!!

فَقُلْنَا: إِنَّهَا شَجَرَةٌ طَيِّبَةٌ، تُحِبُّ أَنْ تَحْتَضِنَ الأَطْفَالَ الصِّغَارَ، الَّذِينَ يَجْلِسُونَ تَحْتَهَا، وَتَحْمِيهِمْ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ وَغُبَارِ الْعَوَاصِفِ، كَمَا تَحْتَضِنُ بَيْنَ فُرُوعِهَا أَعْشَاشَ الْعَصَافِيرِ وَالْيَمَامِ).

هَذَا مَا قَالَتْهُ الْجَدَّةُ لِحَفِيدِهَا الصَّغِيرِ .....

وَكُنْتُ أَنَا هَذَا الْحَفِيدَ الصَّغِيرَ، أَسْتَيْقِظُ كُلَّ يَوْمٍ فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، لأَجْلِسَ فِي حِضْنِ الشَّجَرَةِ، بَيْنَ أَغْصَانِهَا الْقَرِيبَةِ مِنَ الأَرْضِ، مِثْلَ عُصْفُورٍ صَغِيرٍ، فِي عُشٍّ أَخْضَرَ، يَحْلُمُ بِالطَّيَرَانِ.

## حُلْمُ الطَيَرَان

كُنْتُ دَائِمًا أَحْلُمُ بِالطَّيَرَانِ، وَأَنَا أُرَاقِبُ أَسْرَابَ الْحَمَامِ الْبَيْضَاءِ، تُرَفْرِفُ فَوْقَ أَشْرِعَةِ الْمَرَاكِبِ الْبَيْضَاءِ، الَّتِي تَمُرُّ فِي النِّيلِ، حَامِلَةً أَهْرَامَاتِ الْبِطِّيخِ، وَأَجْوِلَةَ الْبَطَاطِسِ، وأَزْيَارَ الْمَاءِ، وَجِرَارَ الْعَسَلِ الأَسْوَدِ.

أَمَّا فِي الصَّيْفِ، فِي الْحَرِّ الشَّدِيدِ، فَكَانَتْ ثِمَارُ التُّوتِ الْحَمْرَاءُ أَحْلَى مِنْ هَذَا الْعَسَلِ.

وَلَـمْ أكُنْ أَحْتَاجُ إِلَـى أَنْ أَقْطِفَهَا بِيَدِي، بَلْ كَانَ يَكْفِي أَنْ أَمُدَّ فَمِي لِكَيْ تُقَرِّبَ الشَّجَرَةُ مِنِي غُصْنَهَا بِحَبَّةِ التُّوتِ.

وَأَجْمَـلُ الْمَـرَّاتِ الَّتِـي أَكَلْـتُ فِيهَا التُّـوتَ بِفَمِيَ كَانَـتْ عِنْدَمَـا يَصْحَبُنَا مَعَهُ أَحَـدُ إِخْوَتِنَا الْكِبَارِ، فِي قَارِبٍ صَغِيرٍ ذِي مِجْدَافَيْنِ، نَمْشِـي بِـهِ فِي الْمَاءِ، وَنَدْخُلُ بَيْـنَ الأَغْصَـانِ الْمُتَدَلِّيَةِ الْمُمْتَلِئَةِ، لِنَتَسَـابَقَ فِي أَكْلِ التُّـوتِ بِأَفْوَاهِنَا، كَانَتْ بَعْضُ الْحَبَّـاتِ تُفْلِـتُ مِنْ بَيْنِ شِـفَاهِنَا عِنْدَمَا يُحَرِّكُ النَّسِـيمُ غُصْنَهَـا، أَوْ عِنْدَمَا يَتَرَجْرَجُ مَـاءُ النَّهْرِ، فَيَتَمَايَلُ بِنَا الْقَارِبُ مُبَاعِدًا بَيْنَ شِـفَاهِنَا وَبَيْنَ الثَّمَرَةِ، الَّتِي كَادَتْ تَدْخُلُ بَيْنَ الشَّـفَتَيْنِ، فَنَضْحَكُ، وَتَضْحَكُ الشَّـجَرَةُ بِحَفِيفِ أَغْصَانِهَا - بَيْنَمَا تَتَقَافَزُ فَوْقَ الْمَاءِ حَوْلَنَا - سَـمَكَاتٌ صَغِيرَةٌ وَكَبِيرَةٌ فِضِّيَّةٌ تَلْمَعُ، وَكَأَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَشْـرَبَ، وَتَطَالَ الأَغْصَانَ، لِتَتَسَـابَقَ مَعَنَا فِي أَكْلِ التُّوتِ بِأَفْوَاهِهَا، مَعَ أَنَّ نَصِيبَهَا كَانَ كَبِيرًا مِنْ هَذَا التُّوتِ، الَّذِي تُسْقِطُهُ لَهَا الشَّجَرَةُ فِي الْمَاءِ، كُلَّمَا هَبَّ الْهَوَاءُ، وَهَزَّ أَغْصَانَهَا !!

وَكَانَ أَحَبَّ شَيْءٍ لَدَيَّ أَنْ أَجْلِسَ مِثْلَ الطُّيُورِ،عَلَى غُصْنِهَا الْمَائِلِ عَلَى النَّهْرِ، مُدْلِيًا قَدَمَيَّ فِي تَيَّارِ الْمَاءِ، الَّذِي يَجْرِي مِنْ تَحْتِي.

فِي الْبِدَايَةِ، كَانَتِ الْعَصَافِيرُ تَطِيرُ مُبْتَعِدَةً خَائِفَةً مِنِّي، كُنْتُ أَتَعَجَّبُ مِنْهَا : لِمَاذَا تَخَـافُ مِنِّي وَأَنَا أُحِبُّهَا، وَلاَ أُرِيدُ إِيذَاءَهَا؟!! أَنَا لاَ أَفْعَلُ سِوَى الْجُلُوسِ قَرِيبًا مِنْ أَعْشَاشِـهَا، لأُرَاقِبَهَـا وَهِـيَ تُطْعِمُ صِغَارَهَـا، أَوْ وَهِيَ تَبْنِي أَعْشَاشَـهَا، كُنْتُ مُعْجَبًا بِنَشَـاطِهَا، فَهِـيَ لاَ تَتَوَقَّـفُ عَنِ الطَّيَرَانِ طَـوَالَ النَّهَارِ، بَحْثًا عَنِ الْقَشَّـةِ الْمُنَاسِـبَةِ، لِكَيْ تَحْمِلَهَا بِمِنْقَارِهَا، وَتَعُودُ بِهَا، لِتَضَعَهَا مَعَ الْقَشِّ، الَّذِي جَمَعَتْهُ، وَتَجْدِلُهُ مَعًا،

لِيَكُونَ مَتِينًا، وَتَرْبِطُهُ جَيِّدًا فِي غُصْنِ الشَّجَرَةِ، لِيَكُونَ ثَابِتًا. وَكُنْتُ أُشْفِقُ عَلَيْهَا، عِنْدَمَا تَقَعُ مِنْ فَمِهَا قَشَّةٌ، فَتَعُودُ لِتَحْمِلَهَا بِمِنْقَارِهَا. وَقَدْ تَقَعُ مَرَّةً أُخْرَى، فَتَعُودُ لِتَحْمِلَهَا مِنْ جَدِيدٍ، وَكُنْتُ أَتَمَنَّى أَنْ أُسَاعِدَهَا، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَقْبَلُ مِنِّي الْمُسَاعَدَةَ، وَفِي الْمَرَّةِ الَّتِي حَاوَلْتُ فِيهَا، وأَسْرَعْتُ لأُنَاوِلَهَا الْقَشَّةَ، زَقْزَقَتْ بِصَوْتٍ غَاضِبٍ، وَطَارَتْ مُبْتَعِدَةً !!

بَعْدَ أَيَّامٍ، كُنْتُ أَجِدُ بَيْضَتَيْنِ فِي الْعُشِّ، أَفْرَحُ بِهِمَا. وَبَعْدَ أَيَّامٍ أُخْرَى، أَجِدُ عُصْفُورَيْنِ صَغِيرَيْنِ، أَفْرَحُ بِهِمَا أَكْثَرَ؛ بِالزَّقْزَقَةِ الضَّعِيفَةِ النَّحِيلَةِ، وَبِالصِّيَاحِ الْمُتَلَهِّفِ كُلَّمَا عَادَتِ الأُمُّ، وَفِي فَمِهَا دُودَةٌ أَوْ حَشَرَةٌ أَوْ حَبَّةُ قَمْحٍ، يَتَسَابَقُ عَلَيْهَا الصَّغِيرَانِ، وَيَفُوزُ بِهَا مَنْ يَسْبِقُ أَخَاهُ، فَيَلْتَقِطُهَا مِنْ فَمِ أُمِّهِ، وَالأُمُّ تَطِيرُ مِنْ فَوْرِهَا، لِتُحْضِرَ لَهُمَا الْمَزِيدَ مِنَ الطَّعَامِ.

كُنْتُ أُرَاقِبُ كُلَّ ذَلِكَ وَأَنَا جَالِسٌ عَلَى الْغُصْنِ الْمَائِلِ، مُسْتَمْتِعًا

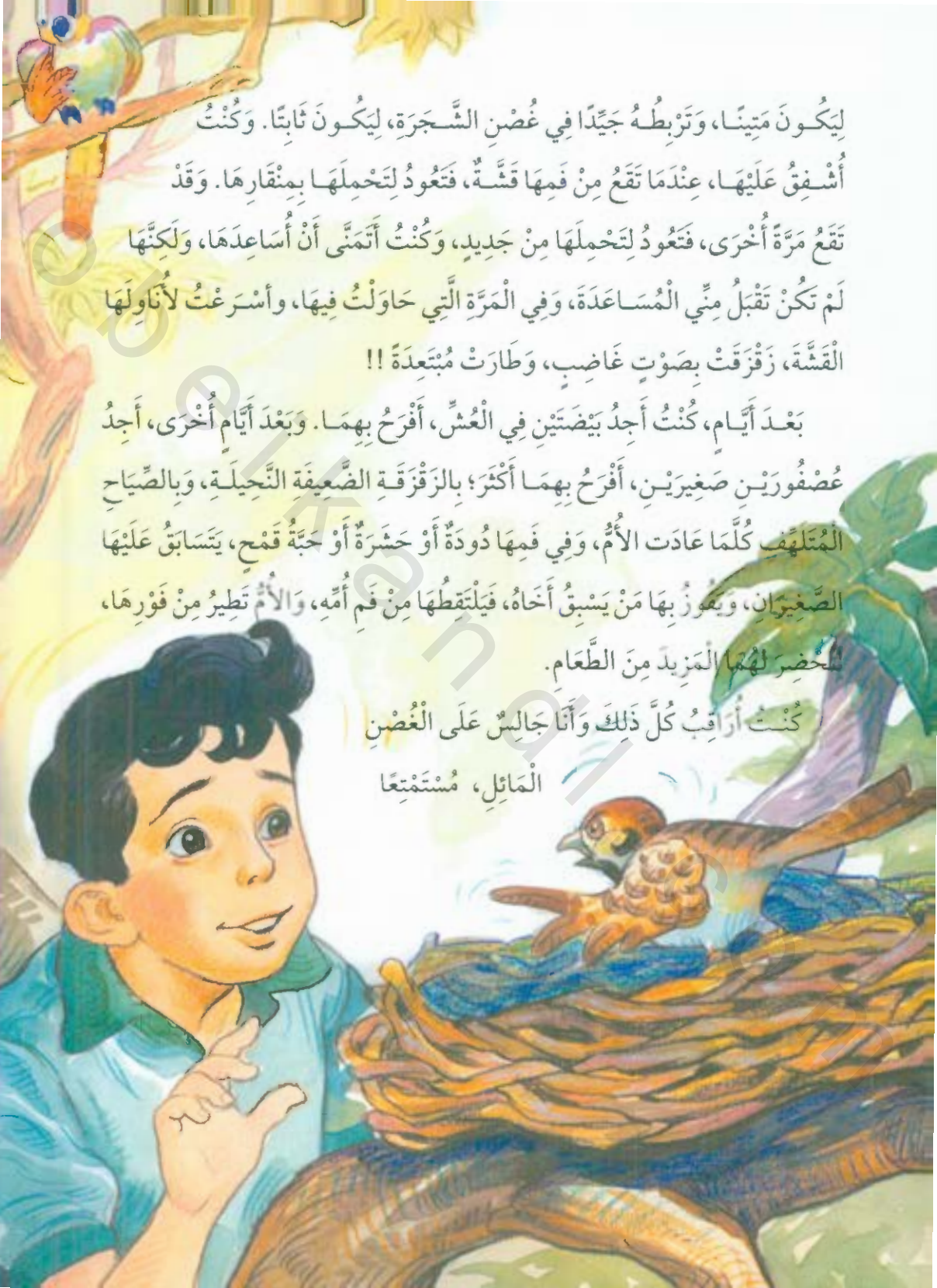

بِالمَاءِ الَّذِي يَجْرِي، وَيَتَخَلَّلُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِي، لاَ أَتَحَرَّكُ، وَلاَ أَتَكَلَّمُ، وَلاَ أَقْتَرِبُ كَثِيرًا مِنَ الْعُشِّ، حَتَّى لا تَخَافَ الْعُصْفُورَةُ، وَتَطِيرَ.

فَحَتَّى هَذِهِ اللَّحْظَةِ، لَمْ تَكُنِ الطُّيُورُ تَطْمَئِنُّ لِوُجُودِي، وَلاَ تَشْعُرُ مَعِيَ بِالأَمَانِ، وَلاَ تُحِبُّ أَنْ أَقْتَرِبَ مِنْهَا، أَوْ مِنْ عُشِّهَا، أَوْ مِنْ صِغَارِهَا.

حَتَّى جَاءَ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْغَرِيبُ، وَوَقَعَ هَذَا الْحَدَثُ الْعَجِيبُ، الَّذِي تَغَيَّرَ بَعْدَهُ كُلُّ شَيْءٍ!!

## اللِّقَاءُ الْعَجِيب

كَانَ يَوْمًا جَمِيلاً مِنْ أَيَّامِ الرَّبِيعِ، فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، النَّسِيمُ بَارِدٌ مُعَطَّرٌ بِرَائِحَةِ أَزْهَارِ الْبِرْسِيمِ وَالْبُرْتُقَالِ وَأَوْرَاقِ شَجَرِ الْكَافُورِ، وَالضَّبَابُ يُغَطِّي كُلَّ شَيْءٍ، وَيُلَفِّنِي بِبُرُودَتِهِ الْمُنْعِشَةِ، أَتَنَفَّسُهُ سَعِيدًا، وَأَنَا أَرَاهُ يَخْرُجُ مِنْ فَمِي مِثْلَ سَحَابَةٍ صَغِيرَةٍ.

كُلُّ شَيْءٍ حَوْلِي يَتَنَفَّسُ، النِّيلُ أَيْضًا يَتَنَفَّسُ، وَهُوَ الَّذِي يُخْرِجُ مِنْ صَدْرِهِ الْعَرِيضِ كُلَّ هَذَا الضَّبَابِ، لِكَيْ يُعَطِّيَ بِهِ الْحُقُولَ وَالشَّجَرَ وَأَشْرِعَةَ الْمَرَاكِبِ وَالْبُيُوتَ الْبَعِيدَةَ عَلَى الشَّاطِئِ الآخَرِ، وَلِكَيْ يُلَفِّنِي بِهِ، كَمَا يَفْعَلُ جَدِّي عِنْدَمَا يُلَفِّنِي بِعَبَاءَتِهِ.

كُنْتُ أَشْعُرُ دَائِمًا أَنَّ النِّيلَ جَدِّي الأَكْبَرُ، الَّذِي يُحِبُّنِي، وَيَفْرَحُ بِجُلُوسِي إِلَى جِوَارِهِ، وَكُنْتُ مُتَأَكِّدًا أَنَّهُ لَنْ يُغْرِقَنِي فِي مِيَاهِهِ، كَمَا تَقُولُ لِي أُمِّي، وَهِيَ تُحَذِّرُنِي مِنَ النُّزُولِ وَالْعَوْمِ فِيهِ مِثْلَ بَقِيَّةِ الأَوْلَادِ، بَلْ كُنْتُ وَاثِقًا أَنَّنِي إِذَا رَمَيْتُ بِنَفْسِي فِيهِ، فَسَوْفَ يَحْمِلُنِي عَلَى صَدْرِهِ، كَمَا يَحْمِلُ الْقَارِبَ الصَّغِيرَ ذَا الْمِجْدَافَيْنِ!!

فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَجِيبِ كُنْتُ جَالِسًا، كَعَادَتِي، بَيْنَ أَغْصَانِ الشَّجَرَةِ، وَأَنَا هَائِمٌ فِي أَحْلَامِي مَعَ سِرْبِ الْحَمَامِ الأَبْيَضِ، الَّذِي يَدُورُ وَيَتَقَلَّبُ فِي الْفَضَاءِ، وَيَحُومُ بَيْنَ ضَفَّتَيِ النِّيلِ، كُنْتُ أَحْلُمُ أَنَّنِي أَطِيرُ مَعَهُ، أَفْرِدُ جَنَاحَيَّ، وَأَسْبَحُ فِي الأَعَالِي، أَرَى الأَرْضَ تَحْتِي بِسَاطًا أَخْضَرَ، وَأَرَى بَيْتَنَا صَغِيرًا، يُلَفُّهُ الشَّجَرُ، وَفَوْقَ سَطْحِهِ تَعْرِيشَةُ الْعِنَبِ، وَمِنَ الأَعَالِي أُدَقِّقُ النَّظَرَ، فَأَرَى أُمِّي تَحْتَ التَّعْرِيشَةِ، وَهِيَ تُطْعِمُ الْكَتَاكِيتَ!!

وَفَجْأَةً!! سَمِعْتُ صَوْتَ ارْتِطَامٍ قَوِيٍّ، أَعْقَبَتْهُ صَرْخَةٌ مُدَوِّيَةٌ، أَخْرَجَتْنِي مِنَ الْحُلْمِ الْجَمِيلِ، وَأَفْزَعَتْنِي، وَجَعَلَتْنِي أَنْتَفِضُ وَاقِفًا فِي مَكَانِي، وَجَعَلَتِ الْعَصَافِرَ تَنْطَلِقُ مَذْعُورَةً مِنْ فَوْقِ الأَغْصَانِ!! تَلَفَّتُّ حَوْلِي فَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا، وَبَعْدَ لَحَظَاتٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالتَّرَقُّبِ، سَمِعْتُ صَوْتًا ضَعِيفًا بَاكِيًا يَسْتَغِيثُ: أَنْقِذُونِي ..أَنْقِذُونِي !

نَظَرْتُ نَاحِيَةَ الصَّوْتِ، وَكَانَتِ الْمُفَاجَأَةُ: الْهُدْهُدُ وَاقِعٌ عَلَى الأَرْضِ، وَقَدِ انْطَبَقَ عَلَيْهِ الْفَخُّ، مِثْلَ أَنْيَابِ ذِئْبٍ مُفْتَرِسٍ!!

جَرَيْتُ بِسُرْعَةٍ لِكَيْ أُنْقِذَهُ، وَضَعْتُ يَدَيَّ بَيْنَ فَكَّي الْمَـخِّ لأَفْتَحَهُمَـا، بَذَلْـتُ جَهْـدًا كَبِيـرًا حَتَّـى فَتَحْتُهُمَا، وَخَلَّصْتُ الْهُدْهُدَ مِنْ بَيْنِهِمَا، لِكَي يَطِيرَ، وَلَكِنَّهُ وَقَعَ عَلَى الأَرْضِ يَرْتَعِـشُ، وَكُلَّمَا حَاوَلَ الْوُقُوفَ عَلَى رِجْلَيْهِ انْهَارَ عَـلَى الأَرْضِ، يَبْكِي وَيَرْتَعِشُ!!

حَزِنْتُ حُزْنًا شَـدِيدًا مِنْ أَجْلِ الْهُدْهُدِ، وَأَشْفَقْتُ عَلَيْهِ، فَقَدْ كَانَ طَائِرًا جَمِيلاً رَقِيقًا، يُفَضِّلُ الْعَيْشَ بَعِيدًا فِي هُدُوءٍ، وَلاَ يُحِبُّ الظُّهُورَ كَثِيرًا مِثْلَ الْعَصَافِيرِ وَالْيَمَامِ، وَفِي الْمَرَّاتِ الَّتِي رَأَيْتُهُ فِيهَا، كَانَ يَنْظُرُ إِلَيَّ بِحُبٍّ، وَلَكِنْ مِنْ بَعِيدٍ، فَهُوَ مِثْلُ بَقِيَّةِ الطُّيُورِ، لاَ يُحِبُّ الاقْتِرَابَ مِنْهُ كَثِيرًا، فَمَا أَكَادُ أَتَحَرَّكُ بِاتِّجَاهِهِ خُطْوَةً حَتَّى يَنْطَلِقَ فِي الْفَضَاءِ!!

انْحَنَيْتُ عَلَيْهِ، وَحَمَلْتُهُ بِرِفْقٍ بَيْنَ يَدَيَّ، وَأَسْنَدْتُهُ إِلَى صَدْرِي، وَأَنَا أَشْعُرُ بِالإِشْفَاقِ وَالْحُزْنِ الشَّدِيدِ، فَنَظَرَ إِلَيَّ بِعَيْنَيْهِ الْبَاكِيَتَيْنِ، وَقَالَ بِصَوْتِهِ الضَّعِيفِ الْمُرْتَعِشِ: «أَرْجُوكَ، لاَ تَتْرُكْنِي وَحِيدًا، لا أُرِيدُ أَنْ أَمُوتَ الآنَ».

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، لَمْ أَتَمَالَكْ نَفْسِي، فَبَكَيْتُ بِشِدَّةٍ، وَجَلَسْتُ بِهِ عَلَى الأَرْضِ، وَانْحَنَيْتُ عَلَيْهِ بِوَجْهِي الَّذِي تَتَسَاقَطُ مِنْهُ الدُّمُوعُ، وَقُلْتُ لَهُ: «لاَ تَخَفْ، سَأَحْمِلُكَ مَعِيَ إِلَى بَيْتِي، أَنْتَ طَيِّبٌ، وَأُمِّي تَقُولُ: الله يُحِبُّ الطَّيِّبِينَ الأَخْيَارَ»

وَعِنْدَمَا رَفَعْتُ رَأْسِي، لِكَيْ أَعْتَدِلَ وَأَقُومَ، كَانَتْ كُلُّ الطُّيُورِ تُرَفْرِفُ حَوْلَنَا، وَتُصَفِّقُ بِأَجْنِحَتِهَا!!

أَمَّا الْعُصْفُورَةُ، الَّتِي كَانَتْ تَفْزَعُ مِنِّي وَتَهْرُبُ، فَقَدْ فَعَلَتْ مَا جَعَلَنِي أَبْتَسِمُ، رَغْمَ الْحُزْنِ وَالْبُكَاءِ، فَقَدْ فُوجِئْتُ بِهَا تَقِفُ عَلَى كَتِفِي، وَظَلَّتْ تَتَأَرْجَحُ، وَتُوَازِنُ نَفْسَهَا، كَيْ لاَ تَقَعَ، وَأَنَا أَمْشِي بِهَا، حَتَّى اقْتَرَبْتُ مِنْ بَابِ الْبَيْتِ. وَقَبْلَ أَنْ أَدْخُلَ، زَقْزَقَتْ بِطَرِيقَتِهَا الْعَصَبِيَّةِ، وَطَارَتْ فَحَطَّتْ عَلَى شُبَّاكِ غُرْفَتِي، وَأَخَذَتْ تَنْقُرُ الزُّجَاجَ!!

خَطَوْتُ إِلَى دَاخِلِ الْبَيْتِ، وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ فَقَطْ، أَدْرَكْتُ غَرَابَةَ الْمَوْقِفِ، فَأَفَقْتُ مِنْ حُزْنِي الشَّدِيدِ، وَقَدْ تَمَلَّكَتْنِي دَهْشَةٌ أَشَدُّ: يَا إِلَهِي، الْهُدْهُدُ يُكَلِّمُنِي، وَأَنَا أَفْهَمُ كَلاَمَهُ!!

# الْهُدْهُدُ فِي بَيْتِي

أَشْفَقَتْ أُمِّي عَلَى الْهُدْهُدِ، وَتَأَثَّرَتْ لِحُزْنِي عَلَيْهِ، وَعِنْدَمَا قُلْتُ لَهَا: إِنَّهُ كَلَّمَنِي وَطَلَبَ مِنِّي الْمُسَاعَدَةَ، ابْتَسَمَتْ لِي بِحُبٍّ وَحَنَانٍ، وَمَسَحَتْ بِكَفِّهَا عَلَى رَأْسِي، وَقَالَتْ: «لاَ مَانِعَ مِنْ بَقَائِهِ مَعَكَ فِي غُرْفَتِكَ؛ لِتَعْتَنِيَ بِهِ حَتَّى يُشْفَى، فَهُوَ ضَيْفٌ رَقِيقٌ، غَيْرُ مُزْعِجٍ».

وَوَافَقَتْهَا جَدَّتِي، وَكَذَلِكَ أَبِي وَجَدِّي. أَمَّا إِخْوَتِي الأَكْبَرُ مِنِّي، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا الاعْتِرَاضَ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَوَقَّفُوا عَنِ السُّخْرِيَةِ وَالدُّعَابَةِ، وَسَمَّوْنِي (أَبُو هَدْهُود)!!

سَاعَدَتْنِي أُمِّي فِي رَبْطِ جَبِيرَةٍ عَلَى الْجَنَاحِ الْمُصَابِ، وَأَحْضَرَتْ لِي قَفَصًا مِنْ أَقْفَاصِ الْكَتَاكِيتِ، وَضَعَتْ بِهِ طَبَقًا صَغِيرًا فِيهِ بَعْضُ الْحُبُوبِ وَقِطَعُ الْخُبْزِ الْمُبَلَّلِ، وَطَبَقًا آخَرَ بِهِ مَاءٌ، وَقَالَتْ:

«هَذِهِ غُرْفَةُ صَدِيقِكَ، سَيَنَامُ هُنَا حَتَّى يُشْفَى جَنَاحُهُ وَيَطِيرَ، أَغْلِقْ عَلَيْهِ الْبَابَ جَيِّدًا، وَلاَ تَغْفَلْ عَنْهُ وَهُوَ خَارِجُ الْقَفَصِ، وَإِلاَّ أَكَلَتْهُ الْعِرْسَةُ»!!

بَعْدَ وَقْتٍ، شَعَرَ الْهُدْهُدُ بِالأَمَانِ فِي الْقَفَصِ، وَتَمَالَكَ نَفْسَهُ بَعْضَ الشَّيْءِ، وَأَخَذَ تَنَفُّسُهُ يَهْدَأُ، وَتَوَقَّفَ جِسْمُهُ عَنِ الارْتِعَاشِ، فَاعْتَدَلَ قَلِيلاً، وَمَدَّ مِنْقَارَهُ فِي طَبَقِ الْمَاءِ، وَشَرِبَ قَلِيلاً مِنْهُ، وَعَادَ لِيَجْلِسَ سَاكِنًا حَزِينًا، وَجَلَسْتُ أَنَا أَيْضًا أَمَامَهُ أُرَاقِبُهُ فِي سُكُونٍ وَحُزْنٍ. فَنَظَرَ إِلَيَّ بِابْتِسَامَةٍ شَاحِبَةٍ، وَبَادَرَنِي بِصَوْتِهِ الضَّعِيفِ، وَقَالَ: لاَ تَحْزَنْ يَا صَدِيقِي؛ فَهَذَا مَا كُنْتُ أَتَمَنَّاهُ.

لَمْ أَفْهَمْ مَا يَقْصِدُهُ فَسَأَلْتُهُ مُنْدَهِشًا: كُنْتَ تَتَمَنَّى أَنْ تَقَعَ فِي الْفَخِّ ؟!!

فَاتَّسَعَتِ ابْتِسَامَتُهُ قَلِيلاً، وَقَالَ: لاَ، لَيْسَ هَذَا قَصْدِي، بَلْ قَصْدِي أَنَّ اللهَ قَدِ اسْتَجَابَ لِدُعَائِي.

قُلْتُ : وَمَاذَا كَانَ دُعَاؤُكَ؟!

أَغْمَضَ الْهُدْهُدُ عَيْنَيْهِ، وَتَنَهَّدَ بِعُمْقٍ وَقَالَ:

مُنْـذُ نَزَلْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ، وَأَنَا أُصَلِّي، وَأَدْعُو اللهَ لَيْلَ نَهَارَ، أَنْ يَجْعَلَ لِيَ صَدِيقًا مِنَ الْبَشَـرِ أَكْشِـفُ لَهُ أَسْـرَارِي، وَيَحْمِلُ عَنِّي أَمَانَتِي، وَيُعَوِّضُنِي عَنْ وَلَدِي!!

قُلْـتُ مُنْدَهِشًـا: أَيَّةَ أَسْـرَارٍ!! وَأَيَّةَ أَمَانَةٍ!! وَمَاذَا حَدَثَ لِوَلَدِكَ ؟!

قَـالَ: هَـذِهِ حِكَايَـةٌ طَوِيلَـةٌ، لاَ تَتَعَجَّلْ، سَـأَحْكِيهَا لَكَ عِنْدَمَا أَسْـتَرِدُّ بَعْضَ عَافِيَتِـي، وَلَكِنَّنِي الآنَ لاَ أَقْوَى عَلَـى الْـكَلاَمِ، وَأَشْـعُرُ أَنَّ الْمَـوْتَ يَقْتَرِبُ مِنِّي، لاَبُدَّ أَنْ أَنَامَ الآنَ، لَسْتُ أَدْرِي، سَـأَنَامُ أَمْ سَـأَمُوتُ، أَنْتَ طِفْلٌ طَيِّبٌ صَاهِـرٌ، اُدْعُ اللـهَ لِي أَنْ يُطِيلَ فِـي عُمْرِي، وَلَـوْ لِيَوْمَيْنِ، حَتَّى أَنْقُلَ لَـكَ مَا عِنْدِي، وَأُحَمِّلَكَ أَمَانَتِي وَأَمَانَةَ أَجْدَادِي!!

قَـالَ الْهُدْهُدُ ذَلِكَ ثُمَّ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ، وَكَمَشَ رَقَبَتَـهُ، فَغَارَتْ رَأْسُـهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَانْهَارَ عَلَى الأَرْضِ بِلاَ حَرَاكٍ، وأنا كَالْمَجْنُونِ أَنْظُرُ إِلَيْهِ ، لاَ أَدْرِي إِنْ كَانَ قَدْ نَامَ، أَمْ أَنَّهُ مَاتَ وَرَاحَ إِلَى الأَبَدِ!!

وَبَقِيتُ مَذْهُولاً، وَالدُّمُوعُ تَجْرِي عَلَى وَجْهِي، لَمْ أَعْرِفْ كَمْ مَضَى مِنَ الْوَقْتِ، وَلَـمْ أَفِـقْ مِنْ ذُهُولِي إِلاَّ عَلَى صَوْتِ نَقْرٍ شَـدِيدٍ عَلَى زُجَاجِ شُـبَّاكِي!! الْتَفَتُّ فَإِذَا بِالْعُصْفُـورَةِ خَلْفَ الزُّجَـاجِ، تَضْرِبُ بِمِنْقَارِهَا، وَخَلْفَهَا فِي الْبَعِيدِ، شَـجَرَةُ التُّوتِ مُنْحَنِيَـةً عَلَى النِّيلِ، وَخَلْفَهَا فِي الْبَعِيدِ الْبَعِيدِ، شَـمْسُ الْغُـرُوبِ حَمْرَاءَ تَقْتَرِبُ مِنَ الأَرْضِ.

فَتَحْتُ الشُّـبَّاكَ فَانْطَلَقَتِ الْعُصْفُورَةُ إِلَى الْقَفَصِ، وَمَدَّتْ رَأْسَـهَا تُدَقِّقُ نَظَرَهَا فِي الْهُدْهُدِ الْغَائِبِ عَنِ الْوُجُودِ، ثُمَّ طَارَتْ فَحَطَّتْ عَلَى كَتِفِي، وَفِي هُدُوءٍ، أَخَذَتْ تَمُدُّ مِنْقَارَهَا إِلَى وَجْنَتَيَّ، وَتَشْرَبُ مِنْ قَطَرَاتِ الدُّمُوعِ !!

## أَوَّلُ حُلْم

لَسْتُ أَدْرِي، فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، مَتَى نِمْتُ ، وَلاَ كَيْفَ نِمْتُ، وَلَكِنَّنِي نِمْتُ وَحَلُمْتُ .

وَرَأَيْتُ نَفْسِـي فِي الْحُلْمِ طَائِرًا أَسْـبَحُ فِـي الْفَضَاءِ، وَبِجَانِبِـي الْهُدْهُدُ يُرَفْرِفُ بِجَنَاحَيْهِ، عَلَى رَأْسِهِ التَّاجُ، وَعَلَى كَتِفَيْهِ عَبَاءَةٌ بَيْضَاءُ تُهَفْهِفُ مَعَ النَّسِيمِ، كَانَ يُشْبِهُ جَـدِّي وَهُوَ خَـارِجٌ لِصَلاَةِ الْفَجْرِ، يُتَمْتِـمُ وَلاَ يَتَكَلَّمُ ، وَقَطَرَاتُ مَـاءِ الْوَضُوءِ عَلَى وَجْهِهِ تَلْمَعُ تَحْتَ نُورِ الْقَمَرِ.

لَمْ يَكُنِ الْهُدْهُدُ يَفْتَحُ فَمَهُ وَيَتَكَلَّمُ بِكَلاَمٍ، وَرَغْمَ ذَلِكَ كُنْتُ أَفْهَمُ كُلَّ مَا يَقُولُ، لَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ، وَلَكِنَّ هَذَا مَا حَدَثَ!!

قَالَ لِي: اُنْظُرْ.

فَنَظَرْتُ، فَإِذَا بِنَا نَطِيرُ فَوْقَ مُدُنٍ عَجِيبَةٍ، ذَاتِ أَعْمِدَةٍ عَالِيَةٍ، وَقِلَاعٍ مَهِيبَةٍ، وَقُصُورٍ شَاهِقَةٍ ذَاتِ قِبَابٍ وَأَبْرَاجٍ.

ثُمَّ قَالَ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ: اُنْظُرْ.

فَنَظَرْتُ، فَإِذَا بِنَارٍ عَظِيمَةٍ تَلْتَهِمُ كُلَّ مَا رَأَيْتُ، وَتَشُبُّ أَلْسِنَتُهَا فِي الْفَضَاءِ، فَرَفْرَفْتُ بِكُلِّ قُوَّتِي لِأَرْتَفِعَ فِي السَّمَاءِ، وَظَلَلْتُ مَذْعُورًا أُرَفْرِفُ وَأُرَفْرِفُ، وَصَوْتُ الْهُدْهُدِ يَأْتِينِي دُونَ كَلَامٍ، وَهُوَ يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ:

«الله أَحَدْ... هَذَا مَا زَرَعَ الإِنْسَانُ، وَهَذَا مَا حَصَدْ»

فَلَحِقْتُ بِهِ وَأَنَا أَلْهَثُ، وَقُلْتُ: لاَ أَفْهَمُ !!

قَالَ: تَعَلَّمْ وَسَتَفْهَمُ.

وَأَخَذَنِي تَحْتَ جَنَاحِهِ فَهَبَطْنَا مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ، فَإِذَا بِنَا فِي صَحْرَاءَ جَرْدَاءَ، لاَ شَيْءَ فِيهَا إِلاَّ رِمَالٌ

صَفْـرَاءُ، وَلاَ شَـيْءَ عَلَى الرِّمَالِ إِلاَّ صُنْـدُوقٌ كَبِيرٌ، مِثْلُ غُرْفَةٍ مِـنْ زُجَاجٍ، تَضْرِبُهَا الشَّمْسُ الْحَارِقَةُ بِأَلْسِنَتِهَا النَّارِيَّةِ، وَلَيْسَ فِيهَا ثُقْبٌ يَدْخُلُ مِنْهُ الْهَوَاءُ.

قَالَ لِلْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ: اُنْظُرْ.

فَنَظَـرْتُ، فَـإِذَا بِدَاخِلِ الصُّنْدُوقِ وَلَـدٌ أَعْرِفُهُ، مِنْ جِيرَانِنَـا، وَاحِدٌ مِنَ الأَوْلاَد الأَشْقِيَاءِ الَّذِينَ يَكْسِرُونَ جِرَارَ السَّبِيلِ، وَيَنْزِعُونَ وَرْدَ الْحَدَائِقِ، وَيَنْصِبُونَ الْفِخَاخَ لِلطُّيُـورِ، وَقَدْ نَبَتَ لَهُ ذَيْلٌ، وَصَارَتْ قَدَمَاهُ حَافِرَيْنِ، وَصَارَ فَمُهُ مِنْقَارًا طَوِيلاً مُدَبَّبًا مِثْلَ مِنْقَارِ الْهُدْهُدِ، فَالْتَفَتُّ إِلَى الْهُدْهُدِ مُنْدَهِشًا، فَلَمْ أَجِدْ لَهُ مِنْقَارًا، بَلْ وَجَدْتُ لَهُ وَجْهًا جَمِيلاً، يُشْبِهُ وَجْهَ جَدِّي، بِشَفَتَيْنِ مُبْتَسِمَتَيْنِ وَلِحْيَةٍ بَيْضَاءَ!!

كَانَ الْوَلَـدُ الشَّـقِيُّ مَرْبُوطَ الْيَدَيْنِ، يَتَقَافَـزُ عَلَى حَافِرَيْهِ، يَصْرُخُ وَلاَ نَسْـمَعُهُ، وَيَضْـرِبُ الزُّجَاجَ بِمِنْقَـارِهِ، وَيَظَلُّ يَضْرِبُ وَيَضْـرِبُ، حَتَّى يَنْكَسِـرَ الْمِنْقَارُ، فَيَقَعَ مُنْهَـارًا عَلَـى الأَرْضِ، فَيَنْبُتَ لَهُ مِنْقَارٌ جَدِيدٌ، فَيَعُـودَ لِيَضْـرِبَ الزُّجَاجَ مِنْ جَدِيدٍ، وَهَكَذَا فِي كُلِّ مَرَّةٍ، يَنْكَسِـرُ الْمِنْقَارُ، ثُـمَّ يَنْبُتُ مِنْ جَدِيدٍ، فَيَعُودُ لِيَضْرِبَ وَيَضْرِبَ وَيَضْرِبَ.

وَصَحَوْتُ مِنَ الْحُلْمِ ..

صَحَـوْتُ عَلَـى صَوْتِ الْمِنْقَـارِ يَضْرِبُ الزُّجَـاجَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْقَـارَ الْوَلَدِ الشَّقِيِّ، بَلْ كَانَ مِنْقَارَ الْعُصْفُورَةِ عَلَى زُجَاجِ شُبَّاكِي!!

# أَوَّلُ صَبَاح

فَتَحْتُ عَيْنَيَّ فِي لَهْفَةٍ وَقَلَقٍ عَلَى الْهُدْهُدِ، فَإِذَا بِهِ جَالِسٌ فِي قَفَصِهِ يَبْتَسِمُ لِي فِي هُدُوءٍ، رَغْمَ مَا يَبْدُو عَلَيْهِ مِنَ التَّعَبِ الشَّدِيدِ، وَيَقُولُ بِصَوْتِهِ الضَّعِيفِ:

أَسْعَدَ اللهُ صَبَاحَكَ يَا صَدِيقِي، أَنَا لاَ زِلْتُ حَيًّا لَمْ أَمُتْ، لَقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ لِدُعَائِكَ.

نَهَضْتُ مِنْ سَرِيرِي، وَاقْتَرَبْتُ مِنَ الْهُدْهُدِ، وَقُلْتُ لَهُ: هَلْ أَفْطَرْتَ؟

فَابْتَسَمَ وَقَالَ: لاَ، لَمْ أُفْطِرْ؛ فَهَذَا الطَّعَامُ لاَ يُنَاسِبُنِي، فَأَنَا لاَ آكُلُ الْحُبُوبَ وَلاَ الْخُبْزَ.

قُلْتُ مُنْدَهِشًا: مَاذَا تَأْكُلُ إِذًا؟

قَالَ: آكُلُ دُودَ الأَرْضِ.

قُلْتُ: وَكَيْفَ أُحْضِرُهُ إِلَيْكَ؟!

obeikandl.com

قَالَ: لاَ تُحْضِرْهُ إِلَيَّ، بَلْ خُذْنِي إِلَيْهِ، إِنَّهُ فِي الأَرْضِ الرَّطْبَةِ، عِنْدَ شَاطِئِ النِّيلِ، تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةِ التُّوتِ، فِي الْمَكَانِ الَّذِي تُحِبُّهُ، وَتَجْلِسُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ، تَحْلُمُ بِالطَّيَرَانِ.

انْدَهَشْتُ! وَسَأَلْتُهُ: كَيْفَ عَرَفْتَ؟

فَابْتَسَمَ، وَلَمْ يُجِبْنِي، وَقَالَ: هَيَّا يَا صَدِيقِي؛ فَأَنَا جَائِعٌ.

مَدَدْتُ إِلَيْهِ يَدَيَّ، فَأَخْرَجْتُهُ مِنَ الْقَفَصِ بِرِفْقٍ، وَحَمَلْتُهُ عَلَى صَدْرِي، كَمَا حَمَلَتْهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَتَحْتَ شَجَرَةِ التُّوتِ أَنْزَلْتُهُ عَلَى الأَرْضِ الرَّطْبَةِ، حَاوَلَ الْوُقُوفَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ ضَعِيفًا يَتَرَنَّحُ، يَضْرِبُ بِمِنْقَارِهِ فِي الأَرْضِ، فَلاَ يَنْغَرِسُ إِلاَّ قَلِيلاً، وَلاَ يَخْرُجُ بِشَيْءٍ!!

فَكَّرْتُ بِسُرْعَةٍ، وَعَلَى الْفَوْرِ أَحْضَرْتُ غُصْنًا يَابِسًا، وَأَخَذْتُ أَحْفِرُ بِهِ الأَرْضَ، وَأُقَلِّبُ التُّرْبَةَ أَمَامَهُ، وَهُوَ يَنْقُرُ فِيهَا، وَيَأْكُلُ، حَتَّى شَبِعَ، فَحَمَلْتُهُ عَلَى كَفَّيَّ، وَقَرَّبْتُهُ مِنْ مَاءِ النِّيلِ فَشَرِبَ، وَرَفَعْتُهُ فَأَجْلَسْتُهُ عَلَى غُصْنِ الشَّجَرَةِ الْمَائِلِ، الَّذِي يَجْرِي مِنْ تَحْتِهِ الْمَاءُ، وَجَلَسْتُ إِلَى جِوَارِهِ وَالْعُصْفُورَةُ فَوْقَنَا أَمَامَ عُشِّهَا، تُزَقْزِقُ وَتُصَفِّقُ

## الْوَصِيَّةُ وَالْعَهْد

كُنْتُ فِي شَوْقٍ شَدِيدٍ لِسَمَاعِ حِكَايَةِ الْهُدْهُدِ، وَمَعْرِفَةِ أَسْرَارِهِ، وَلَمْ أَكُنْ أَسْتَطِيعُ الانْتِظَارَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَبَادَرْتُهُ بِالسُّؤَالِ: مَا حِكَايَتُكَ؟ وَلِمَاذَا تَحْتَاجُ إِلَى صَدِيقٍ مِنَ الْبَشَرِ وَأَنْتَ طَائِرٌ، لَكَ جَنَاحَانِ، وَتَسْتَطِيعُ الطَّيَرَانَ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ؟!

اِلْتَفَتَ إِلَيَّ الْهُدْهُدُ، بِابْتِسَامَتِهِ الشَّاحِبَةِ وَصَوْتِهِ الضَّعِيفِ، وَقَالَ: يَا صَدِيقِي الْحَبِيبَ، أَنْتُمُ الْبَشَرَ، أَبْنَاءَ وَبَنَاتِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْكُمْ بِنِعَمٍ كَثِيرَةٍ، وَمِنْ أَعْظَمِ هَذِهِ النِّعَمِ أَنَّكُمْ تَقْرَأُونَ وَتَكْتُبُونَ، فَتَحْفَظُونَ تَجَارِبَكُمْ وَخِبْرَاتِكُمْ، لِيَسْتَفِيدَ مِنْهَا مَنْ يَأْتِي بَعْدَكُمْ، وَيُضِيفَ إِلَيْهَا، فَيَزْدَادَ عِلْمُكُمْ، وَتَنْمُوَ مَعَارِفُكُمْ. أَمَّا أَنَا فَلَا أَقْرَأُ وَلَا أَكْتُبُ، وَكُلُّ مَا أَعْرِفُهُ، وَمَا تَعَلَّمْتُهُ مِنْ أَبِي، وَمَا تَعَلَّمَهُ أَبِي مِنْ جَدِّي، وَمَا تَعَلَّمَهُ جَدِّي مِنْ جَدِّ جَدِّي، حَتَّى جَدِّنَا الأَكْبَرِ، كُلُّ ذَلِكَ تَعَلَّمْتُهُ شَفَاهَةً، وَصَارَ أَمَانَةً فِي عُنُقِي، أَحْفَظُهُ فِي عَقْلِي، وَكَانَ يَجِبُ أَنْ أَنْقُلَهُ إِلَى وَلَدِي، وَلَكِنْ أَيْنَ وَلَدِي ؟!!

قَالَ الْهُدْهُدُ ذَلِكَ، وَتَحَشْرَجَ صَوْتُهُ، فَمَالَ بِرَأْسِهِ، وَأَخَذَ يَبْكِي. شَعَرْتُ بِالْحُزْنِ وَالإِشْفَاقِ عَلَيْهِ، وَلَمْ أَجِدْ كَلاَمًا أَقُولُهُ، فَأَخَذْتُ أَمْسَحُ عَلَى رَأْسِهِ بِأَطْرَافِ أَصَابِعِي، وَأُرَبِّتُ عَلَى ظَهْرِهِ بِرِفْقٍ، حَتَّى هَدَأَ بَعْضَ الشَّيْءِ، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ، وَقَالَ بِصَوْتٍ جَادٍّ حَزِينٍ:

إِذَا لَمْ تَحْمِلْ عَنِّي هَذِهِ الأَمَانَةَ يَا وَلَدِي، فَسَوْفَ يَضِيعُ أَعْظَمُ الْكُنُوزِ. هَلْ تَقْبَلُ أَنْ تَحْمِلَهَا عَنِّي قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ؟ وَهَلْ تُعَاهِدُنِي أَمَامَ الله أَنْ تُؤَدِّيَهَا؟

شَعَرْتُ بِالْخَوْفِ وَالارْتِبَاكِ الشَّدِيدِ، وَسَأَلْتُهُ: مَا تِلْكَ الأَمَانَةُ؟ وَكَيْفَ أُؤَدِّيهَا؟

فَقَالَ: أَنْ تَكْتُبَ كُلَّ مَا أَحْكِيهِ لَكَ، لِكَيْ يَقْرَأَهُ كُلُّ النَّاسِ، وَيَتَعَلَّمُوا مِنْهُ الْحِكْمَةَ!!

قُلْتُ: وَمَا الْحِكْمَةُ؟

قَالَ: لاَ تَتَعَجَّلْ، تَعَلَّمْ وَسَتَفْهَمُ!!

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، تَذَكَّرْتُ الْحُلْمَ، وَتَذَكَّرْتُ أَنَّهُ فِي الْحُلْمِ كَانَ يَقُولُ لِي ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ كَانَ يُشْبِهُ جَدِّي! تُرَى هَلْ مَا زِلْتُ أَحْلُمُ؟! شَعَرْتُ بِرَهْبَةٍ، وَسَرَتْ قَشْعَرِيرَةٌ فِي بَدَنِي، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، وَقَدْ مَلأَنِي الشُّعُورُ بِأَنَّنِي سَأَرَاهُ الآنَ بِعَبَاءَتِهِ الْبَيْضَاءِ الْهَفْهَافَةِ، وَشَفَتَيْهِ الْمُبْتَسِمَتَيْنِ، وَلِحْيَتِهِ الْبَيْضَاءِ، وَلَكِنِّي وَجَدْتُهُ الْهُدْهُدَ الضَّعِيفَ نَفْسَهُ، بِمِنْقَارِهِ الطَّوِيلِ الْمُدَبَّبِ، وَالضِّمَادَةِ عَلَى جَنَاحِهِ الْمُصَابِ، لاَ زَالَ جَالِسًا أَمَامِي عَلَى غُصْنِ شَجَرَةِ التُّوتِ، حَزِينًا يَنْظُرُ إِلَى الأَرْضِ!!

رَفَعَ رَأْسَهُ، وَنَظَرَ إِلَيَّ طَوِيلاً، ثُمَّ قَالَ: هَلْ تُعَاهِدُنِي؟

اِسْتَجْمَعْتُ شَجَاعَتِي، وَغَلَبَنِي حُبُّ الاسْتِطْلاَعِ، وَرَغْبَتِي الشَّدِيدَةُ فِي سَمَاعِ حِكَايَتِهِ، فَقُلْتُ دُونَ تَفْكِيرٍ: أُعَاهِدُكَ، يَا جَدِّي!!

لاَ أَعْرِفُ لِمَاذَا قُلْتُ لَهُ يَا جَدِّي، وَلَكِنَّهَا أَسْعَدَتْهُ، فَابْتَسَمَ لِي بِحُبٍّ، وَقَالَ: وَنَا، مِنَ الآنِ، سَأُسَمِّيكَ (الأَمِين)

قُلْتُ مُنْدَهِشًا: الأَمِينُ؟!! وَلَكِنَّ اسْمِي (أَحْمَدُ)

فَالْتَفَتَ نَاظِرًا إِلَى الأُفُقِ الْبَعِيدِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ أَحْمَدَ، وَاجْعَلْهُ الأَمِينَ.

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ: سَأَبْدَأُ مَعَكَ كَمَا بَدَأَ مَعِي أَبِي، وَكَمَا بَدَأَ كُلُّ هُدْهُدٍ مِنْ أَجْدَادِي مَعَ ابْنِهِ وَهُوَ يُوصِيهِ، عِنْدَمَا شَعَرَ بِاقْتِرَابِ أَجَلِهِ!!

obeikandl.com

# الجَدُّ الأوَّلُ
# الهُدْهُدُ الحَكِيم

كَانَ قَلْبِي يَدُقُّ بِقُوَّةٍ، مِنْ شِدَّةِ شَوْقِي وَلَهْفَتِي عَلَى سَمَاعِ الْهُدْهُدِ، وَهُوَ يَعْتَدِلُ فِي جِلْسَتِهِ، وَبِصَوْتِهِ الضَّعِيفِ الْهَادِئِ، يَقُولُ:

تَبْدَأُ حِكَايَتُنَا يَا وَلَدِي، بِجَدِّنَا الأَوَّلِ (الْهُدْهُد الْحَكِيم)، الَّذِي كَانَ جُنْدِيًّا مِنْ جُنُودِ نَبِيِّ الله الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ....

وَكَمَا تَعْرِفُ يَا وَلَدِي، فَقَدْ كَانَ سَيِّدُنَا سُلَيْمَانُ مَلِكًا عَلَى الطُّيُورِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْحَشَرَاتِ، كَمَا كَانَ مَلِكًا عَلَى الْجِبَالِ وَالرِّيَاحِ، والإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْعَفَارِيتِ، وَكَانَ لَهُ جُيُوشٌ مِنْ كُلِّ هَؤُلاَءِ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْجُيُوشُ تَقِفُ صُفُوفًا مُنْتَظِمَةً فِي مَوَاعِيدَ مُحَدَّدَةٍ، مِثْل كُلِّ الْجُيُوشِ، لِكَيْ يَمُرَّ عَلَيْهَا قَائِدُهَا الْعَظِيمُ، سَيِّدُنَا سُلَيْمَانُ، يَتَفَقَّدُ أَحْوَالَهَا، وَيُلْقِي عَلَيْهَا أَوَامِرَهُ.

وَكَانَ جَدُّنَا الْهُدْهُد الْحَكِيمُ جُنْدِيًّا

مُطِيعًا مُلْتَزِمًا مِنْ جُنُودِ سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ فِي جَيْشِ الطُّيُورِ، إِلاَّ أَنَّ حُبَّهُ لِلاسْتِطْلاَعِ وَ لْمَعْرِفَةِ أَوْقَعَهُ فِي وَرْطَةٍ هَائِلَةٍ، كَادَتْ تُودِي بِحَيَاتِهِ!!

وَالَّذِي حَدَثَ أَنَّ سَيِّدَنَا سُلَيْمَانَ كَانَ يَتَفَقَّدُ جَيْشَ الطُّيُورِ، وَالْكُلُّ وَاقِفٌ ثَابِتٌ مَسْدُودٌ، لاَ يَهْتَزُّ أَقَلَّ اهْتِزَازَةٍ، وَلاَ تَطْرِفُ عَيْنُهُ، مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ وَالرَّهْبَةِ، مِنْ قَائِدِهِ الْمَهِيبِ الْحَازِمِ، الَّذِي يُعَذِّبُ أَيَّ جُنْدِيٍّ مِنْ جُنُودِهِ أَشَدَّ الْعَذَابِ عَلَى أَقَلِّ إِهْمَالٍ أَوْ تَهَاوُنٍ أَوْ تَأْخِيرٍ، فَمَا بَالُكَ بِمَنْ كَانَ غَائِبًا عَنِ الْجَيْشِ ؟!!

وَفِي هَذَا الْيَوْمِ، كَانَ جَدُّنَا الْهُدْهُدُ الْحَكِيمُ غَائِبًا!!

لاَحَظَ سَيِّدُنَا سُلَيْمَانُ غِيَابَ الْهُدْهُدِ، فَغَضِبَ عَلَيْهِ، وَلَمَّا سَأَلَ عَنْ سَبَبِ غِيَابِهِ، لَمْ يَأْتِهِ جَوَابٌ مِنْ أَحَدٍ، فَازْدَادَ غَضَبُهُ، وَأَعْلَنَ قَرَارَهُ الرَّهِيبَ بِأَنَّهُ سَيُعَذِّبُ الْهُدْهُدَ عَذَابًا شَدِيدًا، بَلْ إِنَّهُ سَيَذْبَحُهُ إِذَا لَمْ يَأْتِ إِلَيْهِ بِحُجَّةٍ قَوِيَّةٍ، وَعُذْرٍ قَهْرِيٍّ يُبَرِّرُ هَذَا الْغِيَابَ !!

أَيْنَ الْهُدْهُدُ؟! لِمَاذَا غَابَ وَهُوَ الْجُنْدِيُّ الْمُلْتَزِمُ الْمُطِيعُ؟!! كَيْفَ يَغِيبُ وَيُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِهَذَا الْمَصِيرِ الرَّهِيبِ، وَهُوَ الذَّكِيُّ الْحَكِيمُ؟!!

هَذَا مَا ظَلَّتِ الطُّيُورُ تُرَدِّدُهُ طَوَالَ اللَّيْلِ، وَهِيَ خَائِفَةٌ قَلِقَةٌ عَلَى الْهُدْهُدِ، دُونَ أَنْ تَجِدَ إِجَابَةً!!

فَهِيَ، فِعْلاً، لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ عَنْهُ شَيْئًا !!

٦

# رِحْلَةٌ إِلَى المَجْهُول

فِي هَذَا الْيَوْمِ، اسْتَيْقَظَ الْهُدْهُدُ الْحَكِيمُ فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، قَبْلَ أَنْ تَسْتَيْقِظَ كُلُّ الطُّيُورُ، وَانْطَلَقَ طَائِرًا بِأَقْصَى سُرْعَتِهِ، مِنْ مَدِينَةِ سُلَيْمَانَ، الَّتِي بَنَاهَا لَهُ الْجِنُّ، مُتَّجِهًا إِلَى مَمْلَكَةٍ بَعِيدَةٍ فِي أَقْصَى الأَرْضِ، لِكَيْ يَرَى بِعَيْنَيْهِ، وَيَتَحَقَّقَ بِنَفْسِهِ مِنَ الأَخْبَارِ الْعَجِيبَةِ، الَّتِي سَمِعَهَا مِنْ بَعْضِ الطُّيُورِ الْمُهَاجِرَةِ عَنْ أَحْوَالِ هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ.

قَرَّرَ الْهُدْهُدُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ، وَهُوَ يَعْرِفُ جَيِّدًا أَنَّ غِيَابَهُ عَنِ الْجَيْشِ مُخَاطَرَةٌ كَبِيرَةٌ، قَدْ تُعَرِّضُهُ لِعِقَابٍ رَهِيبٍ!!

وَلَكِنَّهُ كَانَ مُقْتَنِعًا تَمَامًا، بِأَنَّ هَذِهِ الْمَهَمَّةَ تَسْتَحِقُّ الْمُخَاطَرَةَ بِالْحَيَاةِ!!

سَافَرَ الْهُدْهُدُ وَعَادَ مِنْ رِحْلَتِهِ الطَّوِيلَةِ، بِأَقْصَى مَا يَسْتَطِيعُ مِنَ السُّرْعَةِ، وَلَكِنَّهُ عَادَ شَاحِبًا مَنْهُوكَ الْقُوَى؛ فَهُوَ لَمْ يَأْكُلْ، وَلَمْ يَشْرَبْ، وَظَلَّ هُنَاكَ يَتَنَقَّلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ لِكَيْ يَرَى بِعَيْنَيْهِ، وَيَسْمَعَ بِأُذُنَيْهِ، وَيَتَحَقَّقَ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يُفَوِّتْ فُرْصَةً لِمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ مَا يَجْرِي. وَفِي طَرِيقِ عَوْدَتِهِ مِنْ هُنَاكَ، لَمْ يَتَوَقَّفْ عَنِ الطَّيَرَانِ لَحْظَةً وَاحِدَةً لِكَيْ يَأْكُلَ شَيْئًا، أَوْ يَرْتَاحَ قَلِيلًا، خَوْفًا أَنْ يَطُولَ تَأَخُّرُهُ، فَيَتَضَاعَفَ عَلَيْهِ الْعِقَابُ!!

قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ بِقَلِيلٍ، وَصَلَ الْهُدْهُدُ إِلَى مَدِينَةِ سُلَيْمَانَ، لِيَجِدَ مَا كَانَ يَتَوَقَّعُهُ؛ الدُّنْيَا مَقْلُوبَةٌ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ، وَكُلُّ زُمَلائِهِ الْجُنُودِ مِنْ كُلِّ الأَجْنَاسِ فِي انْتِظَارِهِ، وَهُمْ فِي شِدَّةِ الْقَلَقِ وَالْخَوْفِ عَلَيْهِ، تَحَلَّقُوا حَوْلَهُ، وَحَاصَرُوهُ بِالأَسْئِلَةِ: كَيْفَ....؟ مَتَى....؟ أَيْنَ....؟ لِمَاذَا....؟ مَنْ....؟

وَلَكِنَّهُ ظَلَّ صَامِتًا، لاَ يُجِيبُ عَنْ أَيِّ سُؤَالٍ. وَفِي النِّهَايَةِ، شَكَرَهُمْ جَمِيعًا عَلَى اهْتِمَامِهِمْ بِهِ، وَاسْتَأْذَنَهُمْ لِكَيْ يَسْتَرِيحَ، وَمَضَى، وَتَرَكَهُمْ فِي قِمَّةِ الدَّهْشَةِ وَالذُّهُولِ!!

اِبْتَعَدَ الْهُدْهُدُ، وَجَلَسَ وَحِيدًا، وَرَغْمَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَالتَّعَبِ لَمْ يُفَكِّرْ فِي الطَّعَامِ أَوِ النَّوْمِ، وَاكْتَفَى بِشَرْبَةِ مَاءٍ، فَقَدْ كَانَ ذَاهِلاً عَنِ الدُّنْيَا، خَائِفًا مَرْعُوبًا، بَعْدَ أَنْ أَبْلَغُوهُ بِالْعُقُوبَةِ الَّتِي تَنْتَظِرُهُ، إِنَّهَا الْمَوْتُ أَوِ الْعَذَابُ الأَلِيمُ، إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ إِقْنَاعَ الْمَلِكِ الْقَائِدِ بِجِدِّيَّةِ الْمَهَمَّةِ الَّتِي ذَهَبَ إِلَيْهَا، وَغَابَ مِنْ أَجْلِهَا!!

## مُحَاكَمَةُ الْهُدْهُد

فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، لَمْ يُغْمِضِ الْهُدْهُدُ عَيْنَيْهِ لَحْظَةً وَاحِدَةً، وَرَغْمَ خَوْفِهِ الشَّدِيدِ، لَمْ يَسْتَسْلِمْ لِلْيَأْسِ وَالْبُكَاءِ طَوِيلاً، بَلْ جَلَسَ يُفَكِّرُ فِيمَا سَيَقُولُهُ لِلْمَلِكِ، وَيُرَتِّبُ كَلاَمَهُ لِكَيْ يَكُونَ مُقْنِعًا مُؤَثِّرًا، وَكُلَّمَا غَلَبَهُ الْخَوْفُ وَالْبُكَاءُ، قَامَ وَصَلَّى، وَتَوَجَّهَ إِلَى اللهِ بِالدُّعَاءِ، حَتَّى أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ، وَحَانَ مَوْعِدُ مُثُولِهِ أَمَامَ الْمَلِكِ.

كَانَ سَيِّدُنَا سُلَيْمَانُ جَالِسًا عَلَى عَرْشِهِ، عَظِيمًا مَهِيبًا، وَحَوْلَهُ وُزَرَاؤُهُ وَجُنُودُهُ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ وَنَوْعٍ، وَالْكُلُّ صَامِتُونَ سَاكِنُونَ فِي أَمَاكِنِهِمْ، حَتَّى الرِّيَاحُ وَالْحَشَرَاتُ وَأَحْجَارُ الْجَبَلِ، الْكُلُّ فِي قِمَّةِ الرَّهْبَةِ وَالْقَلَقِ، يَتَرَقَّبُونَ مَا سَتُسْفِرُ عَنْهُ مُحَاكَمَةُ الْهُدْهُدِ، خَائِفِينَ مِنَ الْمَصِيرِ الأَلِيمِ الَّذِي يَنْتَظِرُهُ!!

وَإِذَا بِالْهُدْهُدِ يُلَوِّحُ فِي السَّمَاءِ عَالِيًا، يَدُورُ دَوْرَتَيْنِ فِي الْفَضَاءِ، ثُمَّ يَهْبِطُ سَرِيعًا مِثْلَ السَّهْمِ، لِيَحُطَّ عَلَى الأَرْضِ فِي رَشَاقَةٍ، يَقِفُ ثَابِتًا لَحْظَةً، مَشْدُودَ الْقَامَةِ، مَرْفُوعَ الْهَامَةِ، مُعْتَدًّا بِنَفْسِهِ، ثُمَّ يَمُرُّ مِنْ بَيْنِ الصُّفُوفِ، مُتَقَدِّمًا فِي اتِّجَاهِ الْمَلِكِ، وَاثِقًا، ثَابِتَ الْخُطُوَاتِ، لِيَقِفَ أَمَامَهُ عَلَى مَسَافَةٍ غَيْرِ بَعِيدَةٍ، وَيُؤَدِّيَ لَهُ التَّحِيَّةَ الْوَاجِبَةَ، وَيُخَاطِبُهُ بِالثِّقَةِ الَّتِي يَتَحَلَّى بِهَا الْجُنْدِيُّ الشَّرِيفُ الشُّجَاعُ، قَائِلاً:

« سَلاَمُ الله عَلَى نَبِيِّ الله مَوْلاَيَ الْمَلِكِ، فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ غِيَابِي عَنِ الْجَيْشِ جَرِيمَةٌ أَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا عُقُوبَةَ الْعَذَابِ وَالْمَوْتِ، وَلَكِنِّي مَا فَعَلْتُ ذَلِكَ إِلاَّ تَلْبِيَةً لِنِدَاءِ الْوَاجِبِ، الَّذِي أَعْلَمُ أَنَّهُ يُرْضِي مَوْلاَيَ، فَقَدْ جِئْتُكَ مِنْ هُنَاكَ بِأَخْبَارٍ لاَ عِلْمَ لَكَ بِهَا»!!

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ تَعَالَتْ هَمَسَاتُ كُلِّ الْحَاضِرِينَ دَهْشَةً وَتَعَجُّبًا مِنْ كَلامِ الْهُدْهُدِ، وَكَثُرَتْ التَّعْلِيقَاتُ:

« إِنَّهُ مُتَهَوِّرٌ.. إِنَّهُ مَجْنُونٌ... لَقَدْ تَجاوَزَ حَدَّهُ ... كَيْفَ يَدَّعِي أَنَّهُ يَعْرِفُ شَيْئاً لاَ يَعْرِفُهُ سَيِّدُنَا سُلَيْمَانُ، مَلِكُ الإِنْسِ وَالْجَانّ؟!... لَقَدْ ضَيَّعَ نَفْسَهُ ... يَا لَهُ مِنْ أَحْمَقَ مِسْكِينٍ... لَنْ يَخْرُجَ مِنْ هَذِهِ الْوَرْطَةِ أَبَدًا... سَيَقْتُلُهُ الْمَلِكُ لاَ مَحالَةَ!!»

وَمَا هِيَ إِلاَّ الْتِفَاتَةٌ مِنَ الْمَلِكِ حَتَّى صَمَتَ الْجَمِيعُ، وَعَادَ الْهُدُوءُ يَسُودُ الْمَكَانَ، وَعَادَ الْهُدْهُدُ يَقُولُ:

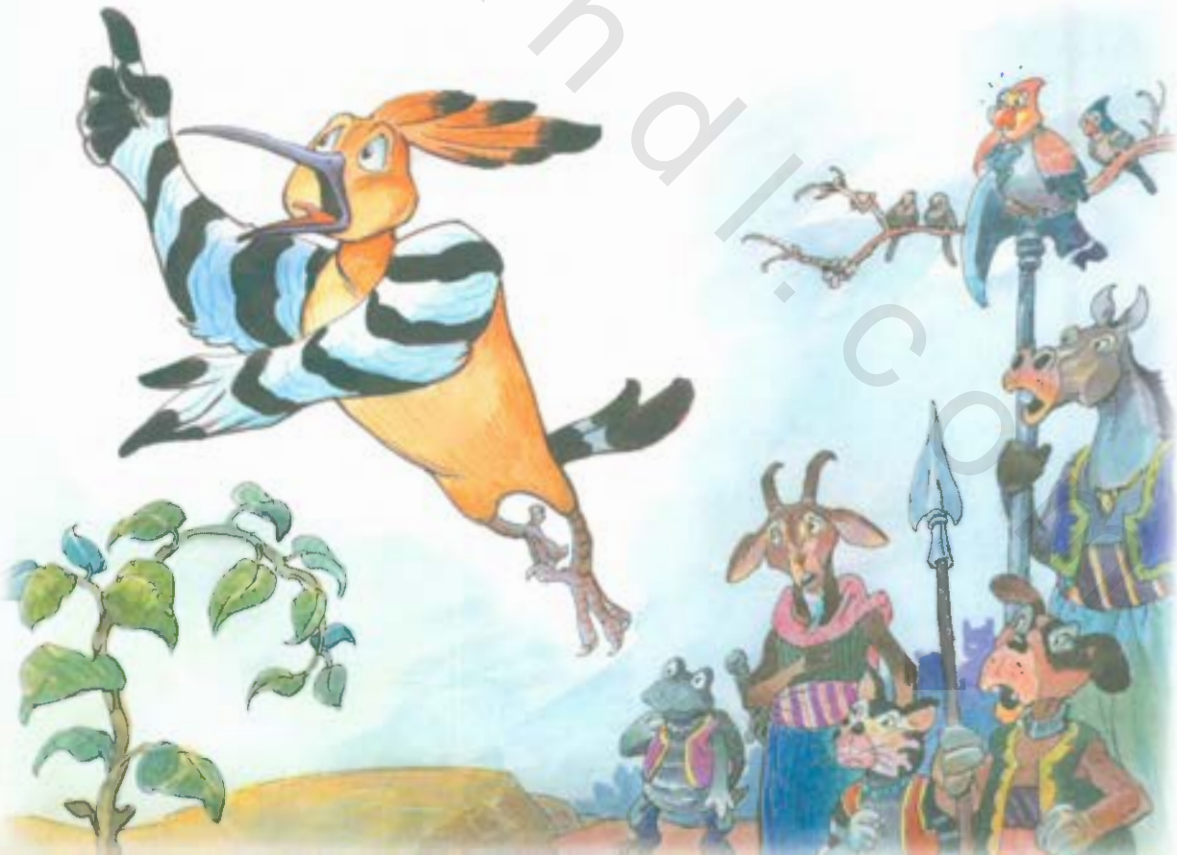

لَقَدْ سَمِعْتُ أَخْبَارًا غَرِيبَةً، تَتَنَاقَلُهَا الطُّيُورُ الْمُهَاجِرَةُ، عَنْ مَمْلَكَةٍ فِي الْيَمَنِ، جَنُوبِيَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، تُدْعَى مَمْلَكَةَ «سَبَأَ»، عَلَيْهَا مَلِكَةٌ لَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ، وَثَرَاءٌ لاَ حُدُودَ لَهُ، تُدْعَى «بِلْقِيْسَ»، وَمَا سَمِعْتُهُ كَانَ أُمُورًا خَطِيرَةً، لاَ تَحْتَمِلُ التَّأْجِيلَ، وَلَمْ أَكُنْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أُبْلِغَكَ بِهَا قَبْلَ أَنْ أَتَأَكَّدَ مِنْ صِحَّتِهَا بِنَفْسِي، فَهَذَا مَا تَعَلَّمْتُهُ مِنْكَ، وَهَذَا مَا يَلِيقُ بِجُنْدِيٍّ شَرِيفٍ تِجَاهَ قَائِدِهِ الْعَظِيمِ، فَانْطَلَقْتُ طَائِرًا إِلَى هُنَاكَ لأَتَحَقَّقَ بِنَفْسِيَ مِمَّا يَقُولُونَ، حَتَّى أُبَلِّغَكَ بِمَا أَرَاهُ بِعَيْنَيَّ، وَأَسْمَعُهُ بِأُذُنَيَّ. وَمَا رَأَيْتُهُ وَسَمِعْتُهُ شَيْءٌ رَهِيبٌ يَا مَوْلاَيَ.

وَتَوَقَّفَ الْهُدْهُدُ بُرْهَةً، قَبْلَ أَنْ يُطْلِقَ صَيْحَتَهُ الْمُدَوِّيَةَ: لَقَدْ وَجَدْتُ قَوْمًا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ، وَيَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ الله ، يَا نَبِيَّ الله !!

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، عَادَتِ الهَمَسَاتُ تَتَعَالَى مِنْ جَدِيدٍ:

مَاذَا يَقُولُ؟... هَلْ هَذَا مَعْقُولٌ؟... يَعْبُدُونَ الشَّمْسَ؟... نَعُوذُ بِالله مِنْ غَضَبِ الله ... الْهُدْهُدُ لاَ يَكْذِبُ... هَذَا كَلاَمٌ خَطِيرٌ...

وَالْتِفَاتَةٌ أُخْرَى مِنَ الْمَلِكِ أَخْرَسَتِ الْجَمِيعَ، لِيَعُودَ الصَّمْتُ وَالتَّرَقُّبُ وَالدَّهْشَةُ، وَيَعُودَ الْهُدْهُدُ لِيَقُولَ بِصَوْتٍ عَمِيقٍ، خَاشِعٍ:

هَذَا مَا جَعَلَنِي أَتَغَيَّبُ عَنِ الْجَيْشِ يَا مَوْلاَيَ، وَلَكِنِّي مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ ذَلِكَ، لَوْلاَ خُطُورَةُ الأَمْرِ، وَلَوْلاَ ثِقَتِي فِي عَفْوِكَ وَكَرَمِكَ وَحِكْمَتِكَ. فَانْظُرْ، وَاحْكُمْ بِمَا تَرَى، وَسَتَجِدُنِي مُطِيعًا، صَابِرًا، مُحْتَسِبًا أَجْرِيَ عَلَى الله ، الَّذِي مَا فَعَلْتُ كُلَّ هَذَا إِلاَّ مِنْ أَجْلِ طَاعَتِهِ وَرِضَاهُ.

قَالَ الهُدْهُدُ ذَلِكَ وَتَحَشْرَجَ صَوْتُهُ بِالبُكاءِ،

فَسَكَتَ عَنِ الْكَلامِ!!

وَسَادَ صَمْتٌ رَهِيبٌ لَمْ يَقْطَعْهُ إِلاَّ صَوْتُ سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ، وَهُوَ يُعْلِنُ أَنَّهُ سَيُؤَجِّلُ حُكْمَهُ، وَيَنْتَظِرُ، حَتَّى يَتَأَكَّدَ مِنْ كَلامِ الْهُدْهُدِ، وَيَرَى إِنْ كَانَ صَادِقًا أَمْ كَاذِبًا.

ثُمَّ يَلْتَفِتُ إِلَى كَاتِبِهِ، فَيَأْمُرُهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَيُمْلِي عَلَيْهِ خِطَابًا مُوَجَّهًا إِلَى بِلْقِيْسَ وَقَوْمِهَا، يَدْعُوهُمْ فِيهِ أَنْ يُسْلِمُوا للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَيُحَذِّرُهُمْ أَنْ يَتَكَبَّرُوا أَوْ يَتَعَالَوْا عَلَيْهِ، وَيَأْمُرُهُمْ أَنْ يَأْتُوا إِلَيْهِ طَائِعِينَ. ثُمَّ يَلْتَفِتُ إِلَى الْهُدْهُدِ فَيَأْمُرُهُ أَنْ يَحْمِلَ الْخِطَابَ، وَيَطِيرَ بِهِ إِلَى بِلْقِيْسَ، فَيَتَحَيَّنَ فُرْصَةً تَكُونُ فِيهَا وَحْدَهَا فِي غُرْفَتِهَا، فَيُلْقِي إِلَيْهَا بِالْخِطَابِ، وَيَبْتَعِدَ، لِيُرَاقِبَهَا مِنْ بَعِيدٍ وَيَرَى مَا تَفْعَلُ.

قَالَ الْهُدْهُدُ: سَمْعًا وَطَاعَةً يَا مَوْلاَيَ.

وَتَقَدَّمَ خُطُوَاتٍ ثَابِتَةً، فَحَمَلَ الْخِطَابَ بِمِنْقَارِهِ، ثُمَّ اعْتَدَلَ مَشْدُودَ الْقَامَةِ، مُؤَدِّيًا التَّحِيَّةَ الْوَاجِبَةَ مِنْ جُنْدِيٍّ لِقَائِدِهِ، وَدَارَ عَلَى كَعْبِهِ إِلَى الْخَلْفِ لِيَفْرِدَ جَنَاحَيْهِ وَيَنْطَلِقَ مُرَفْرِفًا فِي الْفَضَاءِ، تَارِكًا الْجَمِيعَ فِي دَهْشَةٍ وَذُهُولٍ!!

## فِي قَصْرِ بِلْقِيس

ظَلَّ الْهُدْهُدُ يُرَفْرِفُ بِأَقْصَى مَا يَسْتَطِيعُ، نَاسِيًا جُوعَهُ وَعَطَشَهُ وَتَعَبَهُ، وَلَمْ يَتَوَقَّفْ عَنِ الطَّيَرَانِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَمْلَكَةِ سَبَأَ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا الشَّمْسُ تَمِيلُ غَارِبَةً خَلْفَ الْجِبَالِ، فَحَطَّ عَلَى بُرْجِ قَصْرِ الْمَلِكَةِ بِلْقِيسَ، وَوَقَفَ يَلْتَقِطُ أَنْفَاسَهُ، وَيَنْتَظِرُ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ، فَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّهَا اللَّحْظَةُ الْمُنَاسِبَةُ الَّتِي تَدْخُلُ فِيهَا الْمَلِكَةُ غُرْفَتَهَا وَحِيدَةً، وَتَبْقَى فِيهَا وَحِيدَةً حَتَّى الصَّبَاحِ !!

فِي لَحْظَةِ الْغُرُوبِ، رَفْرَفَ الْهُدْهُدُ، فَحَطَّ عَلَى شُبَّاكِ غُرْفَةِ الْمَلِكَةِ، وَوَقَفَ مُخْتَبِئًا خَلْفَ ضَلْفَةِ الشُّبَّاكِ حَتَّى لاَ تَرَاهُ عِنْدَ دُخُولِهَا، وَظَلَّ مُنْتَظِرًا سَاكِنًا حَابِسًا أَنْفَاسَهُ، حَتَّى دَخَلَتِ الْمَلِكَةُ، وَبَدَّلَتْ مَلاَبِسَهَا، وَتَمَدَّدَتْ تَسْتَرِيحُ. فَانْسَلَّ بِجِسْمِهِ وَبِخِطَابِهِ مِنْ بَيْنِ الْقُضْبَانِ، وَانْطَلَقَ مُرَفْرِفًا بِاتِّجَاهِ الْمَلِكَةِ، فَأَلْقَى إِلَيْهَا الْخِطَابَ، وَعَادَ فَحَطَّ عَلَى الشُّبَّاكِ، وَالْمَلِكَةُ تَنْظُرُ فِي ذُهُولٍ!!

انْتَفَضَتِ الْمَلِكَةُ جَالِسَةً، فَبَسَطَتِ الْخِطَابَ، وَأَخَذَتْ تَقْرَأُهُ، وَقَدْ بَانَ عَلَى وَجْهِهَا الْخَوْفُ وَالْقَلَقُ، وَمَا هِيَ إِلاَّ سَاعَةٌ حَتَّى كَانَتْ قَدْ لَبِسَتْ مِنْ جَدِيدٍ مَلاَبِسَهَا الْمَلَكِيَّةَ،

وَوَضَعَتِ التَّاجَ عَلَى رَأْسِهَا، لِتَأْمُرَ بِانْعِقَادِ مَجْلِسِ الْحُكْمِ، ثُمَّ جَلَسَتْ فِي قَاعَتِهَا الْمَلَكِيَّةِ، وَحَوْلَهَا الْوُزَرَاءُ وَالأَعْيَانُ، تَحْكِي لَهُمْ مَا حَدَثَ، وَتَقْرَأُ عَلَيْهِمْ خِطَابَ سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ، بِمَا فِيهِ مِنْ دَعْوَةٍ وَنُصْحٍ وَتَهْدِيدٍ، وَتَطْلُبُ مِنْهُمُ الرَّأْيَ وَالْمَشُورَةَ.

طَالَتِ الْمُنَاقَشَاتُ، وَكَثُرَتِ الآرَاءُ. وَفِي النِّهَايَةِ، تَكَلَّمَتِ الْمَلِكَةُ، وَقَالَتْ بِصَوْتٍ حَزِينٍ: لَنْ نَسْتَطِيعَ مُوَاجَهَةَ جُيُوشِ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ، سَوْفَ يَهْزِمُنا. وَلَوْ هَزَمَنَا، وَدَخَلَ مَمْلَكَتَنَا بِالْقُوَّةِ، فَسَوْفَ يُذِلُّنَا وَيُحَوِّلُنَا إِلَى خَدَمٍ وَعَبِيدٍ. فَمَاذَا تَرَيْنَ؟!

فَتَحَيَّرَ الْحَاضِرُونَ مِنْ كَلَامِهَا، وَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَقَالُوا: أَنْتِ الْمَلِكَةُ، وَالأَمْرُ أَمْرُكِ، وَنَحْنُ عَلَيْنَا الطَّاعَةُ، فَبِمَاذَا تَأْمُرِينَ؟

صَمَتَتِ الْمَلِكَةُ بَعْضَ الْوَقْتِ تُفَكِّرُ، ثُمَّ قَالَتْ بِصَوْتٍ حَزِينٍ: سَأُرْسِلُ إِلَى سُلَيْمَانَ بِهَدِيَّةٍ ثَمِينَةٍ، وَأَنْتَظِرُ عَوْدَةَ رُسُلِنَا مِنْ عِنْدِهِ؛ لأَرَى إِنْ كَانَ طَامِعًا فِي ثَرْوَاتِنَا، أَمْ أَنَّهُ مُخْلِصٌ فِي دَعْوَتِهِ إِلَى دِينٍ جَدِيدٍ، وَبَعْدَهَا سَتَّخِذُ قَرَارِي.

وَوَافَقَ الْجَمِيعُ عَلَى ذَلِكَ، فَأَمَرَتْ بِتَجْهِيزِ الْهَدِيَّةِ، وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ بِهَا فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ.

كُلُّ هَذَا وَالْهُدْهُدُ وَاقِفٌ عَلَى شُرْفَةِ الْقَاعَةِ الْعَالِيَةِ، مُتَوَارِيًا عَنِ الأَنْظَارِ، يَسْمَعُ وَيَرَى، وَيُتَابِعُ بِكُلِّ يَقَظَةٍ وَتَرْكِيزٍ، وَيَقُولُ لِنَفْسِهِ: لَوْ أَنَّ هَؤُلاءِ النَّاسَ يَفْهَمُونَ لُغَتِي وَكَلامِي، لَنَزَلْتُ إِلَيْهِمْ، وَقُلْتُ لَهُمْ: لاَ تُضَيِّعُوا وَقْتَكُمْ، وَاذْهَبُوا إِلَى نَبِيِّ اللهِ طَائِعِينَ مُسْلِمِينَ، فَلَيْسَ أَمَامَكُمْ خَيَارٌ آخَرُ، وَلَكِنَّهُمْ بِكُلِّ أَسَفٍ لاَ يَفْهَمُونَ.

اِنْفَضَّ الْمَجْلِسُ، وَخَرَجَ الْجَمِيعُ مِنَ الْقَاعَةِ، وَسَادَ الظَّلامُ، فَاعْتَدَلَ الْهُدْهُدُ لِكَيْ يَطِيرَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَحَرَّكَ مِنْ مَكَانِهِ، لَقَدْ وَصَلَ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ إِلَى قِمَّةِ التَّعَبِ وَالإِعْيَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ شَعَرَ أَنَّ الْمَوْتَ يَقْتَرِبُ مِنْهُ، فَانْهَارَ فِي مَكَانِهِ، وَعَوَ يَدْعُو اللهَ أَنْ يَمُدَّ فِي عُمُرِهِ حَتَّى يَرَى حُلْمَهُ يَتَحَقَّقُ، فَيَرَى هَؤُلاءِ النَّاسَ قَدْ عَرَفُوا الْحَقِيقَةَ، ثُمَّ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ، وَغَابَ عَنِ الدُّنْيَا.

## رَجُلاَنِ عِنْدَ السَّيَّاجِ

قَبْلَ أَنْ تُشْرِقَ الشَّمْسُ، وَعَلَى شَقْشَقَاتِ الطُّيُورِ، فَتَحَ الْهُدْهُدُ عَيْنَيْهِ، فَوَجَدَ نَفْسَهُ فِي مَكَانِهِ ذَاتِهِ عَلَى شُرْفَةِ الْقَاعَةِ الْمَلَكِيَّةِ، حَيْثُ كَانَ مُخْتَبِئًا. حَمِدَ اللهَ الَّذِي أَمَدَّ فِي عُمُرِهِ، وَانْطَلَقَ مِنْ فَوْرِهِ حَتَّى لاَ يَفُوتَهُ مُتَابَعَةُ شَيْءٍ مِمَّا يَجْرِي، وَلَكِنَّهُ مَا كَادَ يُرَفْرِفُ بِجَنَاحَيْهِ حَتَّى شَعَرَ بِالضَّعْفِ الشَّدِيدِ، وَبِالْجُوعِ الشَّدِيدِ، وَتَذَكَّرَ أَنَّهُ لَمْ يَأْكُلْ شَيْئًا مُنْذُ وَقْتٍ طَوِيلٍ، وَأَدْرَكَ أَنَّهُ لَوِ اسْتَمَرَّ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ فَسَوْفَ يَمُوتُ

جُوعًا وَعَطَشًا، قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى قَصْرِ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ، وَعَلَى الْفَوْرِ غَيَّرَ اتِّجَاهَهُ نَازِلاً إِلَى حَدِيقَةِ الْقَصْرِ الْمَلَكِيِّ.

اخْتَارَ الْهُدْهُدُ، بِخِبْرَتِهِ، أَنْ يَحُطَّ عَلَى النَّجِيلَةِ الْخَضْرَاءِ الْمَرْوِيَّةِ، بِجِوَارِ سِيَاجٍ مِنَ الأَزْهَارِ، حَيْثُ يَكُونُ مُتَوَارِيًا عَنِ الأَنْظَارِ، وَحَيْثُ يَسْهُلُ عَلَى مِنْقَارِهِ اخْتِرَاقُ التُّرْبَةِ اللَّيِّنَةِ وَالْوُصُولُ إِلَى دُودِ الأَرْضِ الْمُشْتَهَى. وَمَا كَادَ يَنْقُرُ الأَرْضَ حَتَّى سَمِعَ صَوْتَ رَجُلَيْنِ فِي النَّاحِيَةِ الأُخْرَى مِنَ السِّيَاجِ يَتَنَاقَشَانِ، وَيَقُولاَنِ:

ـ مَلِكَتُنَا غَبِيَّةٌ وَعَنِيدَةٌ، فَهِيَ تَظُنُّ أَنَّ الْمَلِكَ سُلَيْمَانَ طَامِعٌ فِي ثَرَوَاتِهَا!! لَوْ كَانَ مَلِكُنَا رَجُلاً لَمَا حَدَثَ لَنَا هَذَا، وَلَكِنَّهَا امْرَأَةٌ!!

ـ الْمُشْكِلَةُ لَيْسَتْ فِي الْمَرْأَةِ وَالرَّجُلِ، فَالْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ الْحَكِيمَةُ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ أَحْمَقَ.

ـ مَعَكَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهَا امْرَأَةٌ حَمْقَاءُ.

ـ سَوْفَ نَرَى، وَلَكِنْ دَعْنِي أَسْأَلُكَ: هَلْ تُصَدِّقُ حِكَايَةَ الْهُدْهُدِ هَذِهِ؟!

ـ نَعَمْ أُصَدِّقُهَا

ـ أَتُصَدِّقُ أَنَّ هُنَاكَ طَائِرًا عَاقِلاً يُفَكِّرُ، وَيَحْمِلُ رِسَالَةً بِمِنْقَارِهِ، وَيَطِيرُ بِهَا كُلَّ هَذِهِ الْمَسَافَةِ، وَيُخَطِّطُ وَيُدَبِّرُ، وَيَتَحَيَّنُ الْفُرْصَةَ لِيُسَلِّمَهَا إِلَى الشَّخْصِ الْمُحَدَّدِ؟!!

ـ نَعَمْ، وَلِمَ لاَ؟ الدُّنْيَا مَلِيئَةٌ بِالْعَجَائِبِ!!

# دُعابَةٌ مُخيفَة

كَانَ الْهُدْهُدُ يَأْكُلُ بِسُرْعَةٍ وَهُوَ يُتابِعُ الْحِوارَ بِشَغَفٍ وَاسْتِمْتاعٍ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ الْبَقاءَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْطَلِقَ بِأَقْصَى سُرْعَتِهِ، لِمُتابَعَةِ وَاجِباتِهِ. وَرَغْمَ ذَلِكَ فَقَدْ غَلَبَتْهُ رُوحُ الدُّعابَةِ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُفَوِّتَ فُرْصَةَ مُداعَبَةِ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ، فَطَارَ مِنْ فَوْقِ السِّياجِ، وَحَطَّ أَمَامَهُمَا، وَثَبَّتَ نَظَرَهُ عَلَيْهِمَا، وَأَخَذَ يَتَفَرَّسُ فِيهِمَا، وَكَأَنَّهُ يَتَوَعَّدُهُمَا، فَسَكَتَا عَنِ الْكَلامِ، وَوَقَفَا حَائِرَيْنِ مُرْتَبِكَيْنِ، وَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلآخَرِ بِصَوْتٍ هَامِسٍ: لِماذا يَنْظُرُ إِلَيْنا هَكَذا؟!

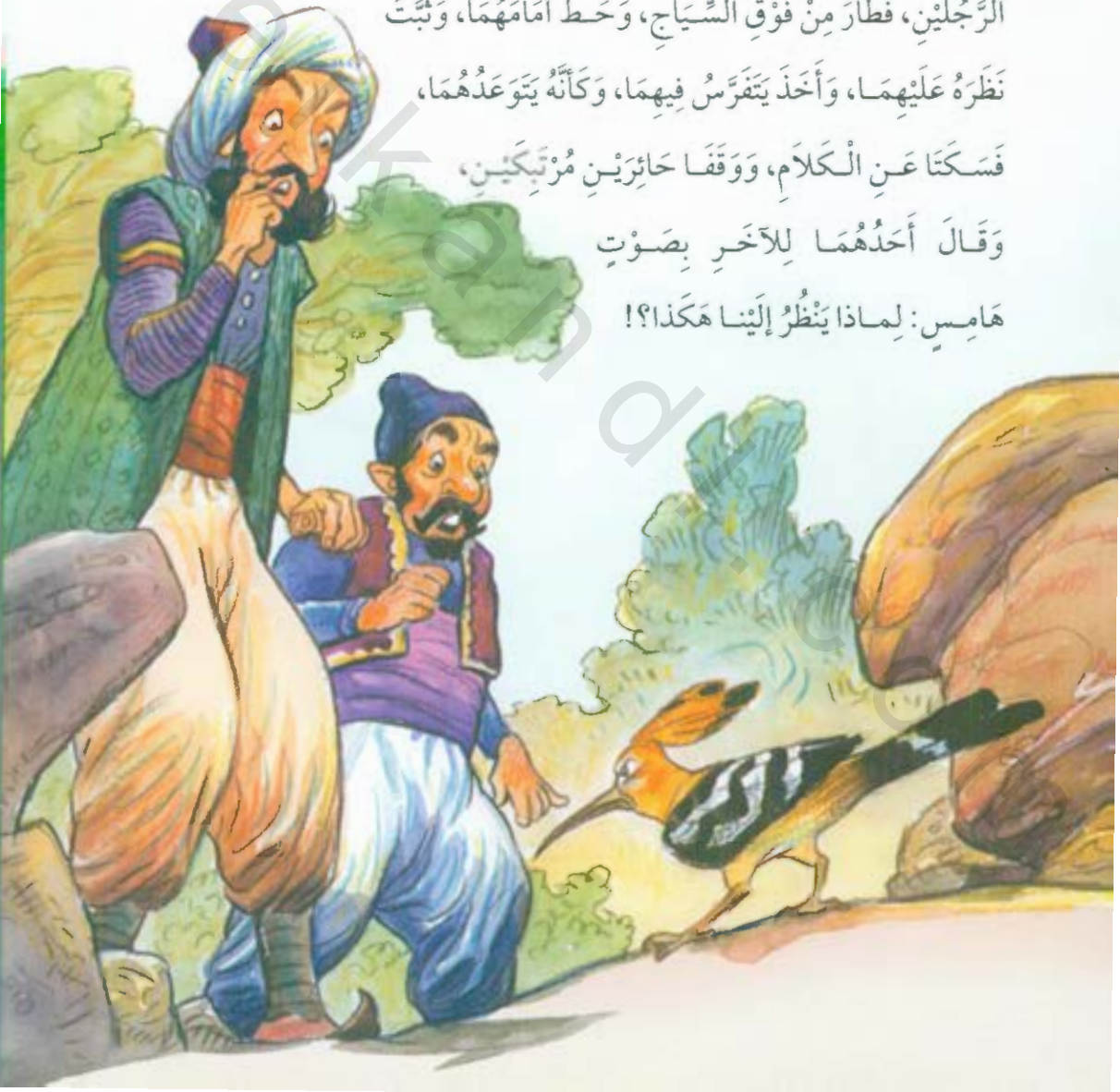

سَتَكُونُ مُصِيبَةً كَبِيرَةً لَوْ كَانَ هَذَا هُوَ الْهُدْهُد الْعَاقِل، فَقَدْ سَمِعَ كُلَّ مَا قُلْنَاهُ، وَلَوْ أَبْلَغَ الْمَلِكَةَ بِمَا سَمِعَ، فَسَوْفَ تَقْطَعُ رَقَبَتَنَا!!

فَقَالَ الآخَرُ: لاَ، لاَ تَخَفْ، هَذا هُدْهُدٌ عَادِيٌّ، أَمَّا هُدْهُدُ سُلَيْمَانَ فَلَهُ رِيشٌ ذَهَبِيٌّ فَوْقَ رَأْسِهِ!!

فَقَالَ الأَوَّلُ: إِذَا لَمْ يَكُنْ هُوَ، فَلِمَاذَا يَنْظُرُ إِلَيْنَا هَكَذَا؟!

فَقَالَ الآخَرُ: وَحَتَّى لَوْ كَانَ هُوَ فَلَنْ يُبْلِغَ الْمَلِكَةَ عَنَّا، فَهُوَ عَدُوٌّ لَهَا.

تَحَيَّرَ الرَّجُلُ الأَوَّلُ، وَازْدَادَ ارْتِبَاكُهُ، وَقَدْ كَانَ خَفِيفَ الْعَقْلِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُمْسِكَ نَفْسَهُ، فَالْتَفَتَ إِلَى الْهُدْهُدِ، وَاقْتَرَبَ مِنْهُ خُطْوَةً، وَقَالَ لَهُ بِخَوْفٍ وَتَوَسُّلٍ: أَسْتَحْلِفُكَ بِالله ، هَلْ أَنْتَ هُدْهُدُ سُلَيْمَانَ؟!

عِنْدَئِذٍ، لَمْ يَتَمَالَكِ الْهُدْهُدُ نَفْسَهُ مِنَ الْمُفَاجَأَةِ، فَالْتَفَتَ بِوَجْهِهِ إِلَى النَّاحِيَةِ الأُخْرَى، لِيُدَارِيَ ضِحْكَتَهُ وَدَهْشَتَهُ. وَقَبْلَ أَنْ يَنْطَلِقَ فِي الضَّحِكِ، رَفْرَفَ بِجَنَاحَيْهِ، وَانْطَلَقَ فِي الْفَضَاءِ.

## الْهَدِيَّةُ

حَطَّ الْهُدْهُدُ عَلَى شَجَرَةٍ عَالِيَةٍ فَوْقَ الْجَبَلِ، فَقَدْ كَانَ مِنْ أَعَاجِيبِ مَمْلَكَةِ سَبَأَ أَنَّهُمْ يَزْرَعُونَ جِبَالَهُمْ بِمُخْتَلِفِ أَنْوَاعِ الْخُضَرِ وَالأَشْجَارِ الْمُثْمِرَةِ. جَلَسَ الْهُدْهُدُ

عَلَى الْغُصْنِ لَحْظَةً يُفَكِّرُ، هَلْ يَبْقَى فِي قَصْرِ بِلْقِيسَ، لِيُتَابِعَ الأَحْدَاثَ، أَمْ يَطِيرُ إِلَى الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ، لِكَيْ يُطْلِعَهُ عَلَى مَا جَرَى، فَيَسْتَعِدَّ لِلرَّدِّ عَلَى بِلْقِيسَ وَرُسُلِهَا، قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْهِ؟

وَلَمْ يُضَيِّعْ وَقْتًا طَوِيلاً فِي التَّرَدُّدِ، فَبَيْنَ قِمَّةِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الَّتِي يَقِفُ عَلَيْهَا، وَبَيْنَ قَصْرِ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ مَسَافَةٌ طَوِيلَةٌ، يَجِبُ أَنْ يَقْطَعَهَا بِلاَ تَوَقُّفٍ، وَإِلاَّ غَرُبَتِ الشَّمْسُ، وَحَلَّ الظَّلاَمُ، قَبْلَ أَنْ يَصِلَ.

وَقَدْ كَانَ الْهُدْهُدُ حَكِيمًا فِي قَرَارِهِ هَذَا، فَعِنْدَمَا دَخَلَ رُسُلُ بِلْقِيسَ بِهَدِيَّتِهِمْ عَلَى الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ، كَانَ عَلَى عِلْمٍ تَامٍّ بِنَوَايَا مَلِكَتِهِمْ، وَبِكُلِّ مَا دَارَ بَيْنَهُمْ مِنْ مُنَاقَشَاتٍ، وَمَا لَدَيْهِمْ مِنْ أَفْكَارٍ، فَلَمْ يُعْطِهِمُ الْفُرْصَةَ لِكَيْ يُكْمِلُوا كَلاَمَهُمْ، بَلْ قَاطَعَهُمْ، وَوَبَّخَهُمْ بِلَهْجَةٍ قَاسِيَةٍ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَحْمِلُوا هَدِيَّتَهُمْ، وَيَعُودُوا بِهَا إِلَى مَلِكَتِهِمْ، فَهِيَ أَوْلَى بِهَا. وَأَعَادَ عَلَيْهِمِ التَّهْدِيدَ بِأَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يُطِيعُوهُ، فَسَوْفَ يَجْعَلُهُمْ خَدَمًا وَعَبِيدًا أَذِلاَّءَ. كُلُّ ذَلِكَ وَالرُّسُلُ وَاقِفُونَ أَمَامَهُ، يَرْتَجِفُونَ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ وَالرَّهْبَةِ.

أَمَّا الْهُدْهُدُ فَكَانَ حَاضِرًا فِي مَجْلِسِ سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ، مُتَوَارِيًا خَلْفَ سِتَارٍ، يُرَاقِبُ كُلَّ مَا يَحْدُثُ، وَيَنْظُرُ فِي وُجُوهِ الرُّسُلِ، الَّذِينَ رَأَى بَعْضَهُمْ فِي مَجْلِسِ بِلْقِيسَ، وَلَكِنَّ الْمُفَاجَأَةَ الْكُبْرَى أَنَّهُ رَأَى الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ دَاعَبَهُمَا فِي حَدِيقَةِ الْقَصْرِ، فَخَرَجَ مِنْ خَلْفِ السِّتَارِ، وَأَظْهَرَ لَهُمَا نَفْسَهُ، وَنَظَرَ إِلَيْهِمَا النَّظْرَةَ نَفْسَهَا، لاَ لِيُدَاعِبَهُمَا هَذِهِ الْمَرَّةَ، وَلَكِنْ لِكَيْ يَزِيدَ مِنْ خَوْفِهِمَا، وَيُؤَكِّدَ لَهُمَا أَنَّ قَوْمَهُمَا أَضْعَفُ مِنْ أَيِّ مُوَاجَهَةٍ، وَكَانَ هَذَا وَاضِحًا مِنَ الرَّجْفَةِ الَّتِي أَصَابَتِ الرَّجُلَيْنِ!!

وَهَكَذَا حُسِمَ الأَمْرُ، وَعَادَ الرُّسُلُ إِلَى بِلْقِيسَ، حَامِلِينَ هَدِيَّتَهُمْ، وَخَوْفَهُمُ الشَّدِيدَ!!

وَلَكِنْ قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا، كَانَ الْهُدْهُدُ قَدْ سَبَقَهُمْ، وَجَلَسَ يَسْتَمِعُ إِلَى مَجَالِسِ بِلْقِيْسَ وَرِجَالِهَا، وَهُمْ يَتَخَبَّطُونَ فِي انْتِظَارِ عَوْدَةِ رُسُلِهِمْ، حَتَّى حَانَتِ اللَّحْظَةُ الْمُرْتَقَبَةُ، فَدَخَلَ الرُّسُلُ عَلَى الْمَجْلِسِ، وَوَضَعُوا الْهَدِيَّةَ عَلَى الأَرْضِ أَمَامَ الْمَلِكَةِ، وَأَخَذُوا يَنْقُلُونَ إِلَيْهَا وَإِلَى الْحَاضِرِينَ كُلَّ مَارَأَوْا وَمَا سَمِعُوا وَمَا فَهِمُوا، وَوَقَفَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ مُرْتَبِكًا أَمَامَ بِلْقِيسَ، وَهُوَ يَحْكِي لَهَا مَا جَرَى بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الْهُدْهُدِ، فَضَحِكَ بَعْضُ الْجَالِسِينَ، وَسَخِرَ مِنْهُ، وَلَكِنَّ بِلْقِيسَ أَكَّدَتْ صِحَّةَ ذَلِكَ.

وَعِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ حَاجَةٌ لِكَيْ يَطُولَ الْجِدَالُ وَالنِّقَاشُ، وَكَانَ الْقَرَارُ الْوَاضِحُ الْحَاسِمُ: أَنْ يَذْهَبُوا جَمِيعًا، تَتَقَدَّمُهُمْ مَلِكَتُهُمْ، إِلَى سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ طَائِعِينَ مُسْلِمِينَ.

# دُمُوعُ الْفَرح

كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْمَرَّةَ الأُولَى فِي حَيَاةِ الْهُدْهُدِ الَّتِي يَبْكِي فِيهَا مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ، فَسَجَدَ للهِ شُكْرًا، وَدُمُوعُهُ تَتَسَاقَطُ عَلَى الأَرْضِ.

أَمَّا الْمَرَّةُ الثَّانِيَةُ فَكَانَتْ عِنْدَمَا كَرَّمَهُ سَيِّدُنَا سُلَيْمَانُ، أَمَامَ كُلِّ الْجُنُودِ، تَقْدِيرًا لإِخْلاَصِهِ، وَتَفَانِيهِ فِي أَدَاءِ وَاجِبِهِ، وَمَنَحَهُ لَقَبَ (الْهُدْهُدِ الْحَكِيمِ).

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ أَيْضًا لَمْ يَتَمَالَكِ الْهُدْهُدُ الْحَكِيمُ نَفْسَهُ، فَأَجْهَشَ بِالْبُكَاءِ، وَسَجَدَ للهِ شُكْرًا وَعِرْفَانًا وَتَوَاضُعًا، وَقَالَ :

اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْتَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ، فَاجْعَلْ ذُرِّيَّتِي مِنَ الْحُكَمَاءِ الصَّالِحِينَ الْمُصْلِحِينَ، الْعَامِلِينَ لِعُمْرَانِ الدُّنْيَا وَصَلاَحِ الآخِرَةِ، وَاجْعَلْهُمْ يَسْعَوْنَ إِلَى الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ بِلاَ حَدٍّ، وَيَكْتَسِبُونَهَا بِالاِجْتِهَادِ وَالْجِدِّ، وَيَتَوَارَثُونَهَا ابْنًا عَنْ أَبٍ عَنْ جَدٍّ، إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. آمِينْ.

وَعِنْدَمَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ سُجُودِهِ وَدُعَائِهِ، كَانَتِ الْمَلِكَةُ بِلْقِيسُ وَقَوْمُهَا يَدْخُلُونَ مِنْ بَوَّابَةِ الْمَدِينَةِ، مُتَّجِهِينَ إِلَى الْقَصْرِ، لِيَقِفُوا أَمَامَ نَبِيِّ اللهِ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ، وَيُعْلِنُوا إِسْلاَمَهُمْ طَائِعِينَ مُخْلِصِينَ.

# الْيَوْمُ الْمَعْلُومُ

وَمَرَّتِ الأَيَّامُ وَالشُّهورُ وَالسَّنَوَاتُ، وَجَدُّنَا الْهُدْهُدُ الْحَكِيمُ مُقَرَّبٌ إِلَى سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ، يَعْمَلُ فِي خِدْمَتِهِ جُنْدِيًّا مِنْ جُنُودِهِ، وَمُسْتَشَارًا حَكِيمًا مِنْ خُلَصَائِهِ، حَتَّى جَاءَ الْيَوْمُ الْمَعْلُومُ، وَوَقَعَ الْقَدَرُ الْمَحْتُومُ، وَلاَ شَيْءَ فِي الدُّنْيَا يَدُومُ، لاَ يَدُومُ يَا وَلَدِي إِلاَّ الْحَيُّ الْقَيُّومُ.

مَاتَ سَيِّدُنَا سُلَيْمَانُ، وَلَمْ يَعْرِفْ أَيُّ كَائِنٍ مِنَ الْكَائِنَاتِ أَنَّهُ مَاتَ!! فَقَدْ مَاتَ وَهُوَ جَالِسٌ يُرَاقِبُ الْجِنَّ وَهُمْ يَبْنُونَ لَهُ قَصْرًا أَمَرَهُمْ بِبِنَائِهِ، وَقَدْ أَسْنَدَ ذَقْنَهُ عَلَى عَصَاهُ، وَصَوَّبَ نَظَرَهُ إِلَيْهِمْ، مُهَدِّدًا مُتَوَعِّدًا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ لِمَنْ يَتَكَاسَلُ، أَوْ يُهْمِلُ، وَفَاضَتْ رُوحُهُ إِلَى بَارِئِهَا وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، لَمْ يُغَيِّرْ وَضْعَهُ، وَلَمْ يُغْمِضْ عَيْنَيْهِ، فَظَنَّ الْجِنُّ أَنَّهُ غَضِبٌ عَلَيْهِمْ، فَارْتَعَبُوا، وَظَلُّوا يَعْمَلُونَ لَيْلَ نَهَارَ، دُونَ تَوَقُّفٍ، وَبِكُلِّ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ طَاقَةٍ، وَهُمْ لاَ يَعْرِفُونَ أَنَّهُ مَاتَ!!

أَمَّا الْهُدْهُدُ الْحَكِيمُ فَقَدْ كَانَ يُسَاوِرُهُ الشَّكُّ، وَيَعْتَصِرُهُ الْخَوْفُ، حَتَّى إِنَّهُ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ لَمْ يَكُنْ يَسْتَطِيعُ النَّوْمَ، وَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تَخْطِرُ هَذِهِ الْفِكْرَةُ بِبَالِهِ، فَتَنْتَابُهُ مَوْجَةٌ مِنَ الْحُزْنِ وَالْبُكَاءِ لاَ يَسْتَطِيعُ مُغَالَبَتَهَا، فَيَنْتَحِي بَعِيدًا عَنِ الْعُيُونِ، وَيَجْلِسُ وَحِيدًا يَبْكِي، وَيَدْعُو اللهَ وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْتَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، اللَّهُمَّ خَيِّبْ ظَنِّي، وَأَطِلْ عُمْرَ نَبِيِّكَ الْكَرِيمِ.

وَظَلَّ سَيِّدُنَا سُلَيْمَانُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ أَيَّامًا وَأَيَّامًا، وَلَكِنَّ حَشَرَةَ الْخَشَبِ جَاءَتْ لِتَعْمَلَ مَا أَمَرَهَا بِهِ الله، فَأَخَذَتْ تَنْخِرُ فِي الْعَصا، وَلاَ زَالَتْ تَنْخِرُهَا وَتَنْخِرُهَا حَتَّى انْكَسَرَتْ، وَمَالَ نَبِيُّ الله بِجَسَدِهِ الشَّرِيفِ، وَلَمْ يَعْتَدِلْ، فَعَرَفَ الْجَمِيعُ أَنَّهُ مَاتَ، فَانْفَضُّوا وَتَفَرَّقُوا وَذَهَبَ كُلٌّ مِنْهُمْ فِي طَرِيقٍ!!

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، انْهَارَ الْهُدْهُدُ وسَقَطَ عَلَى الأَرْضِ، وَأَجْهَشَ بِالْبُكَاءِ، وَظَلَّ بَعْدَهَا أَيَّامًا يَبْكِي وَيَبْكِي حَتَّى ضَعُفَ جِسْمُهُ، وَتَدَهْوَرَتْ صِحَّتُهُ، وَشَعَرَ بِاقْتِرَابِ النِّهَايَةِ!!

## أَوَّلُ وَصِيَّة

لَمَّا شَعَرَ جَدُّنَا الْهُدْهُدُ الْحَكِيمُ بِاقْتِرَابِ الْمَوْتِ، نَادَى وَلَدَهُ، وَأَخَذَ عَلَيْهِ الْعَهْدَ أَنْ يَكُونَ حَافِظًا لِلأَمَانَةِ، سَاعِيًا طَوَالَ حَيَاتِهِ لِطَلَبِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ.

وَبَعْدَ أَنْ أَخَذَ عَلَيْهِ الْعَهْدَ الْوَثِيقَ، حَكَى لَهُ كُلَّ مَا حَدَثَ، وَكُلَّ مَا رَأَى وَمَا سَمِعَ وَكُلَّ مَا اسْتَخْلَصَ مِنْ دُرُوسٍ وَعِبَرٍ، ثُمَّ قَالَ لَهُ:

هَذِهِ أَمَانَتُكَ، احْفَظْهَا فِي قَلْبِكَ، وَانْقُلْهَا إِلَى وَلَدِكَ، قَبْلَ أَنْ تَمُوتَ، وَأَوْصِهِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ هُوَ أَيْضًا مَعَ وَلَدِهِ. وَمِنَ الآنَ، وَصِيَّتِي لِكُلِّ هُدْهُدٍ يَأْتِي مِنْ

بَعْـدِي، أَنْ يَقْضِيَ حَيَاتَـهُ كُلَّهَا، لَحْظَةً بِلَحْظَـةٍ، يَتَجَوَّلُ فِي أَرْجَاءِ الدُّنْيَا الْوَاسِـعَةِ، يَتَفَقَّـدُ أَحْـوَالَ الْبِـلَادِ وَالْعِبَـادِ، يُتَابِعُ الأَحْـدَاثَ، وَيَجْمَـعُ الأَخْبَارَ، وَيَسْـتَخْلِصُ الدُّرُوسَ وَالْعِبَرَ، وَيَنْقُلُهَا إِلَى مَنْ يَأْتِي بَعْدَهُ.

ثُمَّ فَاضَتْ رُوحُ جَدِّنَا الْهُدْهُدِ الْحَكِيمِ إِلَى بَارِئِهَا!!

قَـالَ صَاحِبِي ذَلِكَ وَلَمْ يَتَمَالَكْ نَفْسَـهُ فَأَخَذَ يَبْكِي، وَيَمْسَـحُ دُمُوعَهُ بِالضِّمَادَةِ الَّتِـي عَلَى جَنَاحِهِ، وَلَمْ أَتَمَالَكْ نَفْسِـي أَنَا أَيْضًا، وَلَكِنِّـي غَالَبْتُ دُمُوعِي، وَدَارَيْتُهَا عَنْهُ، وَأَخَذْتُ أَمْسَحُ بِأَصَابِعِي عَلَى رَأْسِهِ، وَقُلْتُ لَهُ: وَهَلْ فَعَلْتَ هَذَا أَنْتَ أَيْضًا؟

فَقَـالَ: نَعَـمْ يَا وَلَدِي، إِنَّهُ عَهْـدٌ يَقْطَعُهُ كُلُّ هُدْهُـدٍ مِنَّا عَلَى نَفْسِـهِ، أَمَامَ وَالِدِهِ، لَحْظَةَ مَوْتِهِ، هَذَا مَا فَعَلْتُهُ أَنَا، وَهَذَا مَا فَعَلْتَهُ أَنْتَ أَيْضًا.

شَـعَرْتُ بِالرَّهْبَةِ وَالارْتِبَاكِ، فَقُلْتُ: وَلَكِنَّنِي لَسْـتُ هُدْهُدًا، أَنَا إِنْسَـانٌ صَغِيرٌ، لَيْسَ لِيَ جَنَاحَانِ أَطِيرُ بِهِمَا، فَكَيْفَ أَتَجَوَّلُ فِي أَرْجَاءِ الدُّنْيَا الْوَاسِعَةِ ؟!!

ابْتَسَـمَ الْهُدْهُدُ ابْتِسَـامَةً رَقِيقَةً، وَقَالَ: هَذَا مَا قَالَهُ لِنَفْسِهِ أَحَدُ أَجْدَادِي عِنْدَمَا مَاتَ أَبُوهُ وَهُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ، وَظَلَّ حَزِينًا خَائِفًا مُتَرَدِّدًا، حَتَّى وَجَدَ نَفْسَهُ فِي قَلْبِ الْمَعْرَكَةِ!!

قُلْتُ مُنْدَهِشًا: مَعْرَكَة؟!! وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

نَظَـرَ صَاحِبِـي الْهُدْهُدُ إِلَى الأُفُقِ الْبَعِيدِ، كَانَتِ الشَّـمْسُ تَمِيـلُ نَاحِيَةَ الْغُرُوبِ، وَكُلُّ الطُّيُورِ تَعُودُ إِلَى أَعْشَاشِهَا، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ بِابْتِسَامَتِهِ الشَّاحِبَةِ، وَصَوْتِهِ الضَّعِيفِ، وَقَالَ: غَدًا، إِذَا كَتَبَ اللهُ لِيَ أَنْ أَعِيشَ، سَأَحْكِي لَكَ هَذِهِ الْحِكَايَةَ.

# حُلْمٌ فِي حِضْنِ جَدّي

حَمَلْتُ الْهُدْهُدَ إِلَى قَفَصِهِ، وَأَغْلَقْتُ عَلَيْهِ بَابَهُ بِإِحْكَامٍ؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ تَأْكُلَهُ الْعِرْسَةُ كَمَا قَالَتْ لِيَ أُمِّي، وَمَا هِيَ إِلاَّ لَحظَاتٌ حَتَّى غَرُبَتِ الشَّمْسُ، وَحَتَّى كَانَ الْهُدْهُدُ يَغِطُّ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ.

أَمَّا أَنَا، فَفِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ أَيْضًا، لَمْ أَعْرِفْ مَتَى نِمْتُ، وَلاَ كَيْفَ نِمْتُ، وَلَكِنِّي نِمْتُ وَحَلُمْتُ...

وَفِي الْحُلْمِ، وَجَدْتُ نَفْسِي أَسْبَحُ فِي النِّيلِ، مَعَ أَنَّنِي فِي الْحَقِيقَةِ لاَ أُجِيدُ الْعَوْمَ، لَمْ أَكُنْ قَلِقًا وَلاَ خَائِفًا، بَلْ كُنْتُ سَعِيدًا مُطْمَئِنًّا، كَمَنْ أَلْقَى بِنَفْسِهِ فِي حِضْنِ جَدِّهِ، كَانَ النِّيلُ يَتَنَفَّسُ، فَيَرْتَفِعُ صَدْرُهُ، وَيَهْبِطُ، وَأَنَا فَوْقَهُ أَعْلُو وَأَهْبِطُ، مُنْسَابًا عَلَى تَمَوُّجَاتِهِ الْحَانِيَةِ كَمَنْ يَعُومُ عَلَى حَرِيرٍ، وَالضَّبَابُ يَلُفُّنِي مِثْلَ عَبَاءَةٍ شَفَّافَةٍ، وَإِذَا بِعَرُوسِ الْبَحْرِ تَخْرُجُ لِيَ وَسْطَ الضَّبَابُ نِصْفُهَا فَوْقَ الْمَاءِ عَلَى هَيْئَةِ فَتَاةٍ رَائِعَةِ الْجَمَالِ، بِعَيْنَيْنِ وَاسِعَتَيْنِ وَشَعْرٍ مُنْسَدِلٍ، وَنِصْفُهَا الآخَرُ تَحْتَ الْمَاءِ عَلَى هَيْئَةِ سَمَكَةٍ بِذَيْلٍ وَزَعَانِفَ!!

مَدَّتْ إِلَيَّ يَدَهَا وَقَالَتْ: تَعَالَ يَا أَمِينُ، تَعَالَ، لاَ تَخَفْ !!

فَمَدَدْتُ يَدِيَ لاَ خَائِفًا وَلاَ مُنْدَهِشًا، فَسَحَبَتْنِي عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ بِرِفْقٍ، فَانْزَلَقْتُ أَسْبَحُ عَلَى الْحَرِيرِ، ثُمَّ غَاصَتْ، وَسَحَبَتْنِي مَعَهَا، فَغُصْتُ خَلْفَهَا بِحَرَكَةٍ انْسِيَابِيَّةٍ إِلَى الأَعْمَاقِ، فَإِذَا بِي فِي عَالَمٍ رَائِعٍ مِنَ الأَلْوَانِ وَالأَضْوَاءِ، أَتَحَرَّكُ بَيْنَ كَائِنَاتٍ

بَحْرِيَّـةٍ، مَا رَأَيْتُ مِثْلَهَا مِنْ قَبْلُ؛ لَهَا عُيُونٌ شَـفَّافَةٌ، وَشِـفَاهٌ وَرْدِيَّةٌ، وَشُـعُورٌ ذَهَبِيَّةٌ، تَرْقُـصُ رَقْصَـةً رَائِعَةً عَلَى نَغَمَاتِ مُوسِـيقَى لَمْ أَسْـمَعْ مِثْلَهَا مِنْ قَبْـلُ، وَأَنَا أَتَمَايَلُ مَعَهَا مُنْسَابًا مَعَ النَّغَمَاتِ وَمَوْجَاتِ السَّعَادَةِ الْغَامِرَةِ...

وَبَيْنَمَـا نَحْنُ كَذَلِكَ، إِذْ دَخَلَتْ سَـمَكَةٌ قَبِيحَةٌ عُيُونُهَـا حَمْرَاءُ، وَفِي يَدِهَا طَبْلَةٌ كَبِيرَةٌ، مِنْ نُحَاسٍ أَصْفَرَ، أَخَذَتْ تَدُقُّ عَلَيْهَا بِشَـكْلٍ صَاخِبٍ مُزْعِجٍ، حَتَّى أَفْسَدَتِ الإِيْقَـاعَ الجَمِيلَ، وَأَوْقَفَـتِ الرَّقْصَةَ الرَّائِعَةَ، وَلَمْ تَتَوَقَّفْ هِـيَ عَنِ الدَّقِ، بَلْ ظَلَّتْ تَـقُّ وَتَدُقُّ وَتَدُقُّ حَتَّى أَيْقَظَتْنِي مِنَ النَّوْمِ.

اِسْتَيْقَظْتُ مِنَ النَّوْمِ، وَلَكِنْ لَيْسَ عَلَى صَوْتِ طَبْلَةِ السَّمكَةِ، بَلْ عَلَى صَوْتِ نَقَرَاتِ الْعُصْفُورَةِ عَلَى زُجاجِ شُبَّاكِي !!

فَتَحْتُ عَيْنَيَّ، فَوَاجَهَتْنِي ابْتِسَامَةُ الْهُدْهُدِ، وَفَتَحْتُ الشُّبَّاكَ لِلْعُصْفُورَةِ، فَدَخَلَ وَمَعَهَا الزَّقْزَقَةُ وَنَسَمةُ الصَّبَاحِ الْمُعَطَّرَةُ، وَفَتَحْتُ بَابَ القَفَصِ، وَمَدَدْتُ لِلْهُدْهُدِ كَفَّيَّ لأَحْمِلَهُ، وَأَنَا أَقُولُ لَهُ مُدَاعِبًا: لاَزِلْتَ حَيًّا يَا جَدِّي، أَطَالَ اللهُ فِي عُمُرِكَ!!

وَكَمَا فَعَلْتُ بِالأَمْسِ ، حَمَلْتُ الْهُدْهُدَ إِلَى شَاطِئِ النِّيلِ ، فَأَطْعَمْتُهُ وَسَقَيْتُهُ، وَأَجْلَسْتُهُ عَلَى الْغُصْنِ الْقَرِيبِ مِنَ الأَرْضِ، وَجَلَسْتُ أَمَامَهُ عَلَى الأَرْضِ وَأَنَا أَتَحَرَّقُ شَوْقًا لِسَمَاعِ حِكَايَةِ جَدِّهِ الَّذِي كَانَ طِفْلاً صَغِيرًا، وَوَجَدَ نَفْسَهُ وَسْطَ الْمَعْرَكَةِ!

# الْهُدْهُدُ الطِّفْل

اِعْتَدَلَ الْهُدْهُدُ فِي جِلْسَتِهِ، وَابْتَسَمَ لِي، وَقَالَ بِصَوْتِهِ الضَّعِيفِ:

كَانَ جَدِّي هَذَا هُدْهُدًا طِفْلاً، مَاتَ أَبُوهُ مُنذُ أَيَّام، بَعْدَ أَنْ حَمَّلَهُ الأَمَانَةَ، وَأَخَذَ عَلَيْهِ الْعَهْدَ، وَتَرَكَهُ حَزِينًا مُرْتَبِكًا، وَحِيدًا فِي عُشِّهِ، الَّذِي بَنَاهُ لَهُ بَيْنَ أَغْصَانِ شَجَرَةِ يَاسَمِينَ، تَتَسَلَّقُ جِدَارَ قَصْرِ الْخَلِيفَةِ الأُمَوِيِّ (الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ)!!

وَقَدْ بَنَى الأَبُ عُشَّهُ فِي هَذَا الْمَكَانِ لِيَكُونَ قَرِيبًا مِنَ الْخَلِيفَةِ وَمِنْ مَجْلِسِهِ، حَيْثُ يَسْمَعُ وَيُتَابِعُ أَخْبَارَ الدَّوْلَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ، وَيَطَّلِعُ عَلَى أَخْطَرِ الْقَرَارَاتِ، فَقَدْ كَانَتْ شَجَرَةُ الْيَاسَمِينِ تَتَسَلَّقُ الْجِدَارَ، وَتُحِيطُ بِالشُّرْفَةِ الْكَبِيرَةِ لِمَجْلِسِ الْحُكْمِ، الَّتِي اعْتَادَ الْخَلِيفَةُ أَنْ يَقِفَ فِيهَا، وَيَرْنُو بِبَصَرِهِ مُتَطَلِّعًا إِلَى بَسَاتِينِهِ الْوَاسِعَةِ، وَخُصُوصًا عِنْدَمَا يَكُونُ مَشْغُولَ الْبَالِ بِفِكْرَةٍ مُهِمَّةٍ، أَوْ بِقَرَارٍ خَطِيرٍ.

كَانَ الْهُدْهُدُ الطِّفْلُ لاَ يَزَالُ جَالِسًا فِي عُشِّهِ، حَزِينًا عَلَى وَالِدِهِ، مَهْمُومًا بِالأَمَانَةِ الَّتِي تَعَهَّدَ بِحَمْلِهَا، وَهُوَ لاَ يَدْرِي كَيْفَ يَحْمِلُهَا!!

وَبَيْنَمَا هُوَ غَارِقٌ فِي التَّفْكِيرِ وَالدُّعَاءِ إِلَى اللهِ لِكَيْ يُوَفِّقَهُ وَيُعِينَهُ، إِذَا بِصَوْتِ الْخَلِيفَةِ يَأْتِيهِ مِنْ دَاخِلِ الْقَاعَةِ، وَهُوَ يَأْمُرُ الْقَائِدَ مُوسَى بْنَ نُصَيْرٍ بِفَتْحِ الأَنْدَلُسِ!!

كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْمَرَّةَ الأُولَى الَّتِي يَسْمَعُ فِيهَا الْهُدْهُدُ كَلِمَةَ (فَتْحٍ) وَكَلِمَةَ (أَنْدَلُسَ). فَهَلِ الأَنْدَلُسُ هَذِهِ بَيْتٌ أَوْ خِزَانَةٌ أَوْ صُنْدُوقٌ سَيَفْتَحُهُ الْقَائِدُ

مُوسَى بِالْمِفْتَاحِ؟!! لاَ بُدَّ أَنَّ هَذَا الصُّنْدُوقَ فِيهِ شَيْءٌ مُهِمٌّ جِدًّا، لِدَرَجَةِ أَنَّ الْخَلِيفَةَ بِنَفْسِهِ يَأْمُرُ أَعْظَمَ قَادَةِ جُيُوشِهِ أَنْ يَفْتَحَهُ، مَا هَذَا الشَّيْءُ يَا تُرَى!!

أَفَاقَ الْهُدْهُدُ مِنْ أَحْزَانِهِ، وَاسْتَيْقَظَتْ كُلُّ حَوَاسِّهِ، وَعَلَى الْفَوْرِ طَارَ مِنَ الْعُشِّ وَحَطَّ عَلَى شُرْفَةِ الْقَاعَةِ، لِيَرَى وَيَسْمَعَ بِوُضُوحٍ.

كَانَ الْخَلِيفَةُ وَاقِفًا أَمَامَ طَاوِلَةٍ كَبِيرَةٍ وَفِي يَدِهِ عَصًا رَفِيعَةٌ، يُشِيرُ بِهَا إِلَى نَمُوذَجٍ مُجَسَّمٍ مَوْضُوعٍ عَلَى الطَّاوِلَةِ، وَإِلَى جَانِبِهِ يَقِفُ الْقَائِدُ مُوسَى، يَنْظُرُ بِإِمْعَانٍ حَيْثُ يُشِيرُ الْخَلِيفَةُ، وَيَهُزُّ رَأْسَهُ سَمْعًا وَطَاعَةً.

دَقَّقَ الْهُدْهُدُ النَّظَرَ، فَوَجَدَهُ مُجَسَّمًا مُلَوَّنًا، مَصْنُوعًا مِنْ رَمْلٍ عَلَى شَكْلِ

صَحْرَاءَ، وَأَحْجَارٍ عَلَى شَكْلِ جِبَالٍ، وَمَاءٍ عَلَى شَكْلِ بَحْرٍ، وَنَمَاذِجَ مُصَغَّرَةٍ لِبُيُوتٍ وَقُصُورٍ وَبَسَاتِينَ رَائِعَةِ الْجَمَالِ. وَفَهِمَ أَنَّ الأَنْدَلُسَ لَيْسَ خِزَانَةً وَلاَ صُنْدُوقًا، وَإِنَّمَا هِيَ تِلْكَ الْبِلادُ الَّتِي تَقَعُ عَلَى هَذَا الْبَحْرِ، عَلَى الشَّاطِئِ الْمُقَابِلِ لِبِلاَدِ الْمَغْرِبِ الْمُسْلِمَةِ، وَفَهِمَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ يَشْرَحُ لِلْقَائِدِ كَيْفَ يَفْتَحُ هَذِهِ الْبِلادَ بِالْغَزْوِ وَالْهُجُومِ، وَأَنَّ هَذِهِ الْبِلادَ يَعِيشُ فِيهَا نَاسٌ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ الطَّيِّبِينَ، وَلَكِنْ يَحْكُمُهَا مُلُوكٌ وَأُمَرَاءُ مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ الأَعْدَاءِ، الَّذِينَ يَعْتَدُونَ عَلَى بِلاَدِ الْمُسْلِمِينَ، وَلاَ بُدَّ مِنْ هَزِيمَةِ هَؤُلاَءِ الأَعْدَاءِ الْجَبَابِرَةِ، وَضَمِّ هَذِهِ الْبِلاَدِ إِلَى الدَّوْلَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ، لِكَيْ يَنْعَمَ أَهْلُهَا بِالرَّخَاءِ وَالسَّلاَمِ.

وَلَمَّا انْتَهَى الْخَلِيفَةُ مِنْ شَرْحِ خُطَّتِهِ وَضَعَ عَصَاهُ عَلَى الطَّاوِلَةِ، وَقَالَ لِلْقَائِدِ مُوسَى:

لَقَدْ عَيَّنْتُكَ وَالِيًا عَلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ لِكَيْ تُقِيمَ فِيهَا دَعَائِمَ الْعَدْلِ وَالسَّلَامِ، وَعَيَّنْتُكَ وَالِيًا عَلَى الأَنْدَلُسِ أَيْضًا، بَعْدَ فَتْحِهَا، وَلْيَكُنْ جَيْشُ الْفَتْحِ بِقِيَادَةِ تِلْمِيذِكَ الشَّابِّ البَطَلِ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ، الَّذِي اخْتَرْتَهُ أَنْتَ، هَيَّا أَيُّهَا الْقَائِدُ الشُّجَاعُ الْمُخْلِصُ، هَيَّا تَجَهَّزْ لِلْعَوْدَةِ إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ لِتُكْمِلَ عَمَلَكَ، وَاشْرَحْ هَذِهِ الْخُطَّةَ لِطَارِقٍ كَمَا شَرَحْتُهَا لَكَ، وَأَبْلِغْهُ أَوَامِرِي أَنْ يُجَهِّزَ جَيْشَهُ أَفْضَلَ تَجْهِيزٍ، وَلاَ يُقَاتِلَ إِلاَّ الْجُنُودَ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَهُ. أَمَّا أَهْلُ هَذِهِ الْبِلَادِ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ الْمُسَالِمِينَ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُعَامِلَهُمْ بِالْعَدْلِ وَالإِنْصَافِ، وَالرِّفْقِ وَالرَّحْمَةِ، الَّتِي أَمَرَنَا بِهَا الإِسْلاَمُ.

## رِحْلَةٌ إِلَى مَغَارِبِ الشَّمْسِ

كَانَ الْهُدْهُدُ الصَّغِيرُ يُتَابِعُ كُلَّ ذَلِكَ وَقَلْبُهُ يَدُقُّ بِقُوَّةٍ مِنْ شِدَّةِ الانْفِعَالِ، وَعِنْدَمَا انْصَرَفَ الْقَائِدُ مُوسَى، وَاتَّجَهَ الْخَلِيفَةُ إِلَى الشُّرْفَةِ كَعَادَتِهِ، طَارَ الْهُدْهُدُ بِسُرْعَةٍ، وَحَطَّ فَوْقَ قِمَّةِ أَحَدِ أَبْرَاجِ الْحِرَاسَةِ، وَوَقَفَ قَلِيلاً يَلْتَقِطُ أَنْفَاسَهُ وَيُفَكِّرُ: هَلْ يَظَلُّ فِي مَكَانِهِ قَرِيبًا مِنَ الْخَلِيفَةِ لِيُتَابِعَ الأَخْبَارَ، أَمْ يَذْهَبُ فِي صُحْبَةِ الْقَائِدِ مُوسَى لِيُشَاهِدَ بِنَفْسِهِ الأَحْدَاثَ وَالْوَقَائِعَ؟!

وَدُونَ تَرَدُّدٍ، قَرَّرَ الْهُدْهُدُ أَنْ يَكُونَ بِصُحْبَةِ الْقَائِدِ

مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ. وَعَلَى الْفَوْرِ، طَارَ مِنْ فَوْقِ قِمَّةِ بُرْجِ الْحِرَاسَةِ، لِيَحُطَّ عَلَى شُرْفَةِ الْقَاعَةِ الَّتِي يَنْزِلُ فِيهَا الْقَائِدُ مُوسَى.

كَانَ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ وَاقِفًا وَسْطَ الْقَاعَةِ، يَأْمُرُ مُسَاعِدِيهِ بِسُرْعَةِ التَّجَهُّزِ لِلْعَوْدَةِ فِي الحَالِ إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ، ثُمَّ يُنَادِي كَاتِبَهُ، وَيُمْلِي عَلَيْهِ رِسَالَةً مُوَجَّهَةً إِلَى طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ، يَأْمُرُهُ فِيهَا بِأَنْ يَسْرَعَ فَوْرًا فِي تَجْهِيزِ الْجَيْشِ، وَيُبْلِغُهُ فِيهَا بِكُلِّ أَوَامِرِ الْخَلِيفَةِ.

وَبَعْدَ أَنِ انْتَهَى مُوسَى مِنْ إِمْلَاءِ الرِّسَالَةِ، أَمَرَ أَحَدَ مُسَاعِدِيهِ أَنْ يَحْمِلَهَا، وَيَنْطَلِقَ بِهَا فِي الحال إِلَى طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ.

وَمَرَّةً أُخْرَى وَقَفَ الْهُدْهُدُ الطِّفْلُ يُفَكِّرُ، وَهُوَ فِي قِمَّةِ الانْفِعَالِ: هَلْ يَبْقَى بِحِوَارِ مُوسَى، أَوْ يَنْطَلِقُ بِصُحْبَةِ حَامِلِ الرِّسَالَةِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى طَارِقٍ؟!

وَفِي النِّهَايَةِ، قَرَّرَ أَنْ يَطِيرَ فَوْرًا إِلَى طَارِقٍ، حَتَّى قَبْلَ أَنْ تَصِلَهُ الرِّسَالَةُ، فَقَدْ كَانَ مُتَلَهِّفًا لِثَمَ لمعرفة هَذَا الْقَائِدِ الْجَدِيدِ الَّذِي اخْتَارَهُ مُوسَى، وَوَافَقَ عَلَيْهِ الْخَلِيفَةُ، لِيَقُومَ بِهَذَا الْعَمَلِ الْجَلِيلِ!!

لَمْ يَكُنِ الْهُدْهُدُ الصَّغِيرُ يَعْرِفُ أَيْنَ بِلَادُ الْمَغْرِبِ، وَلَكِنَّهُ فَكَّرَ، وَقَالَ لِنَفْسِهِ: مَا دَامَ اسْمُهَا بِلَادَ الْمَغْرِبِ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ نَاحِيَةَ الْغُرُوبِ».

وَعَلَى الْفَوْرِ طَارَ عَنِ الشُّرْفَةِ وَحَطَّ عَلَى قِمَّةِ بُرْجِ الْحِرَاسَةِ، وَأَخَذَ يَنْظُرُ إِلَى الأُفُقِ الْبَعِيدِ: هُنَا تَغْرُبُ الشَّمْسُ، هَذَا هُوَ الاتِجَاهُ. ثُمَّ أَحْنَى رَأْسَهُ وَأَخَذَ يُصَلِّي، وَيَدْعُو الله، بِالدُّعَاءِ نَفْسِهِ الَّذِي كَانَ يَسْمَعُهُ دَائِمًا مِنْ وَالِدِهِ:

« يَـا رَبِّ، أَنْـتَ رَبُّ الْكَـوْنِ الْعَظِيمِ، أَنْتَ خَالِقُ كُلِّ شَـيْءٍ، أَنْـتَ مَنْ فِي يَدِكَ مَفَاتِيـحُ الْغَيْبِ، وَأَنَا عَبْدُكَ الضَّعِيفُ، فَسَـاعِدْنِي، وَاهْـدِ جَنَاحَيَّ وَقَلْبِي إِلَى طَرِيقِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَوَفِّقْنِي لِكُلِّ مَا يُرْضِيكَ عَنِّي ».

ثُـمَّ اعْتَـدَلَ، وَقَالَ: تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ وَأَطْلَقَ جَنَاحَيْـهِ بِاتِّجَاهِ الْغَرْبِ، يُرَفْرِفُ بِكُلِّ قُوَّتِهِ فِي الْفَضَاءِ.

اِسْتَغْرَقَتْ رِحْلَةُ الْهُدْهُدِ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ، لَمْ يَكُنْ يَنَامُ خِلاَلَهَا إِلاَّ سَاعَاتٍ قَلِيلَةً، وَلَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّفُ عَنِ الطَّيَرَانِ إِلاَّ لِلَحَظَاتٍ، عِنْدَمَا يَشْـتَدُّ بِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ، وَسُرْعَانَ مَا كَانَ يُعَاوِدُ الطَّيَرَانَ بِكُلِّ قُوَّتِهِ.

## أَيْنَ طَارِقٌ؟

مَـعَ غُـرُوبِ الشَّـمْسِ، وَصَلَ الْهُدْهُـدُ إِلَى بِـلاَدِ الْمَغْـرِبِ، فَحَطَّ عَلَى سُـورِ الْمَدِينَةِ، وَمِنْ شِـدَّةِ التَّعَبِ نَامَ نَوْمًا عَمِيقًا، رَغْمَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ، وَلَمْ يَسْتَيْقِظْ إِلاَّ مَعَ تَبَاشِيرِ الْفَجْرِ الأُولَى. وَقَبْلَ أَنْ تَسْتَيْقِظَ كُلُّ الطُّيُورِ كَانَ وَاقِفًا فَوْقَ السُّورِ يُفَكِّرُ: كَيْفَ أَهْتَدِي إِلَى طَارِقٍ؟ وَكَيْفَ أَعْرِفُهُ؟ يَا رَبِّ! سَاعِدْنِي.

أَحَسَّ الْهُدْهُد بِبَطْنِهِ تُؤْلِمُهُ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ، فَطَارَ عَنِ السُّورِ مُنْطَلِقًا إِلَى النَّبْعِ، حَيْـثُ الْمَـاءُ وَالأَرْضُ الرَّطْبَةُ الْغَنِيَّةُ بِالطَّعَامِ، وَمَـا كَادَ يَحُطُّ بِرِجْلَيْهِ عَلَى الأَرْضِ،

وَيَنْقُرُ بِمِنْقَارِهِ نَقْرَتَيْنِ، حَتَّى رَأَى فَتَاتَيْنِ تَقْتَرِبَانِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا تَحْمِلُ جَرَّةً، لِتَمْلأَهَا بِالْمَاءِ وَهُما تَتَضَاحَكَانِ.

وَكَانَتِ الْمُفَاجَأَةُ السَّعِيدَةُ عِنْدَمَا سَمِعَ إِحْدَاهُمَا تَقُولُ لِلأُخْرَى: لاَ أَسْتَطِيعُ الانْتِظَارَ مَعَكِ، لاَ بُدَّ أَنْ أَمْضِيَ سَرِيعًا؛ لأَنَّ سَيِّدِي طَارِقًا يَنْتَظِرُنِي بِالْمَاءِ، لِكَيْ يَتَوَضَّأَ لِصَلاَةِ الْفَجْرِ.

قَفَزَ الْهُدْهُدُ فِي مَكَانِهِ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ، وَهُوَ يَصِيحُ: هَذَا هُوَ الْخَيْطُ، هَذَا هُوَ الْخَيْطُ الَّذِي سَيُوْصِلُنِي إِلَى طَارِقٍ.

وَتَأَهَّبَ لِمُتَابَعَةِ الْفَتَاةِ الَّتِي حَمَلَتِ الْجَرَّةَ فَوْقَ رَأْسِهَا، وَانْطَلَقَتْ مُسْرِعَةً فِي طَرِيقِهَا.

طَارَ الْهُدْهُدُ خَلْفَ الْفَتَاةِ، وَأَخَذَ يَتْبَعُهَا، وَهِيَ تَمْضِي مِنْ شَارِعٍ إِلَى شَارِعٍ، حَتَّى وَجَدَهَا تَخْرُجُ مِنْ بَوَّابَةِ الْمَدِينَةِ، وَتَتَّجِهُ إِلَى الصَّحْرَاءِ!! انْدَهَشَ الْهُدْهُدُ الصَّغِيرُ مِنْ تَصَرُّفِ الْفَتَاةِ، وَلَكِنَّ دَهْشَتَهُ لَمْ تَدُمْ طَوِيلاً، فَبَعْدَ قَلِيلٍ، لَمَحَ خَيْمَةً بِي الأُفُقِ الْبَعِيدِ، وَحِيدةً فَوْقَ الرِّمَالِ، عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَ شَاطِئِ الْبَحْرِ. وَزَادَتْ دَهْشَتُهُ عِنْدَمَا وَجَدَ هَذَا الْمَكَانَ شَبِيهًا جِدًّا بِالنَّمُوذَجِ الْمُصَغَّرِ، الَّذِي كَانَ أَمَامَ الْخَلِيفَةِ الْوَلِيدِ وَالْقَائِدِ مُوسَى!!

عِنْدَمَا اقْتَرَبَتِ الْفَتَاةُ مِنَ الْخَيْمَةِ، خَرَجَ لَهَا شَابٌّ نَحِيلٌ وَسِيمٌ، فِي مَلَامِحِهِ قُوَّةٌ وَصَرَامَةٌ، وَفِي عَيْنَيْهِ ذَكَاءٌ وَطِيبَةٌ وَعَطْفٌ، فَلَمَّا رَآهُ الْهُدْهُدُ، هَتَفَ فِي سِرِّهِ:

هَذَا هُوَ!! يَا إِلَهِي، هَذَا هُوَ طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ، لَوْ قَابَلْتُهُ وَحْدِي لَعَرَفْتُهُ مِنْ مَلَامِحِهِ، دُونَ أَنْ يَدُلَّنِي أَحَدٌ عَلَيْهِ، إِنَّهَا مَلَامِحُ الْفَارِسِ الْبَطَلِ الشَّهْمِ!!

مَدَّ طَارِقٌ يَدَهُ الْقَوِيَّةَ فَحَمَلَ الْجَرَّةَ عَنِ الْفَتَاةِ، وَشَكَرَهَا بِابْتِسَامَةٍ حَانِيَةٍ، فَأَحْنَتْ لَهُ رَأْسَهَا، وَاسْتَدَارَتْ لِتَعُودَ مِنْ حَيْثُ أَتَتْ. أَمَّا طَارِقٌ، فَانْتَحَى بِالْجَرَّةِ جَانِبًا، وَانْحَنَى عَلَى الأَرْضِ قَلِيلاً، وَأَخَذَ يَتَوَضَّأُ، ثُمَّ اعْتَدَلَ، وَتَوَجَّهَ نَاحِيَةَ الْقِبْلَةِ، وَوَقَفَ بِقَدَمَيْهِ الْحَافِيَتَيْنِ عَلَى الرِّمَالِ يُصَلِّي. وَالْهُدْهُدُ وَاقِفٌ عَلَى بُعْدِ خُطْوَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهُ، يَتَأَمَّلُ مَلَامِحَهُ الْقَوِيَّةَ الصَّارِمَةَ، وَهِيَ تَتَحَوَّلُ، أَمَامَ اللهِ، إِلَى مَلَامِحِ ضَعْفٍ وَخُشُوعٍ وَمَذَلَّةٍ، دُمُوعٌ تَجْرِي مَعَ كُلِّ آيَةٍ، وَصَوْتٌ يَتَحَشْرَجُ مَعَ كُلِّ دُعَاءٍ!!

وَلاَ زَالَ طَارِقٌ يُصَلِّي، وَيَدْعُو الله بِالتَّوْفِيقِ وَالنَّصْرِ، حَتَّى أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ، وَأَضَاءَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا. فَوَقَفَ مُنْتَصِبًا كَالرُّمْحِ، مُوَجِّهًا بَصَرَهُ نَاحِيَةَ الشَّاطِئِ الآخَرِ، حَيْثُ الأَنْدَلُسُ، الْبِلاَدُ الَّتِي يَتَطَلَّعُ إِلَيْهَا، وَيَنْتَظِرُ بِكُلِّ شَوْقٍ وَأَمَلٍ، أَنْ يَصِلَ أَمْرُ الْخَلِيفَةِ لَهُ بِفَتْحِهَا.

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، تَمَنَّى الْهُدْهُدُ لَوْ كَانَ طَارِقٌ يَفْهَمُ لُغَتَهُ وَكَلاَمَهُ، لَكَانَ أَبْلَغَهُ بِالنَّبَأِ الَّذِي يُفْرِحُ قَلْبَهُ!!

obeikandl.com

# اجْتِمَاعُ القِيَادَةِ

الْتَفَتَ طَارِقٌ نَاظِرًا نَاحِيَةَ الْمَدِينَةِ، كَأَنَّهُ يَتَرَقَّبُ شَيْئًا، فَإِذَا بِسَحَابَةٍ مِنَ الْغُبَارِ تَبْدُو فِي الْبَعِيدِ، أَخَذَتْ تَقْتَرِبُ وَتَقْتَرِبُ، وَمَا هِيَ إِلاَّ لَحَظَاتٌ حَتَّى انْقَشَعَتْ أَمَامَ الْخَيْمَةِ، وَخَرَجَ مِنْهَا خَمْسَةُ فُرْسَانٍ أَشِدَّاءَ فَوْقَ جِيَادِهِمْ. تَهَلَّلَتْ أَسَارِيرُ طَارِقٍ لِرُؤْيَتِهِمْ، وَفَتَحَ لَهُمْ ذِرَاعَيْهِ يَسْتَقْبِلُهُمْ اسْتِقْبَالَ الأَخِ وَالصَّدِيقِ.

دَخَلَ الْفُرْسَانُ الْخَيْمَةَ مَعَ طَارِقٍ، وَأَسْدَلُوا خَلْفَهُمْ بَابَهَا، وَفِي الْخَارِجِ وَقَفَ الْهُدْهُدُ يَسْمَعُ بِكُلِّ إِنْصَاتٍ وَتَرْكِيزٍ، وَالأَصْوَاتُ تَأْتِيهِ وَاضِحَةً فِي سُكُونِ الصَّحْرَاءِ:

- نَحْنُ جَاهِزُونَ تَمَامًا.
- كُلُّ الرِّجَالِ فِي انْتِظَارِ إِشَارَتِكَ فِي أَيَّةِ لَحْظَةٍ.
- لَمْ نَعُدْ نُطِيقُ الانْتِظَارَ يَا طَارِقُ.
- أَلَمْ يَأْتِ أَيُّ خَبَرٍ حَتَّى الآنَ؟!
- أَكَادُ أَمُوتُ غَيْظًا مِنْ هَؤُلاَءِ الْمَسِيحِيِّينَ الْمُتَجَبِّرِينَ، الَّذِينَ لاَ يَتَوَقَّفُونَ عَنِ الإِسَاءَةِ إِلَيْنَا وَإِلَى دِينِنَا، وَالاعْتِدَاءِ عَلَى بِلاَدِنَا.

وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ ارْتَفَعَ صَوْتُ طَارِقٍ حَادًّا غَاضِبًا:

- لاَ تَقُلْ: الْمَسِيحِيِّينَ، بَلْ قُلْ: الصَّلِيبِيِّينَ.

- وَمَا الْفَرْقُ يَا طَارِقُ؟!

- الْفَرْقُ كَبِيرٌ، كَالْفَرْقِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَالْمَسِيحِيُّونَ أَهْلُ كِتَابٍ، وَأَتْبَاعُ دِينٍ سَمَاوِيٍّ يَأْمُرُ بِمَا يَأْمُرُ بِهِ الإِسْلاَمُ مِنَ التَّسَامُحِ وَالسَّلاَمِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الْبَشَرِ جَمِيعًا؛ وَلِذَا فَهُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ مَوَدَّةً لَنَا، وَقَدْ أَمَرَنَا الإِسْلاَمُ بِأَنْ نُعَامِلَهُمْ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ، أَمَّا هَؤُلاَءِ الْحُكَّامُ الصَّلِيبِيُّونَ فَهُمْ مُنَافِقُونَ يَكْرَهُونَ الْمَسِيحِيَّةَ كَمَا يَكْرَهُونَ الإِسْلاَمَ، وَيَدَّعُونَ أَنَّهُمْ حُمَاةُ الصَّلِيبِ لِكَيْ يُخْفُوا أَطْمَاعَهُمْ، وَجَشَعَهُمْ وَتَجَبُّرَهُمْ، وَظُلْمَهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ وَالْمَسِيحِيِّينَ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ، وَهَؤُلاَءِ هُمْ أَعْدَاؤُنَا، الَّذِينَ لاَ بُدَّ أَنْ نَكْسِرَ شَوْكَتَهُمْ؛ صِيَانَةً لَنَا وَلِدِينِنَا، وَلِلْمَسِيحِيِّينَ وَلِدِينِهِمْ أَيْضًا.

وَسَادَتْ لَحَظَةُ صَمْتٍ، بَعْدَهَا جَاءَ الصَّوْتُ يَعْتَذِرُ وَيَقُولُ:

- سَامِحْنِي يَا سَيِّدِي! لَمْ أَكُنْ أَقْصِدُ.

- لَسْتُ سَيِّدَكَ، أَنَا أَخُوكَ، وَلَسْتُ غَاضِبًا مِنْكَ، إِنَّمَا قَصَدْتُ أَنْ أُصَحِّحَ خَطَأً، وَأَنْ أُوَضِّحَ لَكَ وَلِلْجَمِيعِ مَوْقِفَنَا الصَّحِيحَ، الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ تُجَاهَ إِخْوَانِنَا الْمَسِيحِيِّينَ، فَغَدًا، إِذَا كُتِبَ لَنَا النَّصْرُ، سَنَكُونُ مَسْؤُولِينَ عَنْهُمْ أَمَامَ اللهِ.

- سَلَّمَ اللهُ لِسَانَكَ يَا طَارِقُ.

- وَلَكِنْ هَلْ سَنَبْقَى هَكَذَا نَتَفَرَّجُ؟!

- نُرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ شَيْئًا.
- هَذَا مَا طَلَبْتُكُمْ مِنْ أَجْلِهِ.
- نَحْنُ جَاهِزُونَ، فَبِمَاذَا تَأْمُرُنَا؟

وَسَادَتْ لَحْظَةُ صَمْتٍ، بَعْدَهَا جَاءَ صَوْتُ طَارِقٍ هَادِئًا وَاضِحًا:

- يَجِبُ أَلَّا نُضَيِّعَ وَقْتًا فِي الانْتِظَارِ، بَلْ يَجِبُ أَنْ نَسْتَعِدَّ لِلْهُجُومِ مِنَ الآنَ، حَتَّى إِذَا صَدَرَ أَمْرُ الْخَلِيفَةِ نَكُونُ جَاهِزِينَ. وَأَهَمُّ خُطْوَةٍ نَقُومُ بِهَا هِيَ مَعْرِفَةُ أَعْدَائِنَا، وَمَوَاطِنَ قُوَّتِهِمْ وَضَعْفِهِمْ، وَمَعْرِفَةُ الْمَيْدَانِ الَّذِي سَنَخُوضُ فِيهِ مَعَارِكَنَا. لِذَا أُرِيدُ مِنْكُمْ تَشْكِيلَ سَرِيَّةِ اسْتِطْلَاعٍ مِنْ جُنُودِنَا الأَذْكِيَاءِ الأَشِدَّاءِ، الَّذِينَ يَعْرِفُونَ لُغَةَ الأَنْدَلُسِ، وَيُجِيدُونَ التَّعَامُلَ مَعَ أَهْلِهَا، يَتَخَفَّوْنَ فِي زِيِّ التُّجَّارِ وَالصُّنَّاعِ وَأَرْبَابِ الْحِرَفِ، لِكَيْ يَدْخُلُوهَا مُتَسَلِّلِينَ، يَنْدَسُّونَ بَيْنَ النَّاسِ لِيَسْتَطْلِعُوا أَحْوَالَهُمْ، وَأَحْوَالَ الْجَيْشِ وَالْقِلَاعِ وَالأَبْرَاجِ، وَنِقَاطَ الْمُرَاقَبَةِ، وَطُرُقَ الْمُوَاصَلَاتِ، وَخُطُوطَ الإِمْدَادِ، وَآبَارَ الْمِيَاهِ، وَكُلَّ شَيْءٍ يَسْتَطِيعُونَ مَعْرِفَتَهُ عَنْهُمْ، حَتَّى نَكُونَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، قَبْلَ أَنْ نَخْطُوَ أَيَّةَ خُطْوَةٍ.

## لُعْبَةٌ بِالْحَصَى تُغَيِّرُ وَجْهَ التَّارِيخِ!!

انْتَهَى الاجْتِمَاعُ، وَخَرَجَ الْفُرْسَانُ الْخَمْسَةُ، فَامْتَطَوْا جِيَادَهُمْ، وَانْطَلَقُوا عَائِدِينَ بِسُرْعَةٍ، كَمَا جَاءُوا، فِي سَحَابَةٍ مِنَ الْغُبَارِ!!

أَمَّا طَارِقٌ فَقَدْ وَقَفَ أَمَامَ الْخَيْمَةِ يُوَدِّعُهُمْ، وَيُلَوِّحُ لَهُمْ بِيَدِهِ، ثُمَّ عَادَ وَجَلَسَ

عَلَى رُكْبَتَيْهِ في الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ يُصَلِّي فِيهِ، وَأَخَذَ يَرْسُمُ عَلَى الرِّمَالِ خُطُوطًا بِإِصْبَعِهِ، وَيَضَعُ عَلَيْهَا حَصَوَاتٍ صَغِيرَةً وَكَبِيرَةً، ثُمَّ يَنْقُلُ الْحَصَوَاتِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَيَمْحُو بَعْضَ الْخُطُوطِ، وَيَرْسُمُ غَيْرَهَا، وَيَضَعُ عَلَيْهَا حَصَوَاتٍ أُخْرَى، كُلُّ ذَلِكَ وَالْهُدْهُدُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ مُنْدَهِشًا مِمَّا يَفْعَلُ، فَقَدْ كَانَ فِي هَذَا الْوَقْتِ هُدْهُدًا طِفْلاً قَلِيلَ الْخِبْرَةِ!! وَهَذَا مَا قَالَهُ الْهُدْهُدُ الصَّغِيرُ عَنْ نَفْسِهِ فِيمَا بَعْدُ، عِنْدَمَا جَلَسَ يَحْكِي لابْنِهِ حِكَايَتَهُ مَعَ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ، وَكَانَ يَبْتَسِمُ وَيَقُولُ:

لَمْ أَكُنْ أُدْرِكُ، فِي هَذِهِ السِّنِّ يَا وَلَدِي، أَنَّ مَا يَرْسُمُهُ طَارِقٌ بِإِصْبَعِهِ، وَيَضَعُ عَلَيْهِ الْحَصَوَاتِ، مَا هُوَ إِلاَّ خُطَطٌ لِلْمَعَارِكِ الَّتِي سَتُغَيِّرُ وَجْهَ التَّارِيخِ !!

وَهُنَا ابْتَسَمَ صَدِيقِي الْهُدْهُدُ ابْتِسَامَةً صَافِيَةً، وَقَالَ: كَانَ الْهُدْهُدُ الطِّفْلُ مَبْهُورًا بِشَخْصِيَّةِ طَارِقٍ، وَكَانَ عَلَى حَقٍّ فِي ذَلِكَ، فَقَدْ كَانَ طَارِقٌ قَائِدًا عَبْقَرِيًّا، أَدْهَشَ بِشَجَاعَتِهِ الأَعْدَاءَ وَالأَصْدِقَاءَ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ، فَقَدْ عَبَرَ الْبَحْرَ لِيَفْتَحَ الأَنْدَلُسَ وَلَيْسَ مَعَهُ سِوَى سَبْعَةِ آلافِ جُنْدِيٍّ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيُوَاجِهُ سَبْعِينَ أَلْفًا مِنْ جُنُودِ الأَعْدَاءِ، وَعِنْدَمَا رَسَتْ مَرَاكِبُهُ، وَنَزَلَ الْجُنُودُ عَلَى شَاطِئِ الأَنْدَلُسِ، وَأَنْزَلُوا سِلاَحَهُمْ وَطَعَامَهُمْ، قَامَ طَارِقٌ فَفَعَلَ شَيْئًا غَرِيبًا عَجِيبًا، بَدَا لِلْوَهْلَةِ الأُولَى عَمَلاً جُنُونِيًّا بِكُلِّ مَعْنَى الْكَلِمَةِ، فَقَدْ أَمَرَ بِإِشْعَالِ النَّارِ فِي كُلِّ الْمَرَاكِبِ، وَإِحْرَاقِهَا جَمِيعًا!!

كَانَتْ دَهْشَةُ الْجُنُودِ لاَ حُدُودَ لَهَا، وَظَنُّوا أَنَّ قَائِدَهُمُ الْعَبْقَرِيَّ قَدْ أَصَابَهُ الْجُنُونُ فَجْأَةً!! أَمَّا الْهُدْهُدُ الطِّفْلُ، فَقَدْ أَخَذَ يَصْرُخُ وَيَقُولُ: (هَذَا جُنُونٌ.. جُنُونٌ)، وَهُوَ يَطِيرُ إِلَى الْبَحْرِ، فَيَمْلأُ مِنْقَارَهُ بِالْمَاءِ، وَيَرْمِيهِ عَلَى النَّارِ، لَعَلَّهُ يُطْفِئُهَا!! وَكَادَ فِي عَمَلِهِ هَذَا أَنْ يَحْتَرِقَ بِالنَّارِ وَيَمُوتَ، وَلَمْ يَتَوَقَّفْ إِلاَّ عِنْدَمَا وَجَدَ طَارِقًا يَقِفُ أَمَامَ جُنُودِهِ وَقْفَةَ الْبَطَلِ وَيَقُولُ:

الآنَ، لَيْسَ لَدَيْنَا مَرَاكِبُ نَهْرُبُ فِيهَا، فَالْعَدُوُّ أَمَامَنَا، وَالْبَحْرُ خَلْفَنَا، وَلَيْسَ لَدَيْنَا خِيَارٌ، إِمَّا أَنْ نَنْتَصِرَ وَنَعِيشَ عِيشَةَ الْكِرَامِ، وَإِمَّا أَنْ نَمُوتَ مِيتَةَ الشُّهَدَاءِ.

وَكَانَ لِهَذِهِ الْحِيلَةِ، وَلِهَذِهِ الْكَلِمَةِ، أَعْظَمُ الأَثَرِ فِي نُفُوسِ الْجَمِيعِ.

فَأَمَّا جُنُودُ طَارِقٍ، فَقَدْ مَلأَتْهُمْ رُوحُ الشَّجَاعَةِ وَالاسْتِشْهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ.

وَأَمَّا الصَّلِيبِيُّونَ، فَقَدْ دَبَّ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبُ، وَأَدْرَكُوا أَنَّهُمْ مَهْزُومُونَ لاَ مَحَالَةَ!!

وَأَمَّا أَهْلُ الأَنْدَلُسِ الْمَسِيحِيُّونَ الطَّيِّبُونَ الْمُسَالِمُونَ فَقَدِ اسْتَبْشَرُوا خَيْرًا بِهَذَا الْجَيْشِ، وَبِقَائِدِهِ الْبَطَلِ، الَّذِي سَيُخَلِّصُهُمْ مِنْ حُكَّامِهِمِ الظَّلَمَةِ الْمُتَجَبِّرِينَ، وَيَنْشُرُ فِي بِلادِهِمُ الْعَدْلَ وَالسَّلامَ.

وَهَذَا مَا كَانَ....

فَبِهَذِهِ الْقُوَّةِ الصَّغِيرَةِ، وَبِهَذِهِ الشَّجَاعَةِ الْكَبِيرَةِ، تَقَدَّمَ طَارِقٌ مِنْ مَعْرَكَةٍ إِلَى مَعْرَكَةٍ، وَمِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ، يَسْحَقُ الأَعْدَاءَ، وَيُمَزِّقُ الصُّفُوفَ، وَيَرْفَعُ رَايَاتِ النَّصْرِ وَالْعَدْلِ فَوْقَ الأَبْرَاجِ، وَلا زَالَ يَنْتَقِلُ مِنْ نَصْرٍ إِلَى نَصْرٍ، وَمِنْ فَتْحٍ إِلَى فَتْحٍ، حَتَّى ضَمَّ هَذِهِ الْبِلادَ إِلَى الدَّوْلَةِ الإِسْلامِيَّةِ.

# أَيْنَ الأَنْدَلُس؟!

سَأَلْتُ صَدِيقِيَ الْهُدْهُدَ: وَأَيْنَ هَذِهِ الْبِلادُ؟

فَقَالَ: هِيَ مَا يُعْرَفُ الآنَ بِأَسْبَانْيَا .

سَأَلْتُهُ: وَلِمَاذَا غَيَّرُوا اسْمَهَا، لَقَدْ كَانَ «الأَنْدَلُسُ» اسْمًا جَمِيلاً؟

فَقَالَ الْهُدْهُدُ بِصَوْتٍ حَزِينٍ: غَيَّرُوا اسْمَهَا لأَنَّهَا لَمْ تَعُدْ بِلادًا إِسْلامِيَّةً، لَقَدِ اسْتَرَدَّهَا الصَّلِيبِيُّونَ، وَقَضَوْا عَلَى الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ فِيهَا.

أَصَابَنِي الْفَزَعُ، وَسَأَلْتُهُ مُنْدَهِشًا: وَكَيْفَ حَدَثَ ذَلِكَ؟ وَأَيْنَ طَارِق بْنُ زِيَادٍ؟!

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، جَرَتِ الدُّمُوعُ فِي عَيْنَيِ الْهُدْهُدِ، وَتَحَشْرَجَ صَوْتُهُ، وَهُوَ يَقُولُ: رَاحَ طَارِقٌ ضَحِيَّةَ الْفِتَنِ وَالأَطْمَاعِ، وَغِيَابِ الْعَدْلِ وَالإِنْصَافِ، وَمَاتَ بِحَسْرَتِهِ وَحِيدًا فَقِيرًا مُعْدِمًا، لاَ يَجِدُ لُقْمَةً يَأْكُلُهَا، وَلاَ ثَوْبًا يَلْبَسُهُ، بَعْدَ أَنْ أَتَمَّ فَتْحَ الأَنْدَلُسِ بِعَشْرِ سَنَوَاتٍ. أَمَّا الأَنْدَلُسُ فَسَقَطَتْ وَضَاعَتْ لِنَفْسِ الأَسْبَابِ بَعْدَ ثَمَانِ مِئَةِ سَنَةٍ مِنَ الْمَجْدِ وَالْحَضَارَةِ!! وَفَرَّ مُعْظَمُ أَهْلِهَا مِنَ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَمَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ أَجْبَرَهُ الصَّلِيبِيُّونَ عَلَى تَرْكِ الإِسْلاَمِ، وَإِلاَّ قَتَلُوهُ ذَبْحًا وَحَرْقًا وَصَلْبًا وَشَنْقًا وَغَرَقًا، وَلله الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ!!

اِقْشَعَرَّ بَدَنِي، وَصَرَخْتُ بِصَوْتٍ مَكْتُومٍ: كَيْفَ يَحْدُثُ ذَلِكَ؟! كَيْفَ يَحْدُثُ ذَلِكَ؟!

وَلَمْ يَتَمَالَكِ الْهُدْهُدُ نَفْسَهُ، وَتَقَطَّعَ صَوْتُهُ، وَأَجْهَشَ بِالْبُكَاءِ، وَسَادَتْ لَحْظَةٌ

مِـنَ الصَّمْتِ الْحَزِينِ، كُنْتُ خِلاَلَهَـا أَتَخَيَّلُ الْبَطَلَ طَارِقَ بْنَ زِيَـادٍ وَاقِفًا عَلَى بَابِ الْمَسْـجِدِ بِمَلاَبِسِـهِ الرَّثَّـةِ، يَمُدُّ يَـدَهُ لِلنَّاسِ، يَطْلُبُ مِنْهُمُ الصَّدَقَةَ، وَأَسْـأَلُ نَفْسِـي بِدَهْشَـةٍ: وَكَيْـفَ تَرَكَـهُ النَّاسُ يَفْعَلُ ذَلِـكَ؟! أَلَمْ يَكُونُـوا يَعْرِفُونَهُ؟ وَكَيْـفَ يَظْلِمُهُ الْخَلِيفَةُ كُلَّ هَذَا الظُّلْمِ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْبَطَلُ؟!

obeikandl.com

# السُّؤالُ الصَّعْب

وَأَلَحَّ عَلَيَّ السُّؤالُ فَخَرَجَ مِنِّي بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ: وَكَيْفَ يَظْلِمُهُ الْخَلِيفَةُ الْوَلِيدُ كُلَّ هَذَا الظُّلْمِ، بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ الْبُطُولاتِ؟!

الْتَفَتَ إِلَيَّ الْهُدْهُدُ، وَمَسَحَ دُمُوعَهُ فِي ضِمَادَتِهِ، وَقَالَ: لَمْ يَكُنِ الْوَلِيدُ هُوَ الَّذِي ظَلَمَهُ، بَلْ كَانَ أَخُوهُ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَلِيُّ الْعَهْدِ. فَالَّذِي حَدَثَ أَنَّ طَارِقًا بَعْدَ أَنْ أَتَمَّ فَتْحَ الأَنْدَلُسِ، جَهَّزَ قَافِلَةً كَبِيرَةً، حَمَلَ فِيهَا الْغَنَائِمَ وَالأَسْرَى مِنْ أُمَرَاءِ الصَّلِيبِيِّينَ، وَاتَّجَهَ بِهَا إِلَى الشَّامِ، لِكَيْ يُقَدِّمَهَا إِلَى الْخَلِيفَةِ الْوَلِيدِ، وَيُعْلِنُ أَمَامَهُ أَنَّهُ أَتَمَّ فَتْحَ الأَنْدَلُسِ.

وفي هَذِهِ الأَثْنَاءِ، مَرِضَ الْوَلِيدُ مَرَضًا شَدِيدًا، وَأَحَسَّ الْجَمِيعُ أَنَّهُ يَقْتَرِبُ مِنَ الْمَوْتِ، وَكَانَ طَارِقٌ قَدِ اقْتَرَبَ بِقَافِلَتِهِ كَثِيرًا مِنَ الشَّامِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانُ يَأْمُرُهُ بِالتَّوَقُّفِ، وَعَدَمِ دُخُولِ الشَّامِ لِمُقَابَلَةِ الْوَلِيدِ الآنَ (بِسَبَبِ مَرَضِهِ الشَّدِيدِ!!)، وَفَهِمَ طَارِقٌ الْحِيلَةَ الْخَبِيثَةَ، فَقَدْ كَانَ سُلَيْمَانُ يُرِيدُ الانْتِظَارَ حَتَّى يَمُوتَ الْوَلِيدُ، وَيُصْبِحَ هُوَ الْخَلِيفَةَ، فَيَجْلِسَ عَلَى الْعَرْشِ، وَيَتَسَلَّمَ الْغَنَائِمَ وَالأَسْرَى، وَيَنْسِبَ لِنَفْسِهِ فَتْحَ الأَنْدَلُسِ، فَيَقُولَ النَّاسُ:

تَمَّ فَتْحُ الأَنْدَلُسِ فِي عَهْدِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ!!

وَلِذَلِكَ لَمْ يَتَوَقَّفِ الْبَطَلُ طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ، وَلَمْ يُنَفِّذْ أَمْرَ سُلَيْمَانَ، بَلْ مَضَى فِي

طَرِيقِهِ مُسْرِعًا حَتَّى دَخَلَ قَصْرَ الْحُكْمِ، وَوَقَفَ أَمَامَ الْوَلِيدِ وَهُوَ عَلَى سَرِيرِ الْمَرَضِ وَنَفَةَ الْجُنْدِيِّ الشُّجَاعِ الْمُخْلِصِ أَمَامَ قَائِدِهِ، لِيَقُولَ: لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا يَا مَوْلَايَ بِفَتْحِ الأَنْدَلُسِ، شَفَاكَ اللهُ وَعَافَاكَ، وَجَعَلَ هَذَا الْفَتْحَ فِي مَوَازِينِ حَسَنَاتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَبِالطَّبْعِ، فَقَدْ أَمَرَ الْوَلِيدُ بِتَكْرِيمِ طَارِقٍ، وَإِقَامَةِ احْتِفَالٍ كَبِيرٍ بِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ. وَلَكِنَّ الدُّنْيَا لَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ يَا وَلَدِي، فَبَعْدَ شُهُورٍ قَلِيلَةٍ عَاشَهَا طَارِقٌ مُعَزَّزًا مُكَرَّمًا، مَاتَ الْوَلِيدُ، وَتَوَلَّى سُلَيْمَانُ الْخِلَافَةَ، وَهُوَ يَحْمِلُ لِطَارِقٍ كُلَّ حِقْدٍ وَكَرَاهِيَةٍ، فَكَانَ أَوَّلُ قَرَارٍ يَتَّخِذُهُ، هُوَ وَضْعَ طَارِقٍ فِي السِّجْنِ، وَتَجْرِيدَهِ مِنْ كُلِّ أَمْلَاكِهِ وَأَمْوَالِهِ، ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنَ السِّجْنِ وَأَمَرَ بِعَزْلِهِ، وَمَنْعِ النَّاسِ مِنَ الاتِّصَالِ بِهِ أَوْ مُسَاعَدَتِهِ، وَمَنْ يُخَالِفْ ذَلِكَ يَنْتَظِرْهُ عِقَابٌ شَدِيدٌ!!

صَرَخْتُ فِي غَضَبٍ: ظُلْمٌ ... ظُلْمٌ ... ظُلْمٌ.

اِبْتَسَمَ الْهُدْهُدُ فِي حُزْنٍ وَقَالَ: قُلْتُ لَكَ يَاوَلَدِي إِنَّ الدُّنْيَا لاَ تَدُومُ عَلَى حَالٍ، وَالظَّالِمُونَ قَدْ تَغُرُّهُمْ قُوَّتُهُمْ لِبَعْضِ الْوَقْتِ، وَيَنْسَوْنَ أَنَّهُمْ سَيَلْقَوْنَ الله أَعْدَلَ الْعَادِلِينَ، وَلَكِنَّ الله لاَ يَنْسَى عِبَادَهُ الْمَظْلُومِينَ، فَيَجْعَلَ لَهُمْ بَعْدَ الْعُسْرِ يُسْرًا، وَيَجْعَلُ لَهُمْ مَنْ يَرُدُّ عَنْهُمُ الظُّلْمَ، وَيُقِيمُ فِيهِمُ الْعَدْلَ، وَهَذَا مَا حَدَثَ ....

قُلْتُ فِي لَهْفَةٍ: مَاذَا حَدَثَ؟

فَالْتَفَتَ الْهُدْهُدُ نَاحِيَةَ الشَّمْسِ الْغَارِبَةِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ ضَعِيفٍ: لَمْ تَعُدْ بِي طَاقَةٌ عَلَى الْكَلاَمِ. لاَ بُدَّ أَنْ أَنَامَ، وَغَدًا، إِذَا اسْتَجَابَ الله لِدُعَائِكَ، وَبَقِيتُ حَيًّا، فَسَأَحْكِي لَكَ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَكِنْ دَعْنِي أَنَم الآنَ.

وَأَخَذَ الْهُدْهُدُ يَتَرَنَّحُ فِي جِلْسَتِهِ، وَكَأَنَّهُ أَصِيبَ بِالدَّوَارِ، فَخَشِيتُ أَنْ يَسْقُطَ عَلَى الأَرْضِ، فَحَمَلْتُهُ بِكَفَّيَّ عَلَى صَدْرِي، وَعُدْتُ بِهِ مُسْرِعًا إِلَى الْبَيْتِ، وَوَضَعْتُهُ فِي الْقَفَصِ. وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، أَدْرَكْتُ أَنَّ الْعِرْسَةَ تُرَاقِبُنَا، وَأَنَّهَا كَانَتْ تَنْظُرُ إِلَيَّ مِنْ خَلْفِ زُجَاجِ شُبَّاكِي.

أَحْكَمْتُ إِغْلاَقَ بَابِ الْقَفَصِ، ثُمَّ ذَهَبْتُ فَأَحْكَمْتُ إِغْلاَقَ بَابِ الْغُرْفَةِ أَيْضًا، وَعُدْتُ لأَطْمَئِنَّ عَلَى الْهُدْهُدِ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ غَابَ عَنِ الْوَعْيِ!!

# حُلْمُ الْجِنِّيَّةِ

فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ أَيْضًا، لَمْ أَعْرِفْ مَتَى نِمْتُ، وَلاَ كَيْفَ نِمْتُ، وَلَكِنِّي نِمْتُ وَحَلُمْتُ....

وَفِي الْحُلْمِ، رَأَيْتُ نَفْسِي وَاقِفًا وَحْدِي عِنْدَ شَاطِئِ النِّيلِ تَحْتَ شَجَرَةِ التُّوتِ، وَقَدْ مَلأَنِي الْخَوْفُ مِنْ جِنِّيَّةِ الْبَحْرِ الَّتِي تَسْكُنُ هُنَا تَحْتَ الْمَاءِ، وَتَتَحَيَّنُ الْفُرْصَةَ لِتَخْطِفَ الأَوْلاَدَ الَّذِينَ يَقْتَرِبُونَ مِنْ بَيْتِهَا، كَمَا كَانَتْ تَقُولُ لِي جَدَّتِي.

نَظَرْتُ إِلَى جَانِبِي، فَوَجَدْتُ (عَمَّ إِبْرَاهِيمَ) الدَّرْوِيشَ الْمِسْكِينَ، الَّذِي يَأْتِي إِلَى بَيْتِنَا كَثِيرًا، وَدَائِمًا مَا تُكَلِّفُنِي أُمِّي أَنْ أَحْمِلَ لَهُ الطَّعَامَ. وَجَدْتُهُ جَالِسًا عَلَى الأَرْضِ بِمَلاَبِسِهِ الرَّثَّةِ، وَشَعْرِهِ الأَشْعَثِ الْمُجَعَّدِ، وَعُكَّازِهِ بِجَانِبِهِ. لَسْتُ أَدْرِي لِمَاذَا شَعَرْتُ أَنَّهُ طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ، بَلْ كُنْتُ مُتَأَكِّدًا أَنَّهُ هُوَ!! وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، عَادَ أَصْحَابِي، وَفِي يَدِ كُلٍّ مِنْهُمْ بِضْعَةُ أَحْجَارٍ صَغِيرَةٍ، أَخَذْنَا نَقْذِفُهَا فِي النِّيلِ بِقُوَّةٍ كَعَادَتِنَا، وَنَقُولُ: يَا أُمَّ سُلَيْمَانَ، حَلَقُكِ بَانَ لِكَيْ نَغِيظَ الْجِنِّيَّةَ، فَتَخْرُجَ إِلَيْنَا.

كُنَّا عَادَةً مَا نَفْعَلُ ذَلِكَ، وَمَعَ أَوَّلِ اهْتِزَازَةٍ نُلاَحِظُهَا عَلَى صَفْحَةِ الْمَاءِ، كُنَّا نَطِيرُ هَرَبِينَ.

أَمَّا الآنَ، فَقَدْ فَارَ الماءُ أمامَنا، وارْتَجَّتِ الأَرْضُ مِنْ تَحْتِ أَقْدَامِنَا، وَخَرَجَتْ لَنَا الْجِنِّيَّةُ (أُمُّ سُلَيْمَانَ)، خَرَجَتْ غَاضِبَةً بِشَكْلِهَا الْمُرْعِبِ الَّذِي وَصَفَتْهُ لِي جَدَّتِي:

أَظَافِرُهَا طَوِيلَةٌ مِثْلُ السَّكَاكِينِ، وَشَعْرُهَا مَنْفُوشٌ مِثْلُ جَرِيدِ النَّخْلَةِ، وَلَهَا عَيْنَانِ كَبِيرَتَانِ حَمْرَاوَانِ بِلَوْنِ الدَّمِ، عَمِيقَتَانِ مِثْلُ حُفْرَتَيْنِ يَتَطَايَرُ مِنْهُمَا الشَّرَرُ.

انْطَلَقَ الأَوْلادُ هَارِبِينَ بِسُرْعَةِ الْبَرْقِ، أَمَّا أَنَا فَقَدْ تَسَمَّرْتُ فِي مَكَانِي، لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أُحَرِّكَ رِجْلَيَّ، وَالْجِنِّيَّةُ خَارِجَةٌ إِلَيَّ لِكَيْ تَخْطَفَنِي، وَتَغُوصَ بِي فِي النِّيلِ. الْتَفَتُّ إِلَى طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ، لِكَيْ يُنْقِذَنِي، فَوَجَدْتُهُ قَدِ اخْتَفَى، وَالْجِنِّيَّةُ تَقْتَرِبُ مِنِّي بِبُطْءٍ، وَهِيَ تُصْدِرُ صَوْتًا مِثْلَ الزَّئِيرِ وَالْفَحِيحِ مَعًا، وَتُصَفِّقُ بِيَدَيْهَا تَصْفِيقَاتٍ مُتَتَابِعَةً تَزِيدُنِي رُعْبًا.

حَاوَلْتُ أَنْ أَصْرُخَ، فَلَمْ يَخْرُجْ صَوْتِي. أَغْمَضْتُ عَيْنَيَّ، وَأَخَذْتُ أَنْهَارُ عَلَى الأَرْضِ بِبُطْءٍ. اسْتَغْرَقَ وُقُوعِي عَلَى الأَرْضِ زَمَنًا طَوِيلاً، وَصَوْتُ التَّصْفِيقَاتِ يَتَسَارَعُ وَيَتَعَالَى، وَيَقْتَرِبُ وَيَقْتَرِبُ....

وَصَحَوْتُ مِنَ الْحُلْمِ!!

صَحَوْتُ لأَجِدَ نَفْسِي نَائِمًا فِي سَرِيرِي أَتَصَبَّبُ عَرَقًا، وَالْعُصْفُورَةُ تَنْقُرُ زُجَاجَ الشُّبَّاكِ بِكُلِّ قُوَّتِهَا، الْتَفَتُّ إِلَى الْهُدْهُدِ، فَوَجَدْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيَّ بِقَلَقٍ، وَلَمْ أَجِدْهُ مُبْتَسِمًا كَعَادَتِهِ فِي كُلِّ صَبَاحٍ.

فَتَحْتُ الشُّبَّاكَ لِلْعُصْفُورَةِ؛ فَدَخَلَتْ وَمَعَهَا زَقْزَقَتُهَا الْغَاضِبَةُ، وَلَمْ تَدْخُلْ مَعَهَا نَسْمَةُ الصَّبَاحِ الْمُعَطَّرَةُ، فَقَدْ تَأَخَّرْتُ فِي النَّوْمِ، وَارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ فِي السَّمَاءِ، مَسَحْتُ عَرَقِي بِسُرْعَةٍ، وَفَتَحْتُ بَابَ قَفَصِ الْهُدْهُدِ، وَمَدَدْتُ لَهُ كَفِّيَ لأُحْمِلَهُ،

وَأَنَا أُحَاوِلُ أَنْ أَسْتَرِدَّ نَفَسِي، لأَكُونَ لَطِيفًا، فَقُلْتُ لَهُ مُدَاعِبًا: لاَ زِلْتَ حَيًّا يَا جَدِّي، أَطَالَ الله فِي عُمُرِكَ!!

وَكَمَا أَفْعَلُ كُلَّ يَوْمٍ ، حَمَلْتُ الْهُدْهُدَ إِلَى شَاطِئِ النِّيلِ، وَتَجَاهَلْتُ الأَمْرَ كُلَّهُ إِشْفَاقًا عَلَيْهِ، فَلَمْ أَحْكِ لَهُ الْكَابُوسَ الَّذِي عِشْتُهُ فِي مَنَامِي، وَلَكِنَّهُ ظَلَّ يَنْظُرُ إِلَيَّ بِقَلَقٍ.

## شَرْعُ الْوَفَاءِ

أَكَلَ الْهُدْهُدُ وَشَرِبَ أَقَلَّ مِنَ الْمُعْتَادِ، وَبَدَا لِي ضَعِيفًا شَاحِبًا أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ، شَعَرْتُ بِالْقَلَقِ فَقُلْتُ لَهُ: لاَ تَتَكَلَّمِ الْيَوْمَ إِذَا كُنْتَ مُتْعَبًا، وَدَعْنَا نُكْمِلِ الحِكَايَةَ غَدًا.

فَابْتَسَمَ لِيَ ابْتِسَامَةً شَاحِبَةً، وَهَزَّ رَأْسَهُ، وَقَالَ: لَيْسَ لَدَيَّ وَقْتٌ يَا وَلَدِي، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَحْكِيَهُ لَكَ كَثِيرٌ كَثِيرٌ، وَالْوَقْتُ قَلِيلٌ، وَلِذَا سَأَخْتَارُ مِنْهُ الأَهَمَّ، وَسَأَخْتَصِرُ فِيهِ قَدْرَ مَا أَسْتَطِيعُ، هَيَّا اجْلِسْ يَا وَلَدِي، وَلاَ تَنْسَ شَيْئًا مِمَّا أَقُولُهُ لَكَ.

قَالَ الْهُدْهُدُ ذَلِكَ وَهُوَ يَعْتَدِلُ فِي جِلْسَتِهِ عَلَى الْغُصْنِ، فَجَلَسْتُ أَمَامَهُ، وَقَدِ اسْتَيْقَظَتْ كُلُّ حَوَاسِّي لِسَمَاعِ بَقِيَّةِ حِكَايَةِ جَدِّهِ الْهُدْهُدِ الْطِّفْلِ مَعَ الْفَارِسِ الْبَطَلِ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ.

تَنَهَّدَ الْهُدْهُدُ، وَقَالَ بِصَوْتِهِ الضَّعِيفِ:

ظَلَّ جَدِّي طَوَالَ هَذِهِ السَّنَوَاتِ وَفِيًّا لِطَارِقٍ، لاَ يَنْقَطِعُ عَنْ زِيَارَتِهِ، فِي خَيْمَتِهِ الَّتِي يَعِيشُ فِيهَا وَحِيدًا فِي الصَّحْرَاءِ، حَتَّى صَارَ الصَّدِيقَ الْوَحِيدَ الَّذِي يَنْتَظِرُ طَارِقٌ زِيَارَتَهُ، وَيَأْتَنِسُ بِوُجُودِهِ، وَيَتَحَدَّثُ أَمَامَهُ بِكُلِّ صَرَاحَةٍ، وَكَأَنَّهُ يُكَلِّمُ نَفْسَهُ، وَيَقُولُ: صَدِّقْنِي يَا هُدْهُدُ، أَنَا لَسْتُ حَزِينًا مِنْ أَجْلِ نَفْسِي، فَأَنَا قَدْ تَصَرَّفْتُ بِمَا يُمْلِيهِ عَلَيَّ ضَمِيرِي وَوَاجِبِي نَحْوَ الْخَلِيفَةِ الَّذِي بَايَعْتُهُ، وَأَقْسَمْتُ عَلَى الْوَلاَءِ لَهُ، وَلَسْتُ نَادِمًا عَلَى ذَلِكَ، بَلْ أَنَا مُرْتَاحُ الضَّمِيرِ تَمَامًا، وَلَوْ تَكَرَّرَ هَذَا الْمَوْقِفُ عَشْرَ مَرَّاتٍ لَتَصَرَّفْتُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا، وَلَكِنَّ مَا يُحْزِنُنِي أَحْيَانًا أَنَّ بَعْضَ مَنْ كَانُوا أَصْدِقَائِي يَتَحَدَّثُونَ عَنِّي بِتَهَكُّمٍ وَسُخْرِيَةٍ، وَيَقُولُونَ إِنَّنِي كُنْتُ أَطْمَعُ أَنْ أَكُونَ وَالِيًا عَلَى الأَنْدَلُسِ!! وَمَا الْعَيْبُ فِي ذَلِكَ؟! نَعَمْ كُنْتُ أُرِيدُ، وَكَانَ حَقِّي؛ فَأَنَا مَنْ فَتَحَ الأَنْدَلُسَ، وَأَنَا أَكْثَرُ مَنْ يَعْرِفُهَا. اُنْظُرِ الآنَ إِلَى الأَنْدَلُسِ، إِنَّهُمْ يُرْسِلُونَ إِلَيْهَا

وُلاَةً لاَ يَعْرِفُونَ شَيْئًا عَنْهَا وَلاَ عَنْ أَهْلِهَا، وَلاَ عَنْ عَادَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ، وَمَاذَا كَانَتِ النَّتِيجَةُ؟ أَنْتَ تَعْرِفُ النَّتِيجَةَ، عِصْيَانٌ بَعْدَ عِصْيَانٍ، وَتَمَرُّدٌ بَعْدَ تَمَرُّدٍ، وَفَوْضَى فِي كُلِّ مَكَانٍ. اُنْظُرْ، وَتَخَيَّلْ لَوْ كُنْتُ أَنَا الْوَالِيَ، تَخَيَّلْ يَا هُدْهُدُ ..... )

وَرَغْمَ هَذَا الْوَفَاءِ، إِلاَّ أَنَّ الأَحْدَاثَ الْخَطِيرَةَ الَّتِي بَدَأَتْ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ، كَانَتْ تَجْعَلُ الْهُدْهُدَ يَتَغَيَّبُ كَثِيرًا عَنْ صَاحِبِهِ طَارِقٍ، فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَقْضِيَ وَقْتًا طَوِيلاً عَلَى شُبَّاكِ غُرْفَةِ الْخَلِيفَةِ سُلَيْمَانَ، لَيْسَ فَقَطْ لِمُتَابَعَةِ حَالَتِهِ الصِّحِّيَّةِ، الَّتِي تَدَهْوَرَتْ كَثِيرًا، وَلَكِنْ أَيْضًا، لِمُتَابَعَةِ هَذَا السِّرِّ الْخَطِيرِ الَّذِي سَيَقْلِبُ الدَّوْلَةَ الإِسْلاَمِيَّةَ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ!!

opelkandl.com

# السِّرُّ الْخَطِيرُ

ذَاتَ صَبَاحٍ، كَانَ الْهُدْهُدُ وَاقِفًا بِشُبَّاكِ الْخَلِيفَةِ سُلَيْمَانَ، كَعَادَتِهِ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ، فَرَآهُ نَائِمًا فِي سَرِيرِهِ، وَقَدْ بَدَتْ عَلَيْهِ عَلاَمَاتُ النِّهَايَةِ، وَعَلَى كُرْسِيٍّ بِجَانِبِ السَّرِيرِ، يَجْلِسُ رَجُلٌ وَقُورٌ، اسْمُهُ (رَجَاءُ بْنُ حَيوَةَ)، يَعْرِفُهُ الْهُدْهُدُ جَيِّدًا، وَيَعْرِفُ أَنَّهُ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَى الْخَلِيفَةِ، وَأَخْلَصُهُمْ لَهُ، وَأَحْرَصُهُمْ عَلَيْهِ، وَعَلَى مَصْلَحَةِ الدَّوْلَةِ، وَهُوَ مُسْتَشَارُهُ، وَمَوْضِعُ ثِقَتِهِ الْكَامِلَةِ، وَالْمُؤْتَمَنُ عَلَى أَخْطَرِ أَسْرَارِهِ؛ وَلِذَلِكَ فَهُوَ أَكْثَرُ مَنْ يَحْتَرِمُهُ الأُمَرَاءُ وَالْكُبَرَاءُ.

أَشَارَ الْخَلِيفَةُ بِيَدِهِ فَخَرَجَ كُلُّ مَنْ فِي الْغُرْفَةِ مِنَ الْخَدَمِ وَالْجَوَارِي، وَبَقِيَ هُوَ وَرَجَاءٌ وَحْدَهُمَا. اقْتَرَبَ رَجَاءٌ، وَانْحَنَى عَلَى الْخَلِيفَةِ، لِيَسْمَعَ صَوْتَهُ الضَّعِيفَ:

- حَانَتْ سَاعَةُ النِّهَايَةِ يَا رَجَاءُ.
- أَطَالَ اللهُ عُمُرَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.
- هَذِهِ سُنَّةُ اللهِ، وَلَوْ دَامَتِ الدُّنْيَا لِمَخْلُوقٍ، لَدَامَتْ لِسَيِّدِ الْخَلْقِ.
- عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ.
- لَقَدْ طَلَبْتُكَ لِتُشِيرَ عَلَيَّ فِي أَمْرِ مَنْ أَخْتَارُهُ خَلِيفَةً مِنْ بَعْدِي، حَتَّى أَحْسِمَ الأَمْرَ وَأَنَا حَيٌّ، فَلاَ يَخْتَلِفُ أَوْلاَدِي وَإِخْوَتِي مِنْ بَعْدِي، وَيَتَنَازَعُونَ عَلَيْهَا.
- وَمَنِ اخْتَرْتَ؟
- وَلَدِي.

- وَلَدُكَ غَائِبٌ عَنَّا، لاَ نَدْرِي إِنْ كَانَ حَيًّا أَمْ مَيِّتًا.
- وَلَدِي الثَّانِي.
- وَلَدُكَ الثَّانِي صَغِيرٌ، لاَ يَتَحَمَّلُهَا.
- فَمَنْ إِذًا؟
- عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ.
- عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ؟!
- نَعَمْ، لِكَيْ تَحْسِمَ بِهِ الْخِلاَفَاتِ بَيْنَ الأُمَرَاءِ.
- تَقْصِدُ لِكَيْ أُخَوِّفَ الأُمَرَاءَ بِهِ!! سَتَكُونُ كَارِثَةً عَلَيْهِمْ.

obeikandl.com

- بَلْ سَيَكُونُ فِي ذَلِكَ صَلاَحُهُمْ وَصَلاَحُ الْبِلاَدِ وَالْعِبَادِ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا هُوَ مَا تُرِيدُهُ، وَمَا يَرْتَاحُ إِلَيْهِ ضَمِيرُكَ.

- صَدَقْتَ يَا رَجَاءُ، وَلَكِنَّهُمْ لَنْ يَرْضَوْا بِهِ.

- نَضَعُهُمْ أَمَامَ الأَمْرِ الْوَاقِعِ.

- كَيْفَ؟!

- نَجْعَلُهُمْ يُبَايِعُونَ لَهُ، دُونَ أَنْ يَعْرِفُوا.

- كَيْفَ يَا رَجَاءُ؟! أَوْضِحْ.

- تَكْتُبُ كِتَابًا، فِيهِ عَهْدٌ مِنْكَ، أَنْ يَكُونَ هُوَ الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِكَ، وَتَجْعَلُ الْكِتَابَ مُغْلَقًا، وَمَخْتُومًا عَلَيْهِ بِخَاتَمِكَ، وَتَأْمُرُهُمْ أَنْ يُبَايِعُوا لِمَنْ فِي الْكِتَابِ، وَأَنْتَ حَيٌّ، وَلاَ يُفْتَحُ الْكِتَابُ، وَيُعْلَنُ عَنِ اسْمِ الْخَلِيفَةِ الَّذِي اخْتَرْتَهُ، إِلاَّ بَعْدَ وَفَاتِكَ، أَطَالَ اللهُ عُمُرَكَ.

- أَحْسَنْتَ يَا رَجَاءُ، أَحْسَنْتَ، هَيَّا افْعَلْ ذَلِكَ، نَفِّذْ بِسُرْعَةٍ، فَأَنَا أَشْعُرُ أَنَّ النِّهَايَةَ تَقْتَرِبُ.



obeikandl.com

# مَوْلِدُ نَجْم

كَانَ قَلْبُ الْهُدْهُدِ يَدُقُّ بِقُوَّةٍ، مِنْ شِـدَّةِ الانْفِعَالِ وَالْفَرحِ، وَهُوَ يُتَابِعُ كُلَّ ذَلِكَ، وَيَرَى رَجَاءً وَهُوَ يَكْتُبُ الْعَهْدَ بِاسْـمِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَيَخْتِمُهُ بِخَاتَمِ الْخَلِيفَةِ، وَيَخْـرُجُ مُسْـرِعًا كَمَا أَمَـرَهُ الْخَلِيفَـةُ، فَيَجْمَـعُ عَائِلَةَ بَنِي أُمَيَّـةَ كُلَّهَا فِي الْمَسْـجِدِ، وَيُبَلِّغُهُـمْ أَمْـرَ الْخَلِيفَةِ أَنْ يُبَايِعُوا لِمَنْ عَهِدَ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْكِتَابِ، وَأَنَّهُ سَـيَظَلُّ سِـرًّا مَخْفِيًّا حَتَّى وَفَاتِهِ، أَطَالَ الله عُمْرَهُ!!

وَبَعْدَ دَهْشَـةٍ وَتَرَدُّدٍ، أَطَاعَ الْجَمِيعُ، وَأَعْلَنُـوا بَيْعَتَهُمْ لِمَنْ عَهِدَ إِلَيْهِ الْخَلِيفَةُ فِي هَـذَا الْكِتَابِ، وَهُمْ لاَ يَعْرِفُونَ.

فِـي هَذِهِ اللَّحْظَـةِ، كَانَ الْهُدْهُدُ وَاقِفًا عَلَـى إِحْدَى الثُّرَيَّاتِ الْمُتَدَلِّيَـةِ مِنَ الْقُبَّةِ الْكَبِيرَةِ، يَرْقُبُ الأَحْدَاثَ، وَهُوَ فِي قِمَّةِ الانْفِعَالِ.

وَعِنْدَمَا أَعْلَنُوا بَيْعَتَهُمْ، أَخَذَ يُهَلِّلُ وَيُكَبِّرُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرحِ؛ فَقَدْ حُسِمَ الأَمْرُ لِعُمَرَ ابْـنِ عَبْـدِ الْعَزِيزِ، الَّذِي يَعْرِفُـهُ الْهُدْهُدُ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ أَحَدٍ، وَيَعْـرِفُ عَنْهُ مَا لاَ يَتَخَيَّلُهُ أَحَدٌ. فَقَدْ كَانَ الْجَمِيعُ يَعْرِفُونَ عَنْهُ الاسْتِقَامَةَ، وَسُمُوَّ الْخُلُقِ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَهُ شَـابًّا أَنِيقًـا، يُحِبُّ حَيَاةَ التَّرَفِ وَالنَّعِيـمِ؛ لأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْهُ كَمَا يَـرَاهُ الْهُدْهُدُ كُلَّ يَوْمٍ، عِنْدَمَا يَعُودُ إِلَى بَيْتِهِ، فَيَدْخُلُ غُرْفَتَهُ، وَيُغْلِقُ بَابَهَا، وَيَخْلَعُ كُلَّ مَظَاهِرِ الأُبَّهَةِ، وَيَلْبَسُ أَبْسَـطَ الثِّيَابِ، وَيَقِفُ أَمَامَ الله خَاشِـعًا ذَلِيلاً، يُصَلِّي وَالدُّمُوعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْهِ، ثُمَّ يَجْلِسُ لِلدُّعَاءِ، وَكُلَّمَا ذَكَرَ الْمَوْتَ فِي دُعَائِهِ، أَجْهَشَ بِالْبُكَاءِ، حَتَّى ارْتَجَّ جَسَدُهُ.

# عُمَرُ الجَدِيد

وَكَانَ الْهُدْهُـدُ، بِمَـا لَدَيْـهِ مِنْ حِكْمَـةٍ وَمَعْرِفَةٍ وَرِثَهَـا عَنْ أَجْـدَادِهِ، يَعْلَمُ عِـمَ الْيَقِينِ أَنَّ هَذَا الشَّـابَّ الْغَارِقَ فِي الثَّرَاءِ وَالتَّرَفِ، سَوْفَ يَتَحَوَّلُ إِلَى مِثَالٍ لِلتَّقَشُّفِ وَالزُّهْدِ، وَإِلَى حَاكِمٍ مِنْ نَوْعٍ فَرِيدٍ. وَكَيْفَ لاَ، وَهُوَ يَحْمِلُ فِي قَلْبِهِ كُلَّ هَذَا الإِيمَـانِ وَالْخَـوْفِ مِـنَ الله . وَكَيْفَ لاَ، وَمَثَلُهُ الأَعْلَى فِي الْعَـدْلِ وَالزُّهْدِ هُوَ جَدُّهُ الْفَارُوقُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الَّذِي قَالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ:

وَالله لَوْ عَثُرَتْ نَاقَةٌ فِي الْعِرَاقِ لَسَأَلَنِي الله عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ!!

وَهَـذَا مَـا تَأَكَّـدَ مِنْهُ الْهُدْهُـدُ، مُنْذُ اللَّحْظَـةِ الأُولَى لِتَوَلِّيـهِ الْخِلاَفَـةِ، عِنْدَمَا وَقَفَ (رَجَاءٌ) فِي الْمَسْجِدِ الْكَبِيرِ، لِيُعْلِنَ وَفَاةَ الْخَلِيفَةِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَيَقْرَأَ كِتَابَ الْعَهْـدِ، مُعْلِنًا هَـذِهِ الْمُفَاجَأَةَ، الَّتِي أَذْهَلَـتِ الْجَمِيعَ، وَأَذْهَلَتْ عُمَرَ نَفْسَـهُ، لِدَرَجَةِ أَنَّهُ ارْتَجَـفَ وَانْهَارَ عَلَى الأَرْضِ، لاَ يَقْوَى عَلَى الْوُقُوفِ عَلَى رِجْلَيْهِ، إِحْسَاسًـا مِنْهُ بِثِقَلِ الْمَسْؤُولِيَّةِ!!

وَعِنْدَمَا رَفَعَـهُ (رَجَاءٌ) عَنِ الأَرْضِ، وَدَفَعَهُ إِلَى الْمِنْبَرِ، وَقَفَ يَبْكِي، وَيَخْطُبُ فِـي النَّاسِ خُطْبَةَ عَادِلٍ زَاهِدٍ خَائِفٍ مِـنَ الله، وَأَخَذَ يَرْجُوهُمْ أَنْ يُعْفُوهُ، وَيَرْحَمُوهُ مِـنْ هَذِهِ الْمَسْـئُولِيَّةِ، وَيَخْتَارُوا خَلِيفَةً غَيْـرَهُ. فَبَكَى كُلُّ النَّاسِ بُكَاءً شَـدِيدًا، حَتَّى ارْتَجَّـتِ الأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِمْ، وَحَتَّى ظَنَّ الْبَعْضُ أَنَّ جُدْرَانَ الْمَسْـجِدِ كَانَتْ تَبْكِي مَعَهُمْ!!

وَعَلَتِ الأَصْوَاتُ تَهْتِفُ مِنْ داخِلِ المَسْجِدِ وَمِنْ خارِجِهِ: لاَ نُرِيدُ خَلِيفَةً سِوَاكَ .. لاَ نُرِيدُ خَلِيفَةً سِوَاكَ !!

وَهَتَفَ مَعَهُمُ الْهُدْهُدُ مِنْ مَكَانِهِ الْمُرْتَفِعِ تَحْتَ الْقُبَّةِ: لاَ نُرِيدُ خَلِيفَةً سِوَاكَ!!

وَمِنَ الرَّهْبَةِ، يَتَسَمَّرُ عُمَرُ فِي مَكَانِهِ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَفِي لَحْظَةِ صَمْتٍ مَهِيبٍ، يَتَطَلَّعُ بِعَيْنَيْهِ الدَّامِعَتَيْنِ إِلَى الْجُمُوعِ الَّتِي تَهْتِفُ، جُمُوعِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَرْضَى وَالْيَتَامَى وَالضُّعَفَاءِ وَالْمَظْلُومِينَ.

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، وُلِدَ عُمَرُ جَدِيدًا، غَيْرُ عُمَرَ الَّذِي يَعْرِفُهُ النَّاسُ. رَأَى الْهُدْهُدُ ذَلِكَ وَعَرَفَهُ بِوُضُوحٍ، عِنْدَمَا لاَحَظَ أَنَّ ظَهْرَ عُمَرَ قَدْ بَدَأَ يَنْحَنِي انْحِنَاءً بَسِيطًا، فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، هُوَ انْحِنَاءُ التَّوَاضُعِ وَالزُّهْدِ وَالْحُنُوِّ وَالرَّحْمَةِ، وَعَرَفَهُ أَكْثَرَ وَهُوَ يَرَاهُ

يَنْزِلُ مِنْ فوقِ الْمِنْبَرِ، مُخْتَرِقًا صُفُوفَ الأمَرَاءِ وَالْكُبَرَاءِ وَالأَغْنِيَاءِ، مُتَّجِهًا إِلَى الصُّفُوفِ الْخَلْفِيَّةِ، صُفُوفِ الضُّعَفَاءِ وَالْفُقَرَاءِ وَالْمَرْضَى وَالْمَظْلُومِينَ، فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ وَاحِدًا وَاحِدًا، ثُمَّ يَتَّجِهُ خَارِجًا مِنَ الْمَسْجِدِ، فَيُحْضِرُونَ لَهُ الْخُيُولَ الْمُزَيَّنَةَ وَالرَّايَاتِ لِكَيْ يَرْكَبَ، كَعَادَةِ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ، وَيَمُرُّ بَيْنَ جُمُوعِ النَّاسِ فِي الْمَوْكِبِ الْمَهِيبِ، مُتَّجِهًا إِلَى قَصْرِ الْخِلَافَةِ. فَإِذَا بِهِ يَغْضَبُ، وَيَرْفُضُ، وَيَأْمُرُ بِمُصَادَرَةِ كُلِّ ذَلِكَ، وَوَضْعِهِ فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَأْمُرُ خَادِمَهُ (دِرْهَمَ) أَنْ يُحْضِرَ لَهُ بَغْلَتَهُ، فَيَرْكَبُهَا، وَيَعُودُ بِهَا وَحِيدًا إِلَى بَيْتِهِ، بَعْدَ أَنْ أَمَرَ بِأَلَّا يَتْبَعَهُ أَحَدٌ !!

## الْخَائِفُ مِنَ اللهِ

أَمَّا الْهُدْهُدُ، فَكَانَ فِي كُلِّ ذَلِكَ يَتْبَعُهُ خُطْوَةً خُطْوَةً، حَتَّى وَصَلَ إِلَى

بَيْتِـهِ، فَوَقَـفَ لَهُ بِالشُّـبَّاكِ يَرْقُبُهُ وَهُوَ دَاخِلٌ إِلَـى غُرْفَتِهِ، يَنْتَحِي جَانِبًـا، مُتَوَجِّهًا إِلَى الْقِبْلَـةِ يُنَاجِـي رَبَّهُ، ثُمَّ يُجْهِشُ بِبُـكَاءٍ حَارِقٍ، وَتُسْـرِعُ إِلَيْهِ زَوْجَتُهُ، لِتَسْـأَلَهُ بِخَوْفٍ وَلَهْفَةٍ: مَا بِكَ يَا ابْنَ الْعَمِّ؟ مَا بِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟

فَيَلْتَفِـتُ إِلَيْهَا، وَالدُّمُوعُ تَتَسَـاقَطُ مِـنْ لِحْيَتِهِ، وَيَقُولُ: هَـذِهِ مُصِيبَتِي يَا فَاطِمَةُ، صِرْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، صِرْتُ مَسْؤُولاً عَنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ، صِرْتُ مَسْؤُولاً عَنْ كُلِّ فَقِيرٍ جَائِـعٍ، وَكُلِّ مَرِيـضٍ ضَائِعٍ، وَكُلِّ يَتِيمٍ مُحْتَاجٍ، وَكُلِّ مَظْلُـومٍ مَقْهُورٍ فِي بِلَادِ الله .

فَتَقُولُ فَاطِمَةُ وَأَنْتَ لَهَا يَا عُمَرُ.

فَيَقُـولُ عُمَـرُ، وَقَدْ تَقَطَّعَ صَوْتُهُ بِالْبُكَاءِ: لَيْتَ أُمَّ عُمَرَ لَـمْ تَلِدْ عُمَرَ، فَمَاذَا أَقُولُ لِرَبِّي عِنْدَمَا يَسْـأَلُنِي عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا فَاطِمَةُ؟ وَمَاذَا أَقُولُ لِرَسُـولِ الله إِذَا وَقَفَ خَصْمًا لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لأَنَّنِي ظَلَمْتُ أَوْ أَهْمَلْتُ؟ مَاذَا أَفْعَلُ يَا فَاطِمَةُ؟

وَيَبْكِي عُمَرُ، فَتَبْكِي فَاطِمَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَيَبْكِي الْهُدْهُدُ عَلَى شُبَّاكِهِ!!

## الصَّدِيقُ الْبَعِيد

وَفِـي كُلِّ ذَلِكَ، لَـمْ يَنْسَ الْهُدْهُدُ صَدِيقَـهُ، الَّذِي يَعِيشُ وَحِيدًا فِـي خَيْمَتِهِ فِي الصَّحْـرَاءِ، خَارِجِ الْمَدِينَةِ. فَيَا تُـرَى هَلْ عَرَفَ طَارِقٌ بِمَا حَدَثَ؟! لاَ بُدَّ أَنَّهُ عَرَفَ؛ فَقَـدْ بَدَأَ بَعْضُ الأَصْدِقَاءِ يَزُورُونَهُ بَعْدَ مَوْتِ سُـلَيْمَانَ، غَيْرَ خَائِفِينَ مِنْ عِقَابِهِ، وَلاَ بُدَّ أَنَّهُمْ قَدْ أَخْبَرُوهُ، وَحَكَوْا لَهُ عَنْ عُمَرَ، وَلَكِنَّهُمْ لاَ يَعْرِفُونَ عَنْهُ مَا يَعْرِفُهُ هُوَ.

وَكَمْ كَانَ الْهُدْهُد يَتَمَنَّى لَوْ يَسْتَطِيعُ طَارِقٌ فَهْمَ لُغَتِهِ وَكَلَامِهِ، لِكَيْ يَحْكِيَ لَهُ عَنْ عُمَرَ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى ثِيَابِهِ الْفَاخِرَةِ، وَيَقُولُ: كَيْفَ أَرْتَدِي هَذِهِ الثِّيَابَ وَفِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ مَنْ لاَ يَجِدُ مَا يَسْتُرُ بِهِ جَسَدَهُ فِي الشِّتَاءِ؟! وَيَأْمُرُ بِحَمْلِ مَلاَبِسِهِ إِلَى بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَلاَ يُبْقِي مِنْهَا إِلاَّ ثَوْبًا وَاحِدًا عَادِيًّا، مِثْلَ مَلاَبِسِ بُسَطَاءِ النَّاسِ.

وَيَنْظُرُ إِلَى طَعَامِهِ الْفَاخِرِ، وَيَسْأَلُ: مَاذَا أَقُولُ لِرَبِّي إِذَا أَكَلْتُ مِنْ هَذَا الطَّعَامِ، وَفِي رَعِيَّتِي مَنْ لاَ يَجِدُ كِسْرَةَ خُبْزٍ يَسُدُّ بِهَا رَمَقَهُ؟!

وَيَنْظُرُ إِلَى قُصُورِهِ وَبَسَاتِينِهِ وَأَمْوَالِهِ، وَإِلَى كُلِّ شَيْءٍ يُمَيِّزُهُ عَنْ فُقَرَاءِ رَعِيَّتِهِ، وَيَأْمُرُ بِضَمِّهِ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ!!

ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى زَوْجَتِهِ، وَإِلَى مَا تَرْفُلُ فِيهِ مِنْ نَعِيمٍ، وَرِثَتْهُ عَنْ أَبِيهَا الْخَلِيفَةِ عَبْدِالْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، وَيَقُولُ لَهَا بِكُلِّ الْحُبِّ: اِخْتَارِي بَيْنَنَا يَا ابْنَةَ الْعَمِّ، فَإِمَّا أَنَا، وَإِمَّا هَذَا الْمَالُ.

فَتَقُولُ الزَّوْجَةُ الْمُخْلِصَةُ الْوَفِيَّةُ: بَلْ أَخْتَارُكَ أَنْتَ يَا أَعَزَّ النَّاسِ.

فَيَأْمُرُ بِحَمْلِ أَمْوَالِهَا، وَرَدِّهَا إِلَى بَيْتِ الْمَالِ.

ثُمَّ يَلْتَفِتُ إِلَى الأُمَرَاءِ وَالْكُبَرَاءِ وَالأَغْنِيَاءِ، فَيَأْمُرُ بِإِنْشَاءِ مَحْكَمَةٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ، لِكَيْ يُحَاسِبَهُمْ عَلَى مَا لَدَيْهِمْ مِنْ ثَرَوَاتٍ طَائِلَةٍ، مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبُوهَا؟ وَكَيْفَ اكْتَسَبُوهَا؟ وَيُنَادِي الْمُنَادُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ: مَنْ كَانَتْ لَهُ شَكْوَى مِنْ هَؤُلاَءِ فَلْيَتَقَدَّمْ بِهَا). وَلاَ يَزَالُ يَرُدُّ الْمَظَالِمَ إِلَى أَصْحَابِهَا، وَإِلَى بَيْتِ الْمَالِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي بِلاَدِ

الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَشْكُو مِنْ ظُلْمٍ أَوْ جُوعٍ أَوْ فَقْرٍ أَوْ خَوْفٍ .

وَتَمْضِي الأَيَّامُ سَرِيعَةً مِثْلَ حُلْمٍ جَمِيلٍ، يَحْيَاهُ كُلُّ إِنْسَانٍ فِي بِلاَدِ الْمُسْلِمِينَ، مُسْلِمًا كَانَ أَمْ غَيْرَ مُسْلِمٍ، عَرَبِيًّا كَانَ أَمْ غَيْرَ عَرَبِيٍّ، كَمَا يَحْيَاهُ الْهُدْهُدُ، وَهُوَ يُتَابِعُ عُمَرَ خُطْوَةً بِخُطْوَةٍ، وَيَرَاهُ وَهُوَ يَتَقَدَّمُ فِي طَرِيقِهِ، يُزِيلُ الظُّلْمَ، وَيُحِلُّ مَحَلَّهُ الْعَدْلَ. يُزِيلُ الْخَوْفَ، وَيُحِلُّ مَحَلَّهُ الأَمْنَ وَالسَّلاَمَ. يُزِيلُ الْفَقْرَ، وَيُحِلُّ مَحَلَّهُ الرِّضَا وَالْكَرَامَةَ وَالاسْتِغْنَاءَ.

وَهَكَذَا، أَخَذَ الظَّلاَمُ يَتَبَدَّدُ، وَأَخَذَتْ مِسَاحَةُ النُّورِ عَلَى الأَرْضِ تَتَّسِعُ، وَأَخَذَ عُمَرُ، بِعَدْلِهِ وَتَقْوَاهُ، يَفْتَحُ قُلُوبَ النَّاسِ، فَتَنْفَتِحُ لَهُ الْمُدُنُ وَالْمَمَالِكُ دُونَ قِتَالٍ.

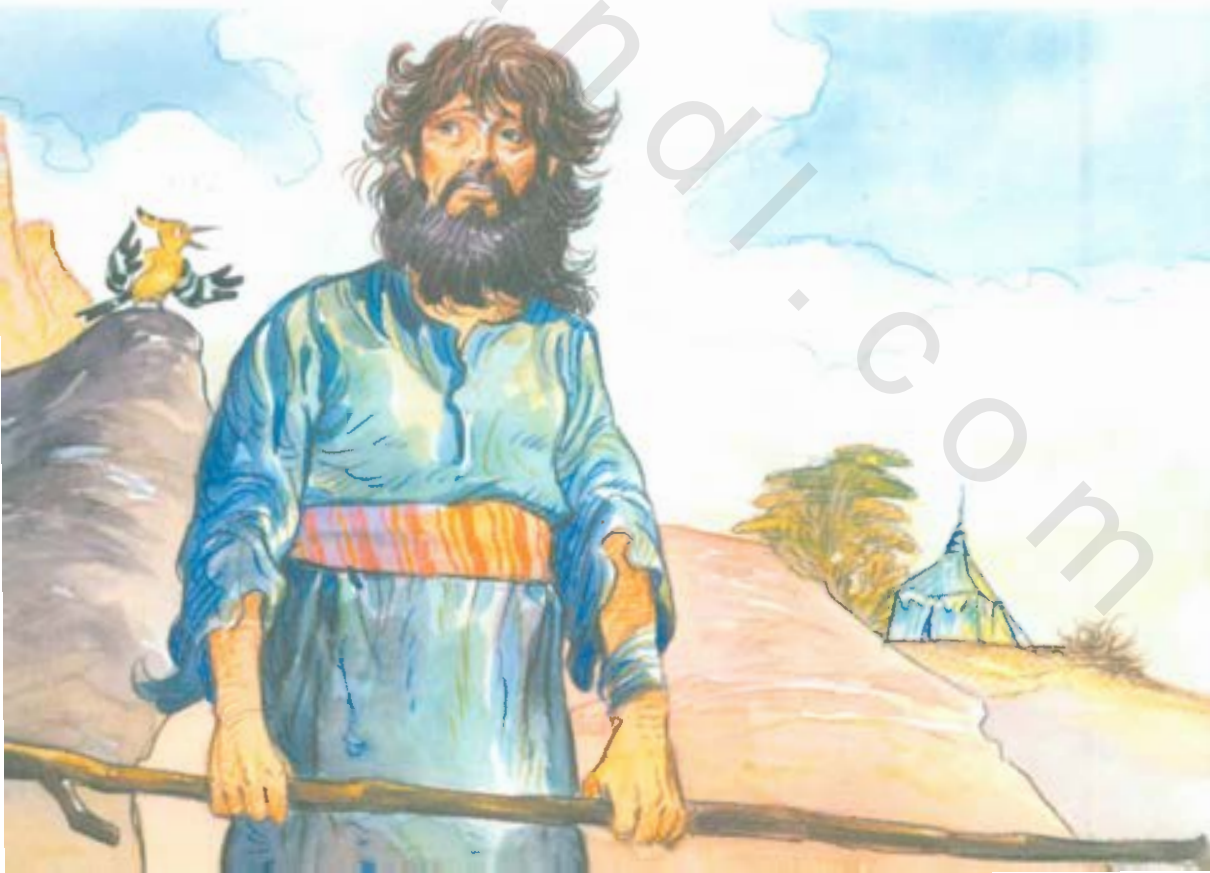

obeikandl.com

# أُفُولُ النَّجْم

وَتَنَهَّدَ صَاحِبِي الْهُدْهُدُ، وَالْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ: وَلَكِنَّ دَوَامَ الْحَالِ مِنَ الْمُحَالِ يَا وَلَدِي، وَصُنَّاعُ الشَّرِّ، فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، يَكْرَهُونَ صُنَّاعَ الْخَيْرِ، وَيَتَرَصَّدُونَهُمْ. وَمَا زَالُوا يَتَرَصَّدُونَ الْخَلِيفَةَ الْعَادِلَ، وَيَتَآمَرُونَ عَلَيْهِ لِكَيْ يَقْتُلُوهُ، وَيَتَحَيَّنُونَ الْفُرَصَ، حَتَّى تَمَكَّنُوا مِنْ دَسِّ السُّمِّ لَهُ فِي طَعَامِهِ، بِيَدِ وَاحِدٍ مِنْ خُدَّامِهِ، أَغْرَوْهُ بِالْمَالِ، فَخَانَ سَيِّدَهُ، الَّذِي كَانَ يُعَامِلُهُ مُعَامَلَةَ الأَبِ لِوَاحِدٍ مِنْ أَوْلَادِهِ!!

كَانَتْ هَذِهِ أَصْعَبَ اللَّحَظَاتِ فِي حَيَاةِ الْهُدْهُدِ، وَالَّتِي ظَلَّ، طَوَالَ حَيَاتِهِ، يَرْتَجِفُ كُلَّمَا تَذَكَّرَهَا، وَتَأْتِيهِ فِي الأَحْلَامِ فَيَنْتَفِضُ مِنْ نَوْمِهِ مَفْزُوعًا!!، فَقَدْ رَأَى الْخَادِمَ فِي الْمَطْبَخِ وَهُوَ يَضَعُ السُّمَّ فِي طَعَامِ عُمَرَ، وَرَآهُ يَحْمِلُهُ إِلَيْهِ فِي غُرْفَتِهِ، وَهُوَ يُصَلِّي، فَيَقِفُ يَنْتَظِرُهُ، حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ صَلَاتِهِ، فَيُقَدِّمُهُ إِلَيْهِ، وَرَأَى عُمَرَ يَبْتَسِمُ لِخَادِمِهِ الْخَائِنِ ابْتِسَامَةَ الأَبِ الْعَطُوفِ، وَيَقُولُ لَهُ: سَلِمَتْ يَدَاكَ يَا وَلَدِي، لِمَ لَا تَجْلِسُ وَتَأْكُلُ مَعِي؟ كُلْ مَعِي، أَنْتَ مِثْلُ وَلَدِي.

وَيَرْتَبِكُ الْخَائِنُ، وَيَشْكُرُ سَيِّدَهُ بِصَوْتٍ مُتَلَعْثِمٍ، وَيَهُمُّ بِالانْصِرَافِ.

وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، لَمْ يَتَمَالَكِ الْهُدْهُدُ نَفْسَهُ، فَأَخَذَ يَتَقَافَزُ فِي الْهَوَاءِ وَيُصَفِّقُ بِجَنَاحَيْهِ، وَيَصْرُخُ كَالْمَجْنُونِ: لَا تَأْكُلْ يَا عُمَرُ، الطَّعَامُ مَسْمُومٌ، لَا تَأْكُلْ، لَا تَأْكُلْ!!!

وَلَكِنَّ عُمَرَ لَمْ يَفْهَمْ كَلَامَهُ، وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ غَيْرَ طَائِرٍ مُزْعِجٍ، يُثِيرُ ضَوْضَاءَ لَا

لُزُومَ لَهَا، فَيُشِيرُ إِلَى خَادِمِهِ، لِكَيْ يَطْرُدَهُ، وَيُغْلِقَ الشُّبَّاكَ، فَيَطِيرُ الْهُدْهُدُ إِلَى شُبَّاكٍ آخَرَ، وَيَصْرُخُ وَيَصِيحُ، فَيُغْلِقُهُ الْخَادِمُ، وَهَكَذَا حَتَّى أَغْلَقَ كُلَّ الشَّبَابِيكِ، وَعُمَرُ يَبْتَسِمُ، وَيَقُولُ لِخَادِمِهِ الْخَائِنِ: غَرِيبٌ أَمْرُ هَذَا الْهُدْهُدِ، لَمْ أَرَهُ يَفْعَلُ مِثْلَ هَذَا مِنْ قَبْلُ، كَأَنَّهُ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟!

وَيَنْصَرِفُ الْخَائِنُ بِاتِّجَاهِ الْبَابِ، وَهُوَ يُدَارِي ارْتِبَاكَهُ، وَيَقُولُ: الْعِلْمُ عِنْدَ الله يَا سَيِّدِي. وَيَمُدُّ عُمَرُ يَدَهُ إِلَى طَعَامِهِ: (بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، فَيَنْهَارُ الْهُدْهُدُ وَاقِعًا عَلَى الشُّبَّاكِ، وَقَلْبُهُ يَكَادُ يَتَوَقَّفُ مِنَ الْحُزْنِ وَالْغَيْظِ وَالأَلَمِ!!

وَلَمْ تَمْضِ سِوَى سَاعَاتٍ قَلِيلَةٍ، حَتَّى كَانَ الْخَلِيفَةُ الْعَادِلُ يَتَلَوَّى فِي سَرِيرِهِ، وَالْعَرَقُ يَتَصَبَّبُ مِنْ جَبِينِهِ.

وَلَمْ تَمْضِ سِوَى أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ حَتَّى كَانَتْ صِحَّتُهُ قَدْ تَدَهْوَرَتْ، وَحَتَّى كَانَ الأَطِبَّاءُ قَدْ يَئِسُوا فِي شِفَائِهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِلاَّ مِنْ رَحْمَةِ الله !!

## عِقَابُ السَّمَاء

وَالْغَرِيبُ الْمُدْهِشُ، الَّذِي جَعَلَ الْهُدْهُدَ يَكَادُ يُجَنُّ، أَنَّهُ اكْتَشَفَ أَنَّ عُمَرَ كَانَ يَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ مُنْذُ الْبِدَايَةِ، فَقَدْ سَمِعَهُ وَهُوَ يَقُولُ ذَلِكَ لأَوْلاَدِهِ الْمُتَحَلِّقِينَ حَوْلَ سَرِيرِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِإِحْضَارِ ذَلِكَ الْخَادِمِ الْخَائِنِ، وَعِنْدَمَا دَخَلَ وَوَقَفَ أَمَامَهُ، بَادَرَهُ بِصَوْتِهِ الْعَطُوفِ:

لِمَاذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ يَا وَلَدِي؟

فَانْهَارَ الْخَائِنُ مُرْتَجِفًا بَاكِيًا، وَاعْتَرَفَ: سَامِحْنِي يَا مَوْلاَيَ، لَقَدْ خَدَعُونِي، وَغَرَّرُوا بِي، وَكُنْتُ مُحْتَاجًا، فَأَعْطَوْنِي أَلْفَ دِينَارٍ، تُغْنِينِي، وَتُغْنِي أَوْلاَدِي!!

فَالْتَفَتَ عُمَرُ إِلَى أَبْنَائِهِ، وَقَالَ لَهُمْ بِالْعَطْفِ نَفْسِهِ: مِسْكِينٌ، كَانَ مُحْتَاجًا، وَخَدَعُوهُ. اتْرُكُوهُ يَمْضِي، وَلاَ تُؤْذُوهُ.

ثُـمَّ نَظَرَ إِلَى الْخَائِنِ، وَقَالَ لَهُ: انْطَلِقْ بِسُـرْعَةٍ، وَاهْـرُبْ بَعِيدًا، حَتَّى لاَ يُؤْذِيَكَ أَحَدٌ، فَلَنْ أَسْتَطِيعَ حِمَايَتَكَ وَأَنَا مَيِّتٌ!!

فَانْطَلَقَ الْخَائِنُ يَجْرِي، كَمَنْ يَهْرُبُ مِنَ النَّارِ، وَالنَّارُ تُلاَحِقُهُ!!

وَانْطَلَـقَ الْهُدْهُـدُ خَلْفَهُ، وَفِي قَلْبِهِ نَارُ الْغَيْظِ الْمَكْتُومِ، لِيَـرَى بِعَيْنَيْهِ نِهَايَتَهُ الَّتِي يَعْرِفُهَا، فَرَآهُ يَرْكَبُ الْحِصَانَ، الَّذِي أَعَدَّهُ لَهُ الْمُتَآمِرُونَ، لِكَيْ يَهْرُبَ بِهِ، وَتَابَعَهُ وَهُوَ يَنْطَلِقُ مُسْرِعًا، حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَمَا يَكَادُ يَبْتَعِدُ إِلاَّ قَلِيلاً فِي الصَّحْرَاءِ، حَتَّى يَقَعَ فِي الْكَمِينِ؛ ثَلاَثَةُ فُرْسَـانٍ مُلَثَّمُونَ، يَقْطَعُونَ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ، يُمَزِّقُونَهُ بِسُيُوفِهِمْ، وَيُخْرِجُـونَ مِنْ تَحْتِ ثِيَابِهِ كِيسَ الأَلْـفِ دِينَارٍ، وَيَنْطَلِقُونَ، تَارِكِينَ جُثَّتَهُ فِي الْعَرَاءِ طَعَامًا لِلْكَوَاسِرِ وَالضَّوَارِي، فَسُبْحَانَ الَّذِي يُمْهِلُ وَلاَ يُهْمِلُ!!

لَـمْ يَكُـنْ فِي كُلِّ ذَلِـكَ أَيَّة مُفَاجَأَةٍ بِالنِّسْبَةِ لِلْهُدْهُـدِ. فَقَدْ كَانَ عَلَى عِلْمٍ بِهَذَا الكَمِيْنِ، وَما كَانَ يُتَابِعُ هَذَا الْخَائِنَ، إلا لِكَيْ يَرَاهُ، وَيَشْـفِي غَلِيلَهُ. وَلَكِنَّ الْمُفَاجَأَةَ الْحَقِيقِيَّةَ، أَنَّ مَشَـاعِرَهُ، فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، قَدْ تَحَوَّلَتْ وَانْقَلَبَتْ، ولَمْ يَتَمَالَكْ نَفْسَهُ، فَجَلَـسَ عَلَى الأَرْضِ يَبْكِي إِشْـفَاقًا عَلَى هَذَا الضَّعِيفِ التَّعِسِ، الَّذِي خَسِرَ الدُّنيا وَالآخِرَةَ، ولَقِيَ أَسْـوَأَ مَصِيْرٍ، وَإِشْـفَاقًا عَلَى أَوْلاَدِهِ الصِّغَارِ الْمَسَـاكِينِ، الَّذِينَ لَمْ يَتْرُكْ لَهُمْ سِوَى الْعَارِ، يُلاَحِقُهُمْ إِلَى الأَبَدِ!!

## النَّجْمُ يَهْوِي

شَاعَ نَبَأُ مَرَضِ الْخَلِيفَةِ الْعَادِلِ، وَاقْتِرَابِ نِهَايَتِهِ، فَعَمَّتِ الأَحْزَانُ، وَانْتَشَرَ الْخَوْفُ فِي أَرْجَاءِ الدَّوْلَةِ الإِسْـلاَمِيَّةِ. وَفِي هَذِهِ الأَيَّامِ الْعَصِيبَةِ، كَانَ الْهُدْهُدُ يَكْتَفِي بِوَقْتٍ قَلِيلٍ، يَقِفُهُ حَزِينًا بَاكِيًا عَلَى شُبَّاكِ عُمَرَ، فَهُوَ أَكْثَرُ مَنْ يَعْرِفُ النِّهَايَةَ الْمَحْتُومَةَ، بَيْنَمَا كَانَ يَقْضِي الْجَانِبَ الأَكْبَرَ مِنْ وَقْتِهِ فِي تَفَقُّدِ

أَحْوَالِ النَّاسِ الْبُسَطَاءِ، فِي الأَسْوَاقِ

وَالْمَـزَارِعِ وَدَكَاكِينِ الْحِـرَفِ وَالأَحْيَاءِ

الْفَقِيـرَةِ، وَغَيْرِهِـمْ مِنَ الْبُؤَسَـاءِ الْمُسْـتَضْعَفِينَ،

الَّذِيـنَ بَدَتْ لَهُ وُجُوهُهُمْ مُتَشَـابِهَةً، وَذَاتَ مَلاَمِـحَ وَاحِدَةٍ، هِيَ مَلاَمِحُ

مَنْ يَصْحُو مِنَ الْحُلْمِ الْجَمِيلِ عَلَى كَابُوسٍ!!

فَالَّذي يَعْرِفُهُ الْجَميعُ جَيِّدًا أَنَّ مَوْتَ الْخَليفَةِ الْعادِلِ، يَعْني عَوْدَةَ الظَّالِمينَ. حَتَّى إِنَّ بَعْضَ مَنْ اسْتَرَدُّوا حُقُوقَهُمْ بِعَدْلِ عُمَرَ، أَخَذُوا يُرَتِّبُونَ لِلْهَرَبِ، خَوْفًا مِنْ بَطْشِ الأُمَراءِ بِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِ. أَمَّا الْمُعْدَمُونَ وَالْمَرْضَى وَالْيَتامَى، فَقَدْ أَخَذُوا يَلْتَسُونَ الأَسْوَدَ وَيَبْكُونَ، حَتَّى قَبْلَ إِعْلانِ النَّبَأ!!

أَمَّا طارِقُ بْنُ زِيادٍ، فَقَدْ لاحَظَ عَلَيْهِ الْهُدْهُدُ خِلالَ هَذِهِ الأَيَّامِ الْقَليلَةِ تَغَيُّراتٍ كَثيرَةً وَسَريعَةً؛ فَقَدِ ازْدادَ نُحولاً، وَازْدادَ ظَهْرُهُ انْحِناءً، وَشَعْرُهُ بَياضًا، وَوَجْهُهُ شُحُوبًا، وَعَيْناهُ ذُبُولاً !!

وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يُقْلِقُ الْهُدْهُدَ هُوَ ذُهُولُهُ وَصَمْتُهُ الطَّويلُ، فَلَمْ يَعُدْ يُكَلِّمُهُ كَمَا كَانَ، بَلْ إِنَّهُ، فِي بَعْضِ الأَحْيانِ، لَمْ يَكُنْ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، أَوْ يَشْعُرُ بِوُجُودِهِ مَعَهُ.

أَيَّامٌ قَليلَةٌ، وَلَكِنَّهَا مَرَّتْ ثَقيلَةً عَلَى الْجَميعِ؛ ثَقيلَةً عَلَى كُلِّ مَنْ يُحِبُّ الْعادِلَ الزَّاهِدَ، وَلاَ يَمْلِكُ لَهُ إِلاَّ الدُّعاءَ وَالأَمَلَ فِي لُطْفِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، وَثَقيلَةً عَلَى كُلِّ مَنْ يَكْرَهُهُ، وَيَتَحَرَّقُ شَوْقًا لِرَحيلِهِ، لِكَيْ يَسْتَرِدَّ مَكَانَتَهُ، وَيَعُودَ لِلْكِبْرِ، وَاغْتِصَابِ الْحُقُوقِ، وَإِذْلالِ النَّاسِ.

وَمَرَّتِ الأَيَّامُ، وَوَقَعَ مَا كَانَ يَنْتَظِرُهُ الْجَميعُ، وَارْتَفَعَ النِّدَاءُ الْبَاكِي مِنْ فَوْقِ مَآذِنِ الشَّامِ، ثُمَّ مِنْ فَوْقِ مَآذِنِ الْعَالَمِ

الإِسْلاَمِيِّ كُلِّهِ، يُعْلِنُ النَّبَأَ الْحَزِينَ.

لَمْ يَكُنِ النَّبَأُ مُفَاجِئًا لأَحَدٍ، وَرَغْمَ ذَلِكَ فَقَدْ وَقَعَ عَلَى الْجَمِيعِ وُقُوعَ الصَّاعِقَةِ، حَتَّى أَنَّ الْهُدْهُدَ رَأَى بِعَيْنَيْهِ بَعْضَ الْمُتَآمِرِينَ وَهُوَ يَتَوَارَى عَنِ الْعُيُونِ وَيَبْكِي!!

لَقَدْ عَمَّ الْحُزْنُ أَرْجَاءَ الدُّنْيَا، وَارْتَفَعَ الْعَوِيلُ وَالْبُكَاءُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، حَتَّى ظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ الأَشْجَارَ وَالطَّيْرَ وَجُدْرَانَ الْبُيُوتِ وَأَحْجَارَ الطَّرِيقِ كَانَتْ تَبْكِي مَعَهُمْ!!

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ الصَّعْبَةِ، لَمْ يَنْسَ الْهُدْهُدُ صَدِيقَهُ، وَتَسَاءَلَ بِقَلَقٍ: يَا تُرَى، كَيْفَ سَيَحْتَمِلُ طَارِقٌ هَذَا النَّبَأَ، وَهُوَ وَحِيدٌ مَعْزُولٌ؟!!

فَرَدَ الْهُدْهُدُ جَنَاحَيْهِ الْمُتْعَبَيْنِ، وَطَارَ مِنْ فَوْقِ الْمِئْذَنَةِ، مُتَّجِهًا إِلَى الصَّحْرَاءِ، تَارِكًا خَلْفَهُ الْمَدِينَةَ الْبَاكِيَةَ.

وَفِي الطَّرِيقِ شَعَرَ، لأَوَّلِ مَرَّةٍ، أَنَّ الْمَسَافَةَ الَّتِي كَانَ يَقْطَعُهَا دُونَ أَنْ يَتْعَبَ أَوْ يَشْعُرَ بِالْوَقْتِ، قَدْ صَارَتْ بَعِيدَةً وَثَقِيلَةً عَلَيْهِ. وَكَانَ يُفَكِّرُ:

فِيمَا مَضَى، كُنْتُ أَذْهَبُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ إِلَى طَارِقٍ لِكَيْ أُسَلِّيَهُ، وَأُونِسَ وَحْدَتَهُ، وَأُوَاسِيَهُ. أَمَّا الْيَوْمَ، فَأَنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى مَنْ يُوَاسِينِي وَيُعَزِّينِي، وَطَارِقٌ فِيهِ مَا يَكْفِيهِ!!

تَرَدَّدَ الْهُدْهُدُ قَلِيلاً، وَلَكِنَّهُ عَادَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ: عَلَى أَيَّةِ حَالٍ، فَوُجُودِي إِلَى جِوَارِهِ سَيُخَفِّفُ عَنِّي وَعَنْهُ أَكْثَرَ مِمَّا لَوْ جَلَسَ كُلٌّ مِنَّا وَحِيدًا مَعَ أَحْزَانِهِ.

# عِمْلاقٌ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالْجُنُون

عِنْدَمَا وَصَلَ الْهُدْهُد، كَانَ طَارِقٌ وَاقِفًا يُصَلِّي حَافِيًا عَلَى الرِّمَالِ أَمَامَ الْخَيْمَةِ، تَمَامًا كَمَا رَآهُ الْهُدْهُدُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ يَحْلُمُ بِالأَنْدَلُسِ، وَلَكِنْ أَيْنَ الْبَحْرُ؟ وَأَيْنَ الأَنْدَلُسُ؟ وَأَيْنَ الشَّبَابُ وَالْعُنْفُوانُ؟! هُوَ الآنَ شَيْخٌ أَشْيَبُ ضَعِيفُ الْبَدَنِ، وَمُنْذُ عَرَفَ بِمَرَضِ عُمَرَ، أَصْبَحَ خَفِيفَ الْعَقْلِ، تَخْتَلِطُ فِي رَأْسِهِ ذِكْرَيَاتُ الْمَاضِي بِأَوْهَامِ الشَّيْخُوخَةِ!!

أَنْهَى طَارِقٌ صَلاتَهُ، وَجَلَسَ هَادِئًا بَعْضَ الْوَقْتِ، ثُمَّ انْتَفَضَ وَاقِفًا نَشِيطًا، وَهُوَ يُمْسِكُ بِعُودٍ طَوِيلٍ مِنَ الْحَطَبِ، كَمَا يَمْسِكُ بِالسَّيْفِ، وَأَخَذَ يُخَطِّطُ بِطَرَفِهِ عَلَى الأَرْضِ، وَيَتَحَدَّثُ إِلَى أَشْخَاصٍ غَيْرِ مَرْئِيِّينَ، يُلَوِّحُ لَهُمْ بِسَيْفِهِ، بَعْضُهُمْ جُنُودُهُ، يَشْرَحُ لَهُمُ الْخُطَطَ، وَيَأْمُرُهُمْ، وَيُحَمِّسُهُمْ، وَبَعْضُهُمْ أَعْدَاؤُهُ، يُهَدِّدُهُمْ، وَيَتَوَعَّدُهُمْ بِالْمَوْتِ!!

ثُمَّ جَلَسَ فِي مَكَانِهِ عَلَى الأَرْضِ، وَأَخَذَ يَتَحَدَّثُ بِهُدُوءٍ إِلَى شَخْصٍ غَيْرِ مَرْئِيٍّ، وَيَقُولُ لَهُ: أَنْتَ مُخْطِئٌ، نَعَمْ ... اِسْمَعْهَا مِنِّي، أَنْتَ مُخْطِئٌ، تَرَكْتَ لَهُمُ الْفُرْصَةَ لِكَيْ يَتَمَكَّنُوا مِنْكَ. وَأَنَا مُخْطِئٌ، مَعَكَ حَقٌّ، أَنَا مُخْطِئٌ، كَانَ يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَحْمِيَكَ مِنْهُمْ

بِسَيْفِي هَذَا، كَانَ يَجِبُ أَنْ نَقْضِيَ عَلَيْهِمْ نِهَائِيًّا، حَتَّى لاَ يَعُودُوا بَعْدَكَ لِظُلْمِ النَّاسِ وَإِذْلاَلِهِمْ، عَلَى الْعُمُومِ، لَقَدِ ارْتَحْتَ أَنْتَ الآنَ، اِرْتَحْتَ إِلَى الأَبَدِ، وَلَكِنَّكَ أَتْعَبْتَ النَّاسَ وَعَذَّبْتَهُمْ؛ لأَنَّكَ جَعَلْتَهُمْ يَعِيشُونَ فِي حُلْمٍ جَمِيلٍ، ثُمَّ أَيْقَظْتَهُمْ عَلَى صُرَاخٍ وَعَوِيلٍ، لَيْتَكَ لَمْ تَأْتِ أَصْلاً، كَانَ جَدُّكَ يَقُولُ: لَيْتَ أُمَّ عُمَرَ لَمْ تَلِدْ عُمَرَ، وَلِذَلِكَ قَتَلُوهُ مِثْلَكَ!!

كَانَ الشَّخْصُ الَّذِي يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ طَارِقٌ فِي خَيَالِهِ هُوَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، الَّذِي الْتَقَاهُ مَرَّاتٍ مَعْدُودَةً فِي قَصْرِ الْوَلِيدِ، وَأَحَبَّهُ حُبًّا شَدِيدًا، وَعَرَفَ أَنَّهُ حَاوَلَ أَنْ يُنْقِذَهُ مِنْ عِقَابِ سُلَيْمَانَ وَانْتِقَامِهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ، وَعِنْدَمَا صَارَ خَلِيفَةً أَرَادَ أَنْ يُنْصِفَهُ، وَيَرُدَّ إِلَيْهِ اعْتِبَارَهُ، وَلَكِنْ كَانَ الأَوَانُ قَدْ فَاتَ، رَفَضَ طَارِقٌ قَبُولَ أَيِّ شَيْءٍ، وَرَفَضَ أَنْ يَتْرُكَ خَيْمَتَهُ وَعُزْلَتَهُ، وَاكْتَفَى بِالْقَلِيلِ مِنَ الأَصْدِقَاءِ، الَّذِينَ كَانُوا يَأْتُونَ لِزِيَارَتِهِ، دُونَ خَوْفٍ مِنَ الْعِقَابِ، وَحَتَّى هَؤُلاَءِ، انْقَطَعَتْ زِيَارَتُهُمْ مُنْذُ مَرَضِ عُمَرَ؛ لأَنَّهُمْ أَدْرَكُوا أَنَّ الْعِقَابَ سَيَعُودُ قَرِيبًا!!

## مَوْتُ طَارِقٍ

أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ، وَعَادَتِ الأَحْوَالُ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، وَامْتَلأَتِ الأَرْضُ ظُلْمًا وَخَوْفًا، بَعْدَ مَلأَهَا عُمَرُ عَدْلاً وَسَلاَمًا، أَمَّا الْهُدْهُدُ فَكَانَ يَزْدَادُ ضَعْفًا وَهُزَالاً، وَهُوَ يَرْقُبُ انْحِسَارَ دَائِرَةِ النُّورِ، وَاتِّسَاعِ دَائِرَةِ الظَّلاَمِ، وَلَمْ يَكُنْ يُخَفِّفُ مِنْ حُزْنِهِ غَيْرُ زِيَارَةِ

لِطَارِقٍ، الَّذِي أَخَذَ هُوَ أَيْضًا يَزْدَادُ نُحُولاً وَضَعْفًا، وَبَدَأَتْ تَظْهَرُ عَلَيْهِ عَلاَمَاتُ النِّهَايَةِ، حَتَّى جَاءَ الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ.

يَوْمَهَا، كَانَ الْهُدْهُدُ ذَاهِبًا لِزِيَارَتِهِ فِي الشِّتَاءِ، فِي بَرْدِ الصَّحْرَاءِ الْقَارِسِ، وَلَمْ يَكُنْ لَدَى طَارِقٍ غَيْرُ قَلِيلٍ مِنَ الْمَلاَبِسِ وَالأَغْطِيَةِ الْمُهْلْهَلَةِ، وَضَعَهَا كُلَّهَا فَوْقَ جِسْمِهِ، وَجَلَسَ فِي رُكْنِ الْخَيْمَةِ يَرْتَعِشُ وَيَدْعُو الله، وَيُرَدِّدُ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ.. لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ. وَمَا زَالَ هَكَذا، حَتَّى تَوَقَّفَتِ الرَّعْشَةُ، وَتَوَقَّفَ الصَّوْتُ!!

وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، انْهَارَ الْهُدْهُدُ بِجَانِبِهِ عَلَى الأَرْضِ يُجْهِشُ بِالْبُكَاءِ، وَيَقُولُ: الآنَ سَتَرْتَاحُ أَيُّهَا الْمُتْعَبُ. إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ!!

# الْمُؤامَرَةُ الْكُبْرَى

بَعْدَ وَفَاةِ طَارِقٍ، حَزِنَ جَدِّي حُزْنًا شَدِيدًا، وَتَدَهْوَرَتْ صِحَّتُهُ، فَرَقَدَ فِي الْعُشِّ أَيَّامًا، لاَ يَسْتَطِيعُ الطَّيَرَانَ، إِلاَّ لِدَقَائِقَ مَعْدُودَةٍ، يَشْرَبُ فِيهَا، أَوْ يَأْكُلُ قَلِيلاً مِنَ الطَّعَامِ؛ يَكْفِيهِ لِكَيْ يَبْقَى حَيًّا، ثُمَّ يَعُودُ لِيَنَامَ فِي الْعُشِّ، وَهُوَ يَشْعُرُ بِأَلَمٍ فِي كُلِّ جِسْمِهِ.

وَلَكِنَّ جَدِّي هَذَا كَانَ قَوِيَّ الإِرَادَةِ، وَلَدَيْهِ شُعُورٌ عَمِيقٌ بِالْمَسْؤُولِيَّةِ، فَلَمْ يَسْتَسْلِمْ لِلْحُزْنِ وَالْمَرَضِ، وَظَلَّ يُقَاوِمُ وَيُقَاوِمُ، حَتَّى اسْتَرَدَّ بَعْضَ صِحَّتِهِ، فَعَادَ إِلَى نَشَاطِهِ، وَلَمْ يَتَوَقَّفْ لَحْظَةً عَنِ الطَّيَرَانِ، وَالتَّنَقُّلِ بَيْنَ أَحْيَاءِ الشَّامِ وَأَسْوَاقِهَا، وَمَزَارِعِهَا وَقُصُورِهَا؛ لِمُتَابَعَةِ أَحْوَالِ الْبِلاَدِ وَالْعِبَادِ.

وَرَاءَ كُلِّ شُبَّاكٍ أَطَلَّ مِنْهُ الْهُدْهُدُ، لَمْ يَكُنْ يَسْمَعُ، أَوْ يَرَي، غَيْرَ أَنِينِ النَّاسِ وَشَكْوَاهُمْ وَخَوْفِهِمْ، إِلاَّ شُبَّاكًا وَاحِدًا كَانَ يُطِلُّ مِنْهُ عَلَى رَجُلٍ لاَ يَشْكُو وَلاَ يَئِنُّ، بَلْ يُدَبِّرُ وَيُخَطِّطُ لِلْخَلاَصِ مِنْ كُلِّ هَذَا.

وَوَرَاءَ هَذَا الشُّبَّاكِ، سَيَسْمَعُ جَدِّي، وَيَرَى وَيُتَابِعُ، خُيُوطَ أَكْبَرِ مُؤَامَرَةٍ فِي هَذَا الزَّمَانِ، مُؤَامَرَةٍ لَمْ يَشْهَدْ مِثْلَهَا أَحَدٌ مِنْ أَجْدَادِي!!

كَانَ جَدِّي يَعْرِفُ ذَلِكَ الرَّجُلَ مَعْرِفَةً جَيِّدَةً، مُنْذُ أَيَّامِ عُمَرَ، بَلْ مِنْ قَبْلِ أَيَّامِ عُمَرَ. رَجُلٌ دَاهِيَةٌ، يَحْمِلُ كَرَاهِيَةً شَدِيدَةً لِدَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ وَحُكَّامِهَا، وَلَهُ أَتْبَاعٌ وَأَعْوَانٌ كَثِيرُونَ، ثَائِرُونَ غَاضِبُونَ، يَزُورُونَهُ فِي الْخَفَاءِ، يَرْسُمُونَ الْخُطَطَ، وَيَحِيكُونَ الْمُؤَامَرَاتِ.

كَانَ عَدْلُ عُمَرَ وَتَوَاضُعُهُ وَزُهْدُهُ قَدْ هَدَّأَ مِنْ ثَوْرَتِهِمْ، وَجَعَلَهُمْ يَشْعُرُونَ

بِالرِّضَا، وَلَكِنَّ عَوْدَةَ الظُّلْمِ وَالْجَبَرُوتِ، بَعْدَ مَوْتِهِ، أَشْعَلَتْ فِي نُفُوسِهِمْ نَارَ الْكَرَاهِيَةِ وَالثَّوْرَةِ مِنْ جَدِيدٍ، فَعَادُوا يُنَظِّمُونَ صُفُوفَهُمْ فِي الْخَفَاءِ، وَيَجْمَعُونَ حَوْلَهُمُ الأَعْوَانَ مِنْ كُلِّ أَنْحَاءِ الدَّوْلَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ، بِكُلِّ سِرِّيَّةٍ وَتَكَتُّمٍ، دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِهِمْ أَحَدٌ، أَوْ يُلاَحِظَ عَلَيْهِمْ شَيْئًا؛ فَقَدْ كَانُوا بَارِعِينَ فِي التَّخَفِّي وَالْخِدَاعِ، يَعِيشُونَ كَمَا يَعِيشُ النَّاسُ، وَيُظْهِرُونَ الطَّاعَةَ وَالْوَلاَءَ، وَهُمْ يُخْفُونَ فِي نُفُوسِهِم الْحِقْدَ وَالْكَرَاهِيَةَ، وَيَنْتَظِرُونَ اللَّحْظَةَ الَّتِي يَأْمُرُهُمْ فِيهَا هَذَا الرَّجُلُ بِالتَّحَرُّكِ، وَتَنْفِيذِ خُطَّةِ الانْتِقَامِ الرَّهِيبِ!!

وَحَانَتِ اللَّحْظَةُ، كَانَ الْهُدْهُد وَاقِفًا عَلَى الشُّبَّاكِ، يُتَابِعُ بِكُلِّ حَوَاسِّهِ، وَقَلْبُهُ يَدُقُّ بِسُرْعَةٍ مِنْ شِدَّةِ الانْفِعَالِ، وَهَذَا الرَّجُلُ جَالِسٌ، وَحَوْلَهُ عَدَدٌ مِنْ أَعْوَانِهِ،

يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِمْ بِصَوْتٍ خَفِيضٍ، يَرْسُمُ لَهُمُ الْخُطَّةَ، وَيُحَدِّدُ لِكُلٍّ مِنْهُمْ دَوْرَهُ فِيهَا بِكُلِّ دِقَّةٍ، وَيَقُولُ: سَنَقُومُ بِالتَّنْفِيذِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، سَيَتَحَرَّكُ الْجَمِيعُ، فِي كُلِّ مَكَانٍ، فِي اللَّحْظَةِ نَفْسِهَا، دُونَ إِبْطَاءٍ أَوْ تَأْخِيرٍ، حَتَّى نَنْتَهِيَ مِنَ الأَمْرِ سَرِيعًا، وَفِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَيَكُونُ عَمَلُنَا قَوِيًّا وَمُفَاجِئًا، لاَ يَتْرُكُ لأَعْدَائِنَا فُرْصَةً لِلْمُقَاوَمَةِ أَوِ النَّجَاةِ!!

## الْمَذْبَحَة

فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، لَمْ يَنَمِ الْهُدْهُدُ، أَوْ يَهْدَأْ جَنَاحُهُ لَحْظَةً وَاحِدَةً، فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَطِيرَ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَمِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ، بِأَقْصَى سُرْعَتِهِ، وَدُونَ إِبْطَاءٍ، لِكَيْ يُتَابِعَ، وَيَرَى بِعَيْنِهِ مَجْمُوعَاتِ الثَّائِرِينَ، وَهُمْ يَهُبُّونَ فِي الظَّلاَمِ، يُخْفُونَ وُجُوهَهُمْ، وَيَلْبَسُونَ مَلاَبِسَ سَوْدَاءَ، وَيَرْفَعُونَ رَايَاتٍ سَوْدَاءَ، وَيُشْهِرُونَ سُيُوفًا تَلْمَعُ فِي الظَّلاَمِ، وَيُتَابِعُ كُلَّ مَجْمُوعَةٍ مِنْهُمْ وَهِيَ تَنْطَلِقُ إِلَى مَكَانٍ.

كَانَ الْمَشْهَدُ رَهِيبًا، فَقَدْ كَانُوا يَقْتَحِمُونَ بُيُوتَ الأُمَرَاءِ وَالْكُبَرَاءِ وَالأَعْوَانِ، يَقْتُلُونَ وَيَذْبَحُونَ، وَلاَ يَتْرُكُونَ لأَحَدٍ

مِنْهُمْ فُرْصَةً لِلنَّجَاةِ. وَتَعَالَتِ الصَّرَخَاتُ، وَجَرَتِ الدِّمَاءُ أَنْهَارًا. وَلَمْ تُشْرِقْ شَمْسُ ذَلِكَ اليَوْمِ حَتَّى كَانَ كُلُّ هَؤُلاَءِ فِي عِدَادِ الْمَوْتَى!!

كَانَ الْهُدْهُدُ يَصْرُخُ وَيَبْكِي بُكَاءً حَارِقًا، وَهُوَ يَرَى هَذَا الْقَتْلَ الْغَادِرَ، وَرَغْمَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْقَتْلَى كَانُوا مِنَ الظَّلَمَةِ وَالْمُتَكَبِّرِينَ، إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ يَشْعُرُ بِإِشْفَاقٍ شَدِيدٍ عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ؛ لأَنَّهُ رَغْمَ كُلِّ شَيْءٍ، لَمْ يَكُنْ يَتَمَنَّى لَهُمْ هَذَا الْمَصِيرَ الْمُؤْلِمَ!!

عِنْدَمَا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ، كَانَ الرُّعْبُ وَالْفَزَعُ الرَّهِيبُ قَدْ خَيَّمَ عَلَى قُلُوبِ الْجَمِيعِ، فَقَدْ رَأَى النَّاسُ أَنْهَارَ الدِّمَاءِ، وَرَأَوْا آلاَفَ الْقَتْلَى، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا: مَنِ الْقَاتِلُ؟!!

وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّى انْكَشَفَ السِّرُّ الْغَامِضُ، وَعَرَفَ الْجَمِيعُ الْقَاتِلَ، كَانَ الْهُدْهُدُ يَعْرِفُهُ مُنْذُ الْبِدَايَةِ، وَيَعْرِفُ أَنَّ اسْمَهُ (أَبُو الْعَبَّاسِ)، وَلَكِنَّ النَّاسَ عِنْدَمَا عَرَفُوهُ، أَضَافُوا إِلَى اسْمِهِ كَلِمَةً أُخْرَى، تَدُلُّ عَلَيْهِ، وَسَمَّوْهُ (أَبُو الْعَبَّاسِ السَّفَّاحُ)!! وَكَانُوا عَلَى حَقٍّ فِي اخْتِيَارِ هَذَا الاسْمِ لِلرَّجُلِ الَّذِي ارْتَكَبَ كُلَّ هَذِهِ الْمَذَابِحِ، وَقَامَ بِكُلِّ هَذِهِ الأَفْعَالِ الشَّنِيعَةِ، فَقَدْ كَانَ النَّاسُ يُرِيدُونَ الْعَدْلَ

وَالإِنْصَافَ مِنْ حُكَّامِهِمْ وَوُلاَتِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُرِيدُونَ هَذَا الانْتِقَامَ الرَّهِيبَ، وَلاَ هَذَا الْمَصِيرَ الْمُؤْلِمَ، حَتَّى إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ كَانُوا يَبْكُونَ، وَيَشْعُرُونَ بِالْحُزْنِ وَالإِشْفَاقِ عَلَى الضَّحَايَا، وَيَقُولُونَ: عِلاَجُ الظُّلْمِ بِالظُّلْمِ مُنْتَهَى الظُّلْمِ، لَقَدْ أَقَامَ عُمَرُ الْعَدْلَ دُونَ إِرَاقَةِ قَطْرَةِ دَمٍ وَاحِدَةٍ.

وَيَرُدُّ عَلَيْهِمُ الْبَعْضُ قَائِلِينَ: عُمَرُ، كَانَتْ لَدَيْهِ الْفُرْصَةُ كَامِلَةً، وَكَانَ الأَمْرُ بِيَدِهِ، فَقَدْ كَانَ الْخَلِيفَةَ، أَمَّا هَؤُلاَءِ الثَّائِرُونَ، فَلَمْ تَكُنْ لَدَيْهِمْ أَيَّةُ فُرْصَةٍ، وَلَوِ انْكَشَفَ أَمْرُهُمْ، لَكَانُوا قَدْ قُتِلُوا جَمِيعًا، بِلاَ رَحْمَةٍ!!

## الصَّقْرُ الْهَارِبُ

فِي الأَيَّامِ الَّتِي تَلَتِ الْمَذْبَحَةَ الرَّهِيبَةَ، انْشَغَلَ الْهُدْهُدُ، وَانْشَغَلَ النَّاسُ فِي شَيْءٍ عَجِيبٍ، فَقَدْ فُوجِئَ الْجَمِيعُ بِرِجَالِ (السَّفَّاحِ) وَجُنُودِهِ، يُفَتِّشُونَ كُلَّ بَيْتٍ، وَكُلَّ غُرْفَةٍ، وَكُلَّ صُنْدُوقٍ، وَكُلَّ خِزَانَةٍ، بَحْثًا عَنْ رَجُلٍ هَارِبٍ، يُرِيدُونَ قَتْلَهُ.

لَمْ يَكُنِ النَّاسُ يَعْرِفُونَ الرَّجُلَ الْمُطَارَدَ، وَرَغْمَ ذَلِكَ، فَقَدْ كَانُوا يَتَعَاطَفُونَ مَعَهُ تَعَاطُفًا شَدِيدًا، وَيَتَمَنَّوْنَ لَهُ النَّجَاةَ مِنْ أَيْدِيهِمْ!!

أَمَّا الْهُدْهُدُ فَكَانَ يَعْرِفُهُ، مُنْذُ أَنْ عَبَرَ نَهْرَ الْفُرَاتِ هَارِبًا، وَأَخَذَ يُتَابِعُهُ، وَهُوَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَتَخَفَّى؛ فِي هَيْئَةِ امْرَأَةٍ، أَوْ رَاعٍ بَدَوِيٍّ، أَوْ رَاهِبِ دِيرٍ، أَوْ صَانِعٍ فَخَّارٍ، وَيَنْتَقِلُ مُتَسَلِّلاً مِنْ بَيْتٍ إِلَى بَيْتٍ، وَمِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ، وَمِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، يُسَاعِدُهُ فِي ذَلِكَ رَشَاقَتُهُ الْعَجِيبَةُ، وَضَآلَةُ جِسْمِهِ، الَّتِي تَجْعَلُهُ يَبْدُو مِثْلَ صَبِيٍّ، حَتَّى وَصَ

إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ، حَيْثُ يَعِيشُ أَخْوَالُهُ الأَقْوِيَاءُ. وَهُنَاكَ، كَشَفَ عَنْ شَخْصِيَّتِهِ، فَعَرَفَهُ النَّاسُ، وَعَرَفُوا أَنَّ اسْمَهُ (عَبْدُ الرَّحْمَنِ)، وَعَرَفُوا أَنَّهُ الرَّجُلُ الْوَحِيدُ الَّذِي بَقِيَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ؛ لأَنَّهُ الرَّجُلُ الْوَحِيدُ الَّذِي نَجَا مِنَ الْمَذْبَحَةِ!!

انْتَصَرَ (أَبُو الْعَبَّاسِ) وَسَيْطَرَ عَلَى الدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَسَمَّاهَا (الدَّوْلَةَ الْعَبَّاسِيَّةَ)، بَعْدَ أَنْ قَضَى بِهَذِهِ الْمَذْبَحَةِ الرَّهِيبَةِ عَلَى الدَّوْلَةِ الأُمَوِيَّةِ، وَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يَقْتُلَ هَذَا الشَّابَّ، حَتَّى لاَ يَبْقَى أَحَدٌ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ، يُمْكِنُ أَنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ حَوْلَهُ، فَيُمَثِّلَ خَطَرًا عَلَيْهِ، وَعَلَى دَوْلَتِهِ الْجَدِيدَةِ.

وَحَدَثَ بِالْفِعْلِ مَا كَانَ يَتَوَقَّعُهُ أَبُو الْعَبَّاسِ، وَمَا كَانَ يَعْرِفُهُ الْهُدْهُد، وَيَرَاهُ بِعَيْنِهِ. فَمِنَ اللَّحْظَةِ الأُولَى لِوُصُولِ الشَّابِّ (عَبْدِ الرَّحْمَنِ) إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ مُتَخَفِّيًا، عَقَدَ الْعَزْمَ عَلَى تَحْقِيقِ هَدَفِهِ الْكَبِيرِ، وَهُوَ إِحْيَاءُ دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ، فِي بِلَادِ الأَنْدَلُسِ، الَّتِي فَتَحَتْهَا جُيُوشُ جَدِّهِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ.

## سِرُّ الْخَاتَمِ الْفِضِّي

حُلْمٌ كَبِيرٌ لِشَابٍّ أُمَوِيٍّ وَحِيدٍ، يَتَرَبَّصُ بِهِ أَعْدَاءٌ أَقْوِيَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلَيْسَ مَعَهُ، بَعْدَ اللهِ، إِلاَّ حُلْمُهُ الْكَبِيرُ، وَشَيْءٌ آخَرُ لاَ يَعْرِفُهُ أَحَدٌ، هُوَ خَاتَمٌ فِضِّيٌّ فِي

إِصْبَعِهِ الصَّغِيرِ، ظَلَّ يَتَحَسَّسُهُ طَوَالَ رِحْلَةِ فِرَارِهِ، وَهُوَ يَتَرَحَّمُ عَلَى أُمِّهِ!!.

قُلْتُ بِدَهْشَةٍ: خَاتَمٌ فِضِّيٌّ!!

اِبْتَسَمَ صَاحِبِي الْهُدْهُدُ، وَقَالَ لِي: نَعَمْ، خَاتَمٌ فِضِّيٌّ فِي إِصْبَعِهِ الصَّغِيرِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُمَثِّلُ طَوْقَ النَّجَاةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَخْلُوقٌ يَعْرِفُ سِرَّ هَذَا الْخَاتَمِ.

وَالْغَرِيبُ الْعَجِيبُ يَا أَمِينُ، أَنَّ جَدِّي كَانَ يَعْرِفُ سِرَّ هَذَا الْخَاتَمِ مُنْذُ الْبِدَايَةِ، فَقَدْ رَأَى أُمَّ الشَّابِّ عَبْدِالرَّحْمَنِ، وَهِيَ فِي لَحَظَاتِهَا الأَخِيرَةِ، تَخْلَعُ هَذَا الْخَاتَمَ مِنْ إِصْبَعِهَا، وَتُوصِيهِ بِأَنْ يَضَعَهُ فِي إِصْبَعِهِ، وَلاَ يَخْلَعُهُ أَبَدًا!!

تَعَجَّبْتُ، وَسَأَلْتُهُ: هَلْ هُوَ خَاتَمٌ مَسْحُورٌ؟!!

عَادَ الْهُدْهُدُ يَبْتَسِمُ، وَيَقُولُ: لا. لَيْسَ مَسْحُورًا، وَلَيْسَ فِيهِ سِرٌّ مِنْ هَذَا النَّوْعِ، بَلْ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ. فَهَذَا الْخَاتَمُ هُوَ الدَّلِيلُ الْوَحِيدُ

الَّـذِي سَـيُقَدِّمُهُ الشَّابُّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِلَى أَخْوَالِهِ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ، لِكَيْ يَعْرِفُوهُ بِهِ، فَيُسَاعِدُوهُ وَيَحْمُوهُ، وَبِدُونِهِ لَنْ يَعْرِفُوهُ.

تَعَجَّبْتُ، وَسَأَلْتُهُ: كَيْفَ لا يَعْرِفُونَهُ وَهُمْ أَخْوَالُهُ؟!!

قَالَ الْهُدْهُدُ: هَذَا هُوَ السِّرُّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ أَحَدٌ، وَحَتَّى عَبْدُ الرَّحْمَنِ نَفْسُهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ أَنَّ أُمَّهُ ابْنَةُ شَيْخِ إِحْدَى الْقَبَائِلِ الْبَرْبَرِيَّةِ الْكَبِيرَةِ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ، وَأَنَّ أَبَاهُ أَخَذَهَا سَبِيَّةً فِي إِحْدَى غَزَوَاتِهِ هُنَاكَ، ثُمَّ أَعْتَقَهَا، وَتَزَوَّجَهَا، وَأَنَّ هَذَا الْخَاتَمَ الَّذِي ظَلَّتْ تَلْبَسُهُ طَوَالَ حَيَاتِهَا، هُوَ خَاتَمُ أُمِّهَا، الَّذِي يَعْرِفُهُ كُلُّ إِخْوَتِهَا حَقَّ الْمَعْرِفَةِ!!

وَظَلَّتْ أُمُّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ مُحْتَفِظَةً بِسِرِّهَا، حَتَّى أَصَابَهَا الْمَرَضُ الشَّدِيدُ. وَكَانَتْ فِي أَيَّامِهَا الأَخِيرَةِ، تَشْعُرُ أَنَّ شَيْئًا مَا رَهِيبًا يُدَبَّرُ فِي الْخَفَاءِ، وَأَنَّهُ سَوْفَ يَقَعُ لاَ مَحَالَةَ، وَأَنَّ ابْنَهَا سَيَكُونُ فِي خَطَرٍ مُحَقَّقٍ. لِذَا، فَقَدْ كَشَفَتْ لَهُ سِرَّهَا، وَقَالَتْ لَهُ، وَهِيَ تَلْفِظُ أَنْفَاسَهَا الأَخِيرَةَ: إِذَا ضَاقَتْ بِكَ الدُّنْيَا يَا وَلَدِي، وَاحْتَجْتَ يَوْمًا إِلَى مَأْوًى أَوْ إِلَى حِمَايَةٍ، فَاذْهَبْ إِلَى أَخْوَالِكَ، وَقَدِّمْ لَهُمْ هَذَا الْخَاتَمَ، لِكَيْ يَعْرِفُوكَ!!

## الصَّقْرُ وَالسَّاحِر

وَهَـذَا مَا حَدَثَ بِالْفِعْلِ، فَفِي أَوَّلِ لِقَاءٍ لَـهُ بِأَخْوَالِهِ، خَلَعَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْخَاتَمَ مِـنْ إِصْبَعِهِ، وَقَدَّمَهُ إِلَيْهِمْ قَائِلاً: هَذَا خَاتَمُ أُمِّي، يَا أَخْوَالِي. فَعَرَفَهُ أَخْوَالُهُ، وَكَانَتْ فَرْحَتُهُـمْ بِهِ عَظِيمَةً، لِدَرَجَةِ أَنَّ بَعْضَهُمْ بَكَى مِنْ شِـدَّةِ الانْفِعَـالِ!! وَلَكِنْ، فِي هَذَا

اللِّقَاءِ الْمُؤَثِّرِ، حَدَثَ شَيْءٌ كَادَ يُودِي بِحَيَاةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَقَدْ كَانَ مِنْ بَيْنِ الْخَدَمِ فِي بَيْتِ أَخْوَالِهِ صَبِيٌّ يَهُودِيٌّ، اطَّلَعَ عَلَى السِّرِّ، وَعَرَفَ أَنَّ هَذَا الضَّيْفَ الْمُتَخَفِّيَ هُوَ نَفْسُهُ الشَّابُّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، الَّذِي أَعْلَنَ الْعَبَّاسِيُّونَ عَنْ مُكَافَأَةٍ ضَخْمَةٍ لِمَنْ يُرْشِدُهُمْ إِلَيْهِ، فَانْطَلَقَ الصَّبِيُّ إِلَى عَمِّهِ، وَكَانَ سَاحِرًا يَهُودِيًّا دَجَّالاً، يَزْعُمُ أَنَّهُ يَتَنَبَّأُ بِالْغَيْبِ، وَيَكْشِفُ كُلَّ مَسْتُورٍ، وَكَانَ النَّاسُ يُصَدِّقُونَهُ لِدَرَجَةِ أَنَّهُ كَانَ مُقَرَّبًا مِنَ الْوَالِي، وَيَحْظَى بِثِقَتِهِ الْكَامِلَةِ!!

تَلَقَّفَ الْعَمُّ السَّاحِرُ هَذَا الْخَبَرَ مِنِ ابْنِ أَخِيهِ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَصِفَ لَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بِكُلِّ دِقَّةٍ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَكْتُمَ هَذَا السِّرَّ، وَلاَ يُطْلِعَ عَلَيْهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ.

أَمَّا هُوَ فَقَدْ كَانَ خَبِيثًا، يَعْرِفُ أَنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ الْوُصُولَ إِلَى الْعَبَّاسِيِّينَ لإِبْلاَغِهِمْ وَالْحُصُولِ عَلَى الْمُكَافَأَةِ، وَلَكِنَّهُ يَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ إِلَى وَالِي الْمَغْرِبِ، الَّذِي يَحْلُمُ وَيُخَطِّطُ

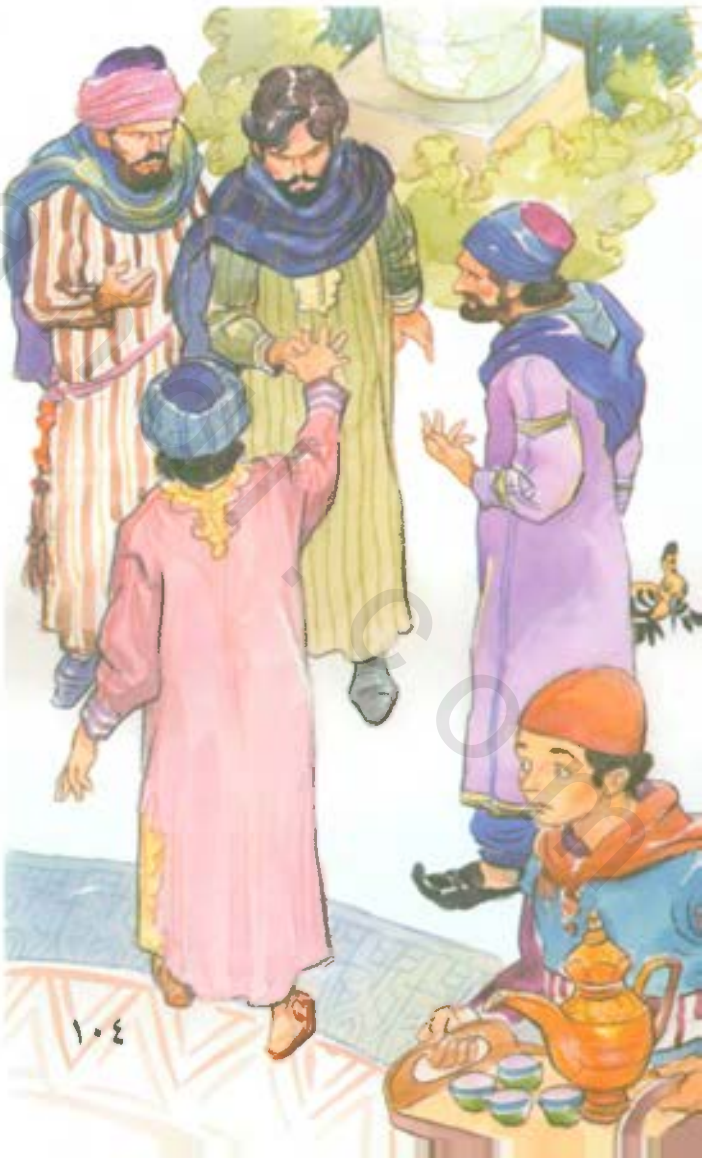

لِلسَّيْطَرَةِ عَلَى الأَنْدَلُسِ، فَيُقَدِّمُ لَهُ هَذِهِ الْهَدِيَّةَ الْغَالِيَةَ، وَيَحْصُلُ عَلَى الْمُقَابِلِ!!

وَبِالْفِعْلِ، انْطَلَقَ السَّاحِرُ إِلَى الْوَالِي، وَقَدْ رَسَمَ عَلَى وَجْهِهِ عَلاَمَاتِ الْحُزْنِ وَالْكَآبَةِ، وَأَبْلَغَهُ أَنَّهُ يَتَنَبَّأُ لَهُ بِخَطَرٍ رَهِيبٍ قَادِمٍ، وَأَنَّهُ رَأَى فِي أَوْرَاقِهِ السِّحْرِيَّةِ أَنَّ أَمِيرًا مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ، قَدْ وَصَلَ إِلَى بِلاَدِ الْمَغْرِبِ، وَأَنَّهُ سَوْفَ يَقْضِي عَلَى مُلْكِهِ، وَسَوْفَ يُسَيْطِرُ عَلَى الأَنْدَلُسِ، وَيُصْبِحُ مَلِكًا عَلَيْهَا وَعَلَى بِلاَدِ الْمَغْرِبِ.

وَقَدَّمَ لِلْوَالِي أَوْصَافَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِكُلِّ دِقَّةٍ، كَمَا سَمِعَهَا مِنِ ابْنِ أَخِيهِ، مُدَّعِيًا أَنَّ هَذَا مَا رَآهُ عَلَى صَفْحَةِ الْمَاءِ، فِي الطَّبَقِ الْمَسْحُورِ!!

وَمَا هِيَ إِلاَّ سَاعَةٌ، حَتَّى كَانَتِ الشُّرْطَةُ وَالْجَوَاسِيسُ قَدِ انْتَشَرُوا فِي كُلِّ مَكَانٍ فِي بِلاَدِ الْمَغْرِبِ، بَلْ إِنَّهُمْ عَرَفُوا مَكَانَ اخْتِفَاءِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي بَيْتِ خَالِهِ!!

## الْحِيلَةُ الْعَجِيبَةُ

اِقْتَحَمَ الْجُنُودُ الْبَيْتَ، فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ يُنْهِي صَلاَتَهُ، فَلَمَّا شَعَرَ خَالُهُ بِالْخَطَرِ، دَفَعَهُ بِسُرْعَةٍ قَائِلاً: اُدْخُلْ غُرْفَةَ زَوْجَةِ خَالِكَ، فَقَدْ يَسْتَحُونَ مِنْ تَفْتِيشِ غُرَفِ الْحَرِيمِ.

اِنْطَلَقَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِسُرْعَةٍ، وَأَغْلَقَ خَلْفَهُ الْبَابَ، وَلَكِنَّ الْجُنُودَ لَمْ يَسْتَحُوا، وَنَادَوْا يَكْسِرُونَ بَابَ الْغُرْفَةِ الْمُغْلَقَ؛ لأَنَّ مَنْ بِدَاخِلِهِ تَأَخَّرَ فِي فَتْحِهِ، وَعِنْدَمَا فَتَحَتِ الْجَارِيَةُ، انْطَلَقَ الْجُنُودُ إِلَى أَرْكَانِ الْغُرْفَةِ يُفَتِّشُونَهَا، وَيَقْلِبُونَهَا رَأْسًا عَلَى

عَقِبٍ، فَلَمْ يَجِدُوا فِيهَا غَيْرَ زَوْجَةِ الْخَالِ نَائِمَةً عَلَى السَّرِيرِ بِبَطْنِهَا الْكَبِيرِ، تَتَأَوَّهُ، وَتَتَوَجَّعُ، فَهِيَ حَامِلٌ فِي شَهْرِهَا الأَخِيرِ، وَتُوشِكُ أَنْ تَضَعَ مَوْلُودَهَا.

اِنْتَهَى الْجُنُودُ مِنْ تَفْتِيشِ الْغُرْفَةِ، وَالْبَيْتِ كُلِّه، ثُمَّ خَرَجُوا مُسْرِعِينَ، كَمَا دَخَلُوا مُسْرِعِينَ، وَكَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ اللِّحَاقَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَبْتَعِدَ!!

وَأَمَامَ عَيْنِ الْخَالِ، الَّتِي جَحَظَتْ مِنَ الرُّعْبِ وَالدَّهْشَةِ، تَبْتَسِمُ الزَّوْجَةُ الشُّجَاعَةُ، وَهِيَ تَرْفَعُ الْغِطَاءَ عَنْ بَطْنِهَا الْكَبِيرِ، لِتُخْرِجَ مَوْلُودَهَا، فَإِذَا هُوَ ابْنُ أُخْتِهِ، عَبْدُ الرَّحْمَنِ!!

نَجَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِهَذِهِ الأُعْجُوبَةِ، وَتَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ، نَقَلَهُ خَالُهُ إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ آمِنٍ، حَيْثُ شَرَعَ عَلَى الْفَوْرِ فِي تَنْفِيذِ خُطَّتِهِ، فَبَدَأَ بِالاتِّصَالِ بِأُمَرَاءِ الأَنْدَلُسِ

وَعْيَانِهَا الْمُوَالِينَ لِبَنِي أُمَيَّةَ، ثُمَّ عَبَرَ مَضِيقَ جَبَلِ طَارِقٍ، حَيْثُ كَانُوا فِي اسْتِقْبَالِهِ، وَمَا هِيَ إِلاَّ أَيَّامٌ، حَتَّى كَانَ النَّاسُ قَدْ تَجَمَّعُوا حَوْلَهُ، وَكَوَّنَ مِنْهُمْ جَيْشًا قَوِيًّا، وَبَدَأَ يَخُوضُ مَعَارِكَ تَوْحِيدِ الْبِلاَدِ، مُنْتَقِلاً مِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ، وَمِنْ نَصْرٍ إِلَى نَصْرٍ، وَالنَّاسُ يَتَكَتَّفُونَ حَوْلَهُ، وَجَيْشُهُ يَزْدَادُ قُوَّةً، حَتَّى أَخْضَعَ الأَنْدَلُسَ كُلَّهَا، وَسَيْطَرَ عَلَيْهَا، وَأَعْلَنَ نَفْسَهُ خَلِيفَةً أُمَوِيًّا فِي الأَنْدَلُسِ وَبِلاَدِ الْمَغْرِبِ!!

## انْتِصَارٌ وَانْكِسَار

وَهُنَا، تَنَهَّدَ صَاحِبِي الْهُدْهُدُ، وَصَمَتَ لَحْظَةً، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ: وَهَكَذَا يَا وَلَدِي، بَدَأَتْ أَسْبَابُ الضَّعْفِ، فَقَدْ صَارَتِ الدَّوْلَةُ الإِسْلاَمِيَّةُ مُنْقَسِمَةً إِلَى قِسْمَيْنِ؛ خِلاَفَةٍ عَبَّاسِيَّةٍ فِي الْمَشْرِقِ، وَخِلاَفَةٍ أُمَوِيَّةٍ فِي الأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ، وَلَمْ يَقِفِ الأَمْرُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، فَقَدْ جَرَتْ بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ حُرُوبٌ طَاحِنَةٌ، انْتَصَرَ فِيهَا الشَّابُّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَظْهَرَ بُطُولَتَهُ وَفُرُوسِيَّتَهُ النَّادِرَةَ، وَحَازَ إِعْجَابَ أَعْدَائِهِ وَأَصْدِقَائِهِ عَلَى السَّوَاءِ، لِدَرَجَةِ أَنَّ أَعْدَاءَهُ هُمُ الَّذِينَ أَطْلَقُوا عَلَيْهِ اسْمَ (صَقْرِ قُرَيْشٍ).

عِنْدَمَا سَمِعْتُ اسْمَ (صَقْرِ قُرَيْشٍ) انْتَفَضْتُ مِنْ مَكَانِي وَاقِفًا، وَقُلْتُ لِلْهُدْهُدِ: أَلَيْسَ هَذَا هُوَ صَقْرُ قُرَيْشٍ الْبَطَلَ الْمَشْهُورَ؟! أَنَا أَسْمَعُ اسْمَهُ كَثِيرًا.

قَالَ الْهُدْهُدُ: نَعَمْ، إِنَّهُ هُوَ.

قُلْتُ لَهُ مُنْدَهِشًا: إِذَا كَانَ هُوَ الْبَطَلَ الْمَشْهُورَ، وَهُوَ حَاكِمُ الأَنْدَلُسِ، فَلِمَاذَا

سَقَطَتِ الأَنْدَلُسُ، وَكَيْفَ انْتَصَرَ الصَّلِيبِيُّونَ عَلَيْهِ، وَقَضَوْا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَالْعَرَبَ هُنَاكَ؟!

تَنَهَّدَ الْهُدْهُدُ بِحُزْنٍ وَقَالَ: لِمَ يَحْدُثُ هَذَا فِي زَمَنِ الْبَطَلِ صَقْرِ قُرَيْشٍ، بَلْ كَانَ بَعْدَهُ بِقُرُونٍ طَوِيلَةٍ، تَمَزَّقَتْ خِلَالَهَا بِلَادُ الأَنْدَلُسِ، وَتَحَوَّلَتْ كُلُّ مَدِينَةٍ مِنْ مُدُنِهَا الرَّائِعَةِ إِلَى مَمْلَكَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ يَحْكُمُهَا مَلِكٌ ضَعِيفٌ، وَصَارَتْ هَذِهِ الْمَمَالِكُ الصَّغِيرَةُ الضَّعِيفَةُ تَتَصَارَعُ فِيمَا بَيْنَهَا، وَتَسْتَعِينُ كُلٌّ مِنْهَا بِالصَّلِيبِيِّينَ الأَعْدَاءِ، لِكَيْ يَنْصُرُوهَا عَلَى أُخْتِهَا. وَالصَّلِيبِيُّونَ سُعَدَاء بِهَذَا الانْقِسَامِ، وَبِهَذِهِ الْعَدَاوَةِ، بَلْ كَانُوا يُزِيدُونَهَا اشْتِعَالاً بِالْفِتَنِ الَّتِي يَزْرَعُونَهَا بَيْنَ الأَشِقَّاءِ، وَبِالأَطْمَاعِ وَالأَحْقَادِ الَّتِي يُغَذُّونَ بِهَا نُفُوسَهُمُ الضَّعِيفَةَ، حَتَّى أَصْبَحَ الأَخُ عَدُوًّا لأَخِيهِ، والابْنُ خَصْمًا لأَبِيهِ.

كُلُّ ذَلِكَ وَالصَّلِيبِيُّونَ يَتَحَيَّنُونَ الْفُرْصَةَ الْمُنَاسِبَةَ، حَتَّى جَاءَتْهُمْ هَذِهِ الْفُرْصَةُ، وَانْقَضُّوا عَلَى الْجَمِيعِ مِثْلَ ذِئَابٍ جَائِعَةٍ، تَفْتَرِسُ قَطِيعًا مِنَ الْغَنَمِ، لَيْسَ لَهُ رَاعٍ وَلاَ حَارِسٌ!!

صَرَخْتُ بِغَيْظٍ وَحُزْنٍ: كَيْفَ يَحْدُثُ ذَلِكَ؟! كَيْفَ؟!

تَنَهَّدَ الْهُدْهُدُ، وَقَالَ لِي: هَذَا مَا حَكَاهُ جَدُّنَا هُدْهُدُ الأَنْدَلُسِ.

قُلْتُ: وَمَنْ هُدْهُدُ الأَنْدَلُسِ؟!

فَقَالَ: هُدْهُدُ الأَنْدَلُسِ هُوَ الْهُدْهُدُ الَّذِي رَأَى مِنَ الْفَظَائِعِ وَالأَهْوَالِ مَا لَمْ يَرَهُ

هُدْهُدٌ غَيْرُهُ، حَتَّى إِنَّ رِيشَهُ قَدْ شَابَ مِنْ هَوْلِ مَا رَأَى، وَاسْتَحَقَّ وَحْدَهُ، مِنْ بَيْنِ كُلِّ هَذَاهِدِ الدُّنْيَا، لَقَبَ الْهُدْهُدِ الْحَزِينِ!!

قُلْتُ بِحَسْرَةٍ: يَا إِلَهِي، إِلَى هَذَا الْحَدِّ؟!! وَلَكِنْ كَيْفَ ....

وَلَمْ أُكْمِلْ سُؤَالِي، فَقَدِ الْتَفَتَ الْهُدْهُدُ نَاظِرًا إِلَى الشَّمْسِ الْغَارِبَةِ خَلْفَ الأَشْجَارِ، وَقَاطَعَنِي بِصَوْتِهِ الضَّعِيفِ الْمُرْتَعِشِ قَائِلاً: لَمْ تَعُدْ بِي طَاقَةٌ عَلَى الْكَلَامِ يَا وَلَدِي. غَدًا، إِذَا كَتَبَ اللهُ لِيَ الْبَقَاءَ، سَأَحْكِي لَكَ كُلَّ شَيْءٍ.

وَكَمَا أَفْعَلُ كُلَّ مَسَاءٍ، حَمَلْتُ الْهُدْهُدَ بَيْنَ كَفَّيَّ، وَسْنَدْتُهُ إِلَى صَدْرِي، وَعُدْتُ بِهِ إِلَى الْبَيْتِ، فَوَضَعْتُهُ فِي قَفَصِ الْكَتَاكِيتِ، وَأَغْلَقْتُ عَلَيْهِ الْبَابَ بِإِحْكَامٍ. وَمَا هِيَ إِلاَّ لَحَظَاتٌ حَتَّى كَانَ يَغُطُّ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ!!

# حُلْمُ الْفَارِس

جَلَسْتُ عَلَى حَرْفِ السَّرِيرِ، أَنْظُرُ إِلَى الْهُدْهُدِ، حَزِينًا مُرْتَبِكًا، أُفَكِّرُ:

مَاذَا يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ لِيَ هَذَا الطَّائِرُ الْعَجِيبُ؟! حِكَايَاتُهُ جَمِيلَةٌ، وَلَكِنَّهَا مَلِيئَةٌ بِالأَحْزَانِ. وَدَائِمًا يَقُولُ لِيَ: هَذِهِ أَمَانَتُكَ!! وَدَائِمًا يَقُولُ لِيَ: اُنْظُرْ، وَتَعَلَّمْ!! مَاذَا يُرِيدُنِي أَنْ أَتَعَلَّمَ؟! وَمَاذَا يُرِيدُنِي أَنْ أَفْعَلَ...؟!!، وَدُونَ أَنْ أَدْرِي، مِلْتُ بِجَانِبِي عَلَى السَّرِيرِ، وَاضِعًا يَدِيَ تَحْتَ رَأْسِي، وَنِمْتُ.

لَمْ أَعْرِفْ مَتَى نِمْتُ، وَلاَ كَيْفَ نِمْتُ، وَلَكِنِّي نِمْتُ وَحَلُمْتُ.

وَفِي الْحُلْمِ، كَانَ حِصَانِي وَاقِفًا تَحْتَ شَجَرَةِ التُّوتِ، يَصْهَلُ غَاضِبًا، وَيَضْرِبُ الأَرْضَ بِحَوَافِرِهِ، وَيَلُفُّ، وَيَدُورُ بِالْعَرَبَةِ الْحَرْبِيَّةِ ذَاتِ الْعَجَلاَتِ، الَّتِي يَجُرُّهَا، وَأَنَا فِي غُرْفَتِي أَرْتَدِي مَلاَبِسَ الْفَارِسِ، وَأَضَعُ الْقَوْسَ عَلَى كَتِفِي، وَأَرْبِطُ جِرَابَ السِّهَامِ عَلَى ظَهْرِي. وَالْغَرِيبُ أَنَّنِي كُنْتُ هَادِئًا، لاَ خَائِفًا، وَلاَ مُتَوَتِّرًا، مَعَ أَنَّنِي ذَاهِبٌ إِلَى الْحَرْبِ، لِكَيْ أَقْضِيَ عَلَى قُطْعَانِ الذِّئَابِ، الَّتِي هَاجَمَتْ وَادِيَ النِّيلِ، وَصَارَ عُوَاؤُهَا يُقْلِقُ أَفْرَاسَ النَّهْرِ فِي مِصْرَ، وَهَذَا مَا أَكَّدَهُ لِيَ الْحِصَانُ عِنْدَمَا أَدْخَلَ رَقَبَتَهُ مِنَ الشُّبَّاكِ، وَقَالَ لِي: هَيَا يَا (أَحْمُسُ)[1]، فَلَمْ يَعُدْ لَدَيْنَا وَقْتٌ، لَقَدْ هَاجَمَتْنَا الذِّئَابُ.

وَعِنْدَمَا نَظَرْتُ إِلَى الْهُدْهُدِ مُتَسَائِلاً عَنْ هَذَا الاسْمِ الْجَدِيدِ، هَزَّ رَأْسَهُ مُؤَكِّدًا،

(١) أَحْمُسُ بَطَلٌ مِصْرِيٌّ قَدِيمٌ، حَرَّرَ مِصْرَ مِنَ (الهُكْسُوسِ) الَّذِينَ احْتَلُّوهَا، وَظَلَمُوا أَهْلَهَا لأَكْثَرَ مِنْ مِئَةِ عَامٍ.

وَقَالَ: نَعَمْ، أَحْمُسُ الْبَطَلُ، هُوَ أَحْمَدُ الأَمِينُ. ثُمَّ طَارَ مِنْ فَوْقِ قَفَصِ الْكَتَاكِيتِ خَارِجًا مِنَ الشُّبَّاكِ، وَهُوَ يَأْمُرُنِي بِحَمَاسَةٍ: هَيَّا يَا أَحْمُسُ الأَمِينُ، هَيَّا اتْبَعْنِي. فَرَفَعْتُ ذِرَاعَيَّ عَالِيًا، وَانْدَفَعْتُ مَائِلاً إِلَى الأَمَامِ، كَمَنْ يَقْفِزُ فِي الْمَاءِ، فَرَفَعَنِيَ الْهَوَاءُ، وَطِرْتُ خَلْفَ الْهُدْهُدِ عَبْرَ الشُّبَّاكِ، فَإِذَا بِالْحِصَانِ أَمَامَنَا يَجْرِي بِأَقْصَى سُرْعَتِهِ مُتَّجِهًا إِلَى النِّيلِ، لَحِقْتُ بِهِ، وَهَبَطْتُ مِنَ الْهَوَاءِ، نَازِلاً بِرِجْلَيَّ عَلَى الْعَرَبَةِ، وَأَمْسَكْتُ بِاللِّجَامِ، وَأَخَذْتُ أَشُدُّهُ بِكُلِّ قُوَّتِي لِكَيْ أُوقِفَ انْدِفَاعَ الْحِصَانِ، قَبْلَ أَنْ يَسْقُطَ بِنَا فِي مَاءِ النِّيلِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَجِبْ، بَلِ ازْدَادَ انْدِفَاعُهُ، مَعَ صَيْحَةِ الْهُدْهُدِ: (إِلَى الأَمَامِ)، وَإِذَا بِهِ يَجْرِي فَوْقَ مَوْجِ النِّيلِ الَّذِي صَارَ، فَجْأَةً، مُتَصَلِّبًا مِثْلَ الزُّجَاجِ، وَصَارَتِ الْعَجَلاَتُ تَصْطَكُّ بِهِ، وَتُصْدِرُ شَرَرًا شَدِيدًا، وَالْعَرَبَةُ تَرْتَجُّ بِنَا ارْتِجَاجًا عَنِيفًا، بَيْنَمَا عُواءُ الذِّئَابِ يَتَعَالَى كُلَّمَا اقْتَرَبْنَا مِنَ الشَّاطِئِ الآخَرِ، حَتَّى صِرْنَا فِي مُوَاجَهَةِ قَطِيعِ الذِّئَابِ الْهَائِلِ، فَهَتَفَ الْهُدْهُدُ: جَهِّزْ سِهَامَكَ، وَاضْرِبْ يَا أَمِينُ.

وَعَلَى الْفَوْرِ، صَوَّبْتُ أَوَّلَ سِهَامِي إِلَى الذِّئْبِ الْكَبِيرِ، فَاخْتَرَقَ رَقَبَتَهُ، فَخَرَّ صَرِيعًا، فَصَوَّبْتُ سَهْمًا ثَانِيًا، فَاخْتَرَقَ رَقَبَةَ ذِئْبٍ آخَرَ، فَصَوَّبْتُ ثَالِثًا، فَرَابِعًا، فَخَامِسًا. وَعِنْدَئِذٍ، تَرَاجَعَتِ الذِّئَابُ أَمَامَنَا، تَجْرِي هَارِبَةً، وَأَنَا خَلْفَهَا أُصَوِّبُ، وَأُصِيبُ، وَالْهُدْهُدُ يَهْتِفُ: الله أَكْبَرُ.. الله أَكْبَرُ.

وَفَجْأَةً، تَوَقَّفَ أَحَدُ الذِّئَابِ عَنِ الْجَرْيِ، وَاسْتَدَارَ لِيُوَاجِهَنِي. وَقَبْلَ أَنْ أَضَعَ السَّهْمَ فِي الْقَوْسِ، قَفَزَ إِلَيَّ الذِّئْبُ لِيُهَاجِمَنِي بِأَنْيَابِهِ، فَمَا كَانَ مِنِّي إِلاَّ أَنْ غَرَسْتُ السَّهْمَ فِي رَقَبَتِهِ، وَلَكِنَّهُ، فِي اللَّحْظَةِ نَفْسِهَا، كَانَ قَدْ تَمَكَّنَ مِنْ يَدِي، فَأَطْبَقَ عَلَيْهَا

بِأَعْيَابِهِ الْقَوِيَّةِ. صَرَخْتُ مِنْ شِدَّةِ الأَلَمِ، وَلَمْ أَتَمالكْ نَفْسِي، فَتَرَنَّحْتُ، وَسَقَطْتُ مِنْ فَوْقِ الْعَرَبَةِ، وَأَنَا لاَ أَسْتَطِيعُ تَحْرِيكَ يَدِي، وَبَيْنَمَا أَنَا أُحَاوِلُ جَاهِدًا أَنْ أُفْلِتَ مِنْ أَنْيَابِهِ، صَحَوْتُ مِنَ النَّوْمِ!!

صَحَوْتُ مِنَ النَّوْمِ، لأَجِدَ نَفْسِيَ قَدْ وَقَعْتُ مِنْ فَوْقِ السَّرِيرِ مُرْتَطِمًا بِالأَرْضِ، وَلاَ أَسْتَطِيعُ تَحْرِيكَ يَدِي الَّتِي كُنْتُ نَائِمًا عَلَيْهَا طَوَالَ اللَّيْلِ!!

فَتَحْتُ عَيْنَيَّ عَلَى صَوْتِ الْهُدْهُدِ وَهُوَ يَقُولُ بِقَلَقٍ شَدِيدٍ: سَلَّمَكَ الله يَا وَلَدِي.. سَلَّمَكَ الله . وَاسْتَكْمَلْتُ إِفَاقَتِي مَعَ نَقْرَاتِ الْعُصْفُورَةِ عَلَى زُجَاجِ الشُّبَّاكِ، فَنَهَضْتُ وَاقِفًا، وَلَكِنَّنِي لَمْ أَسْتَطِعْ فَتْحَ الشُّبَّاكِ لَهَا، فَقَدْ كَانَ آلاَفُ النَّمْلِ يَجْرُونَ فِي يَدِي!!

# الْهُدْهُدُ الْحَزِيْن

عَلَى شَاطِئِ النِّيلِ، ظَلَلْتُ صَامِتًا، وَأَنَا أُقَلِّبُ التُّرْبَةَ أَمَامَ الْهُدْهُدِ، وَظَلَّ هُوَ أَيْضًا يَأْكُلُ فِي صَمْتٍ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيَّ بِقَلَقٍ وَأَنَا أُدَلِّكُ يَدِي، وَلَكِنِّي طَمْأَنْتُهُ بِأَنَّ النَّمْلَ كُلَّهُ قَدْ ذَهَبَ عَنْ يَدِي، ثُمَّ رَفَعْتُهُ فَأَجْلَسْتُهُ عَلَى الْغُصْنِ، وَحَتَّى لاَ يَسْأَلَنِي عَنِ الْحُلْمِ، بَادَرْتُهُ قَائِلاً: وَالآنَ، إِلَى حِكَايَةِ جَدِّكَ الْهُدْهُدِ الْحَزِينِ.

اِعْتَدَلَ صَاحِبِي الْهُدْهُدُ فِي جِلْسَتِهِ، وَابْتَسَمَ لِيَ ابْتِسَامَةً ذَاتَ مَعْنًى، وَقَالَ: أَلَيْسَ جَدَّكَ أَنْتَ أَيْضًا؟

قُلْتُ: بَلَى، إِنَّهُ جَدِّي.

فَقَالَ: الْغَرِيبُ الْعَجِيبُ فِي أَمْرِ جَدِّنَا الْهُدْهُدِ الْحَزِينِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فِي بِدَايَةِ حَيَاتِهِ، بَلْ كَانَ هُدْهُدًا مَرِحًا ضَحُوكًا، لاَ تَبْدُو عَلَيْهِ عَلاَمَاتُ الْجِدِّيَّةِ، لِدَرَجَةِ أَنَّ وَالِدَهُ، لَمْ يَكُنْ يَشْعُرُ تِجَاهَهُ بِالثِّقَةِ الْكَامِلَةِ،

بَل كَانَ يَرَاهُ هُدْهُدًا شَابًّا طَائِشًا، يُحِبُّ اللَّهْوَ وَاللَّعِبَ، وَلَيْسَ جَادًّا فِي الْبَحْثِ عَنِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، فَهُوَ يَقْضِي مُعْظَمَ وَقْتِهِ فِي حَدَائِقِ الشَّامِ وَبَسَاتِينِهَا، وَعِنْدَ عُيُونِ الْمَاءِ الْجَارِيَةِ، حَيْثُ تَتَجَمَّعُ الطُّيُورُ، مِنْ كُلِّ جِنْسٍ وَلَوْنٍ، تَلْهُو وَتُغَرِّدُ!!

وَبِالطَّبْعِ، لَمْ يَكُنِ الأَبُ يَكْرَهُ الْغِنَاءَ، فَهُوَ نَفْسُهُ كَثِيرًا مَا كَانَ يُغَنِّي، رَغْمَ أَنَّ صَوْتَهُ لَمْ يَكُنْ جَمِيلاً، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ اللَّهْوُ وَالْغِنَاءُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ، وَخُصُوصًا فِي حَيَاةِ هُدْهُدٍ عَلَيْهِ وَاجِبَاتٌ كَبِيرَةٌ، وَلِذَلِكَ كَانَ شَدِيدًا عَلَيْهِ وَهُوَ يُوصِيهِ وَيَأْخُذُ عَلَيْهِ الْعَهْدَ.

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الابْنَ الشَّابَّ كَانَ قَدْ بَلَغَ فِعْلاً سِنَّ الْعَقْلِ، وَبَدَأَ شُعُورُهُ بِالْوَاجِبِ يَنْمُو دَاخِلَهُ، وَخَاصَّةً فِي الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ، وَهُوَ يَسْمَعُ الأَخْبَارَ الَّتِي تَتَنَاقَلُهَا الطُّيُورُ الْمُهَاجِرَةُ عَنِ الأَنْدَلُسِ، وَعَنِ الْمَذَابِحِ الَّتِي يَتَعَرَّضُ لَهَا الْعَرَبُ وَالْمُسْلِمُونَ هُنَاكَ.

وَعِنْدَمَا مَاتَ الْهُدْهُدُ الأَبُ كَانَ هَذَا الابْنُ الشَّابُّ مُسْتَعِدًّا تَمَامًا لِتَوَلِّي الْمَسْؤُولِيَّةِ، وَبَعْدَ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ فَقَطْ، كَانَ قَدْ تَرَكَ الشَّامَ، وَطَارَ إِلَى الأَنْدَلُسِ، تَنْفِيذًا لِوَصِيَّةِ وَالِدِهِ.

## كَفُّ الْعِفْرِيتِ

مِنَ اللَّحْظَةِ الأُولَى لِوُصُولِهِ، أَدْرَكَ الْهُدْهُدُ الشَّابُّ حَجْمَ الْمَسْؤُولِيَّاتِ الثَّقِيلَةِ الَّتِي يُوَاجِهُهَا، فَالأَنْدَلُسُ لَمْ تَعُدِ الْحُلْمَ الْجَمِيلَ كَمَا كَانَ يَصِفُهَا أَجْدَادُهُ، بَلْ

أَصْبَحَتْ بِلاَدًا عَلَى كَفِّ عِفْرِيتٍ مِنْ تِلْكَ الْعَفَارِيتِ الْجَبَّارَةِ الَّتِي حَكَى عَنْهَا جَدُّهُ الأَوَّلُ هُدْهُدُ سُلَيْمَانَ، وَالَّتِي كَانَتْ تُثِيرُ الزَّوَابِعَ وَالأَعَاصِيرَ فَتَخْلَعُ الشَّجَرَ، وَتُغْرِقُ الْمَرَاكِبَ، وَتُشْعِلُ النَّارَ فِي الْغَابَاتِ!!

وَلَكِنَّ هَذِهِ الْعَفَارِيتَ مَحْبُوسَةٌ وَمُقَيَّدَةٌ بِالسَّلاَسِلِ مُنْذُ أَيَّامِ سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ، وَبِأَمْرٍ مِنْهُ!! فَمَنِ الَّذِي أَشَاعَ فِي الأَنْدَلُسِ كُلَّ هَذِهِ الْقَلاَقِلِ وَالْفِتَنِ وَالْمُؤَامَرَاتِ؟! هَذَا هُوَ السُّؤَالُ الَّذِي كَانَ الْهُدْهُدُ الشَّابُّ يَبْحَثُ لَهُ عَنْ إِجَابَةٍ.

وَجَاءَتْهُ الإِجَابَةُ وَاضِحَةً فِي أَوَّلِ يَوْمٍ لَهُ فِي الأَنْدَلُسِ، وَمِنْ شُبَّاكِ أَوَّلِ قَصْرٍ مَلَكِيٍّ يَحُطُّ عَلَيْهِ، حَيْثُ كَانَ الْمَلِكُ الصَّلِيبِيُّ (فِرْدِينَانْد) وَزَوْجَتُهُ الْمَلِكَةُ الصَّلِيبِيَّةُ (إِيزَابِيلا)، فِي أَوَّلِ يَوْمٍ لِزَوَاجِهِمَا، وَكَانَ هَذَا مَا دَارَ بَيْنَهُمَا:

- عَزِيزَتِي إِيزَابِيلا، أَخِيرًا صِرْنَا زَوْجَيْنِ، وَتَوَحَّدَتْ مَمْلَكَتَانَا، وَصَارَتَا مَمْلَكَةً وَاحِدَةً قَوِيَّةً، تَسْتَطِيعُ الْقَضَاءَ عَلَى الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ!!

فَتَبْتَسِمُ إِيزَابِيلا بِخُبْثٍ، وَتَقُولُ:

- وَلَكِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مُعَاهَدَاتُ سَلاَمٍ، يَا عَزِيزِي فِرْدِينَانْد، وَأَنْتَ مَعْرُوفٌ بِالصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟!!

فَيُقَهْقِهُ فِرْدِينَانْد، وَيَقُولُ:

- الصِّدْقُ وَالْوَفَاءُ!! أَضْحَكْتِنِي يَا إِيزَابِيلا.. أَضْحَكْتِنِي!! وَلَكِنْ دَعِينِي أَقُلْ لَكِ الْحَقِيقَةَ يَا عَزِيزَتِي، أَنَا لَسْتُ صَادِقًا وَلاَ وَفِيًّا إِلاَّ مَعَكِ أَنْتِ، أَمَّا هَؤُلاَءِ الْعَرَبُ

وَالْمُسْلِمُونَ فَهُمْ خَوَنَةٌ كَذَّابُونَ، لاَ يَسْتَحِقُّونَ مِنِّي إِلاَّ هَذَا السَّيْفَ، أُمَزِّقُ بِهِ أَجْسَادَهُمْ وَأَجْسَادَ نِسَائِهِمْ وَأَطْفَالِهِمْ!!

- حَتَّى فِي هَذَا أَنْتَ كَاذِبٌ يَا فِرْدِينَانْد، أَنْتَ لَسْتَ وَفِيًّا لِي، وَلاَ لِشَعْبِكَ، وَلاَ لأَيِّ أَحَدٍ، أَنْتَ وَفِيٌّ فَقَطْ لأَطْمَاعِكَ وَطُمُوحَاتِكَ!!

- إِيزَابِيلا، مَاذَا تَقُولِينَ!!

- لاَ تَغْضَبْ مِنْ صَرَاحَتِي يَا فِرْدِينَانْد.

- وَلَكِنْ، لِمَاذَا سَعَيْتَ لِلزَّوَاجِ بِي إِذَنْ، إِذَا كُنْتِ تَرَيْنَنِي بِهَذَا السُّوءِ؟!

- لاَ تَخْفْ يَا عَزِيزِي، فَأَنَا وَأَنْتَ نَتَّفِقُ فِي أَهَمِّ هَدَفٍ فِي حَيَاةِ كُلٍّ مِنَّا؛ فَأَنْتَ تُرِيدُ لِنَفْسِكَ مُلْكَ إِسْبَانْيَا كُلِّهَا، وَأَنَا أُرِيدُ تَطْهِيرَهَا مِنْ هَؤُلاءِ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَلَنْ يَتَحَقَّقَ هَدَفُكَ، إِلاَّ إِذَا تَحَقَّقَ هَدَفِي. وَلِهَذَا تَزَوَّجْتُكَ يَا عَزِيزِي فِرْدِينَانْد، وَأَعْطَيْتُكَ مَمْلَكَتِي (قَشْتَالَةَ الْعُظْمَى) الَّتِي وَرِثْتُهَا عَنْ أَجْدَادِي، لِتَتَّحِدَ مَعَ مَمْلَكَتِكَ (أَرَاجُون)، وَتُصْبِحُ الْمَمْلَكَتَانِ مَعًا، قُوَّةً وَاحِدَةً عَظِيمَةً، تَقُودُهَا أَنْتَ

لِتَحْرِيرِ إِسْبَانْيَا مِنَ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ. وَأَرْجُوكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ هَذَا دَائِمًا، فَهَذَا هُوَ الْحِلْفُ الْمُقَدَّسُ بَيْنَنَا؛ لَكَ مُلْكُ إِسْبَانْيَا، وَلِيَ الْقَضَاءُ عَلَى هُؤُلاءِ الْمُسْلِمِينَ؛ عَلَى لُغَتِهِمْ وَدِينِهِمْ وَثَقَافَتِهِمْ، وَعَادَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ، وَوُجُودِهِمْ كُلِّه!!

- كُنْتُ أَظُنُّ.. كُنْتُ أَظُنُّ..

- كُنْتَ تَظُنُّ مَاذَا؟!

- كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّكَ تُحِبُّنِي، وَأَنَّ زَوَاجَكَ مِنِّي لَمْ يَكُنْ مِنْ أَجْلِ الْمَصْلَحَةِ فَقَطْ!!

- دَعْكَ مِنْ هَذَا الْهُرَاءِ أَيُّهَا الْمُمَثِّلُ الْبَارِعُ، أُرِيدُكَ أَنْ تَسْتَخْدِمَ هَذِهِ الْبَرَاعَةَ التَّمْثِيلِيَّةَ فِي خِدَاعِ ضَيْفِكَ الْقَادِمِ، فَبَعْدَ قَلِيلٍ سَيَأْتِي إِلَيْنَا أَوَّلُ الْعَرَبِ الْخَوَنَةِ الْكَذَّابِينَ، إِنَّهُ الأَمِيرُ الْمُنَافِقُ (بُوعَبْدِالله)، الثَّائِرُ عَلَى عَمِّهِ، مَلِكِ غِرْنَاطَةَ، (مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدِ بْنِ الأَحْمَرِ). وَهَذِهِ فُرْصَتُنَا؛ فَبُوعَبْدِ الله يَكْرَهُ عَمَّهُ، وَيُرِيدُ الْقَضَاءَ عَلَيْهِ، لأَنَّهُ اغْتَصَبَ مِنْهُ الْمُلْكَ،



obeikandl.com

وَالْعَمُّ يَكْرَهُ ابْنَ أَخِيهِ، وَيُرِيدُ الْقَضَاءَ عَلَيْهِ، لأَنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّهُ أَحَقُّ مِنْهُ بِهَذَا الْمُلْكِ. أَمَّا نَحْنُ فَنَكْرَهُهُمَا مَعًا، وَنُرِيدُ الْقَضَاءَ عَلَيْهِمَا مَعًا، وَذَلِكَ بِأَنْ نَزِيدَ الْفِتْنَةَ وَالْعَدَاوَةَ بَيْنَهُمَا، وَأَنْ نُقْنِعَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِأَنَّهُ صَدِيقُنَا الْوَحِيدُ الَّذِي سَنَتَحَالَفُ مَعَهُ مِنْ أَجْلِ الْقَضَاءِ عَلَى الآخَرِ!!

- أَنْتِ دَاهِيَةٌ يَا إِيزَابِيل!!

- وَأَنْتَ نَذْلٌ يَا عَزِيزِي فِرْدِينَانْد، وَلَوْلاَ وُجُودُكَ مَعِي لَمَا كُنْتُ أَسْتَطِيعُ التَّفْكِيرَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ الْمَاكِرَةِ، وَإِلاَّ فَمَنْ سَيُنَفِّذُ، وَمَنْ سَيَتَعَهَّدُ لِكُلٍّ مِنْهُمَا، وَيُعْطِيهِ مَا يَشَاءُ مِنَ الْوُعُودِ، ثُمَّ يَتَخَلَّى عَنْهُ بِكُلِّ خِسَّةٍ وَنَذَالَةٍ. مَنْ يَسْتَطِيعُ عَمَلَ ذَلِكَ مِثْلَكَ أَنْتَ يَا عَزِيزِي!!

كَانَ الْهُدْهُدُ وَاقِفًا عَلَى الشُّبَّاكِ يَنْتَفِضُ غَيْظًا مَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ يَسْمَعُهَا، وَلَكِنَّهُ عَرَفَ الآنَ الْعِفْرِيتَ الَّذِي يَحْمِلُ الأَنْدَلُسَ عَلَى كَفِّهِ، وَيَتَلاَعَبُ بِهَا، كَمَا تَتَلاَعَبُ الْعَاصِفَةُ بِسَفِينَةٍ كُسِرَتْ دَفَّتُهَا، وَتَمَزَّقَتْ أَشْرِعَتُهَا.

# رَائِحَةُ الْخِيَانَة

كَانَ الْهُدْهُدُ يُفَكِّرُ أَنَّ هَذِهِ مُجَرَّدُ مُؤَامَرَةٍ تَافِهَةٍ وَحِيلَةٍ سَاذَجَةٍ، لاَ يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ فِيهَا عَاقِلٌ، فَكَيْفَ بِمَلِكٍ مُسْلِمٍ يَعْرِفُ الدِّيْنَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّارِيْخَ؟!!

وَلَكِنْ، مَا هِيَ إِلاَّ دَقَائِق حَتَّى رَأَى الْهُدْهُدُ مَا يُثْبِتُ لَهُ أَنَّهُ هُوَ السَّاذَجُ، فَقَدْ دَخَلَ الأَمِيرُ (بُوعَبْدِالله)، وَانْحَنَى لِمَلِكِ الصَّلِيبِيِّينَ وَهُوَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَخَذَ يُبَالِغُ فِي التَّوَدُّدِ إِلَيْهِ، وَإِظْهَارِ الْمَحَبَّةِ وَالْوَلاَءِ لَهُ، وَيَرْجُوهُ أَنْ يَقِفَ مَعَهُ فِي قِتَالِهِ ضِدَّ عَدُوِّهِمَا الْمُشْتَرَكِ؛ عَمِّهِ (مُحَمَّد بْنِ سَعْد بْنِ الأَحْمَرِ) مَلِكِ غَرْنَاطَةَ، وَيُؤَكِّدُ لَهُ أَنَّ عَمَّهُ هَذَا خَبِيثٌ، يُخَطِّطُ لاسْتِرْدَادِ الأَنْدَلُسِ كُلِّهَا، لِكَيْ يَكُونَ مَلِكًا وَحِيدًا عَلَيْهَا!!

وَلَمْ يَبْذُلْ فِرْدِينَانْد جَهْدًا كَبِيرًا، لِكَيْ يَجْعَلَ (بُو عَبدِالله) يَتَنَازَلَ لَهُ عَنْ ثَلاَثِينَ قَلْعَةً إِسْلاَمِيَّةً حَصِينَةً، تُحِيطُ بِمَمْلَكَةِ غَرْنَاطَةَ، بِحُجَّةِ أَنَّهُ سَيَضَعُ فِيهَا جُنُودَ الأَقْوِيَاءَ، لِكَيْ يَقْطَعَ الطَّرِيقَ عَلَى جَيْشِ عَمِّهِ إِذَا جَاءَ يُهَاجِمُهُ، مُتَعَهِّدًا لَهُ بِأَنْ يَرُدَّهَا إِلَيْهِ عِنْدَمَا يَطْلُبُهَا مِنْهُ!!

كَانَ الْهُدْهُدُ وَاقِفًا عَلَى الشُّبَّاكِ، يَكَادُ يَنْفَجِرُ غَيْظًا وَحُزْنًا، وَهُوَ يُتَابِعُ هَذَا الْمَشْهَدَ الْمُخْزِيَ؛ (بُوعَبْدِالله) جَالِسٌ مَعَ فِرْدِينَانْد، يَرْسُمُ الْخُطَّةَ، الَّتِي سَيَقْضِي بِهَا عَلَى عَمِّهِ، وَالَّتِي تَبْدَأُ بِتَسْلِيمِ الْقِلاَعِ لِفِرْدِينَانْد سِرًّا، وَخُصُوصًا

الْقِلاَعَ الَّتِي تَفْتَحُ أَبْوَابَ غَرْنَاطَةَ أَمَامَ مَنْ يُرِيدُ غَزْوَهَا، وَيَلِي ذَلِكَ أَنْ يُعْلِنَ (بُو عَبْدِالله) أَنَّهُ قَدْ تَصَالَحَ مَعَ النَّصَارَى، وَأَنَّهُ حَصَلَ مِنْهُمْ عَلَى عَهْدٍ بِالْعَفْوِ وَالأَمَانِ، لِكُلِّ مُسْلِمِي غِرْنَاطَةَ، إِذَا هُمْ بَايَعُوهُ، وَأَعَانُوهُ عَلَى خَلْعِ عَمِّهِ، وَاسْتِرْدَادِ مُلْكِ أَبِيهِ!!

وَتَنْجَحُ الْخُطَّةُ الْخَبِيثَةُ، وَيَتَجَمَّعُ حَوْلَهُ الأَعْوَانُ، فَيَقْتَحِمُ غِرْنَاطَةَ، وَيُسَيْطِرُ عَلَيْهَا، وَيُعْلِنُ نَفْسَهُ مَلِكًا عَلَيْهَا!!

وَمِنَ الشُّبَّاكِ، رَأَى الْهُدْهُدُ بِعَيْنِهِ، وَسَمِعَ بِأُذُنِهِ قَهْقَهَاتِ فِرْدِينَانْد وَإِيزَابيلا، وَهُمَا يَضْحَكَانِ سَاخِرَيْنِ مِنْ خَيْبَةِ بَنِي الأَحْمَرِ، وَمُنْتَشِيَيْنِ بِهَذَا النَّجَاحِ، الَّذِي قَرَّبَهُمَا كَثِيرًا مِنْ هَدَفِهِمَا النِّهَائِيِّ؛ فَقَدْ تَمَّ التَّخَلُّصُ مِنَ الْعَمِّ الْقَوِيِّ، وَلَمْ يَبْقَ أَمَامَهُمَا إِلاَّ هَذَا الضَّعِيفُ (بُوعَبْدِ الله) لِكَي يَتَمَكَّنُوا مِنَ الْقَضَاءِ نِهَائِيًّا عَلَى الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ فِي بِلادِ الأَنْدَلُسِ!!

عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، لَمْ يَتَمَالَكِ الْهُدْهُدُ نَفْسَهُ، فَتَقَيَّأَ مَا فِي بَطْنِهِ، وَانْهَارَ عَلَى الأَرْضِ فِي مَكَانِهِ يَرْتَجِفُ، وَيُجْهِشُ بِالْبُكَاءِ، وَهُوَ يُرَدِّدُ: لُطْفَكَ يَا رَبِّ ... رَحْمَتَكَ يَا رَبِّ ... لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِالله.

# رِحْلَةٌ إِلَى الْجَنَّة

حَتَّى هَذِهِ اللَّحْظَةِ، لَمْ يَكُنِ الْهُدْهُدُ قَدْ رَأَى غَرْنَاطَةَ بِعَيْنِهِ، فَقَدْ كَانَ طَوَالَ الْوَقْتِ يُتَابِعُ الْمُؤَامَرَةَ الَّتِي تُحَاكُ فِي قَصْرِ فِرْدِينَانْد وَإِيزَابِيلا فِي مَمْلَكَةِ أَرَاجُون. وَلِذَا، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُ أَوْ يَتَخَيَّلُ مَا رَآهُ!! لِدَرَجَةِ أَنَّهُ عِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى أَسْوَارِ غِرْنَاطَةَ، تَسَمَّرَ فِي مَكَانِهِ مَشْدُوهًا مَسْحُورًا مِنْ رَوْعَةِ مَا رَآهُ، وَلَمْ يَتَمَالَكْ نَفْسَهُ فَخَرَّ سَاجِدًا للهِ، وَهُوَ يَقُولُ: تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالإِكْرَام، هَذِهِ جَنَّةُ اللهِ فِي الأَرْضِ.

وَقَدْ كَانَ مُحِقًّا تَمَامًا، فَغَرْنَاطَةُ فِي هَذَا الزَّمَانِ كَانَتْ أَجْمَلَ مَكَانٍ عَلَى الأَرْضِ. فَسَلاَطِينُ بَنِي الأَحْمَرِ الْمُتَعَاقِبِينَ عَلَيْهَا لَمْ يَتْرُكُوا مَكَانًا فِيهَا إِلاَّ حَوَّلُوهُ إِلَى حَدِيقَةٍ، وَلَمْ يَتْرُكُوا شَجَرَةً، تَنْبُتُ فِي أَيِّ مَكَانٍ فِي الدُّنْيَا، إِلاَّ وَجَلَبُوهَا، وَغَرَسُوهَا فِي حَدَائِقِ بِلاَدِهِمْ، حَتَّى صَارَتْ غَرْنَاطَةُ كُلُّهَا بُسْتَانًا بَدِيعًا مِنَ الأَشْجَارِ وَالْوُرُودِ وَالْخُضْرَةِ، تَتَخَلَّلُهَا الْمَنَازِلُ، وَالْمَسَاجِدُ، وَالْمَدَارِسُ، وَالْمُسْتَشْفَيَاتُ، وَالْمَكْتَبَاتُ، وَالْجَامِعَاتُ، حَتَّى صَارَتْ قِبْلَةَ الزَّائِرِينَ وَطُلاَّبِ الْعِلْمِ، مِنْ كَافَّةِ أَرْجَاءِ الدُّنْيَا.

وَكَانَ أَكْثَرَ مَا بَهَرَ الْهُدْهُدَ (قَصْرُ الْحَمْرَاءِ)، الَّذِي بَنَاهُ أَوَّلُ سَلاَطِينِ بَنِي الأَحْمَرِ عَلَى تَلَّةٍ خَضْرَاءَ، تُشْرِفُ عَلَى بِلاَدِهِ مِنْ كُلِّ الأَرْجَاءِ، لِكَيْ يَجْعَلَهُ رَمْزًا لِمَمْلَكَتِهِ، وَمَرْكَزًا لِحُكْمِهِ، وَلِذَا أَرَادَهُ أَنْ يَكُونَ بِهَذِهِ الرَّوْعَةِ، وَقَدْ كَانَ بِالْفِعْلِ آيَةً مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي الْجَمَالِ، تَجَلَّتْ فِيهِ مَوَاهِبُ الْفَنَّانِ الْمُسْلِمِ، كَأَبْدَعِ مَا تَكُونُ، فِي فَنِّ الْعِمَارَةِ وَالْبِنَاءِ وَالزَّخْرَفَةِ، وَالْخُطُوطِ، وَتَصْمِيمِ النَّوَافِيرِ وَالْمَسَاقِي، وَتَنْسِيقِ الْحَدَائِقِ وَالْبَسَاتِينِ، حَتَّى إِنَّ الدَّاخِلَ إِلَيْهِ يَمْلأُهُ الإِحْسَاسُ بِأَنَّ هَذَا الْمَكَانَ،

بِرَوْعَتِهِ وَاكْتِمَالِهِ، يَكْفِيهِ وَيُغْنِيهِ عَنِ الدُّنْيَا كُلِّهَا!!

هَذَا مَا كَانَ يَشْعُرُ بِهِ الْهُدْهُدُ، وَهُوَ يَتَنَقَّلُ فِي قَصْرِ الْحَمْرَاءِ، مِنْ رُكْنٍ إِلَى رُكْنٍ، وَمِنْ شَجَرَةٍ إِلَى شَجَرَةٍ، وَمِنْ نَافُورَةٍ إِلَى نَافُورَةٍ، مَبْهُورًا بِكُلِّ نَقْشٍ وَبِكُلِّ تَصْمِيمٍ. وَكَانَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ مُتَعَجِّبًا: كَيْفَ يَجْتَمِعُ كُلُّ هَذَا الْجَمَالِ وَالْفَنِّ وَالذَّوْقِ الرَّفِيعِ وَكُلُّ تِلْكَ الْخِسَّةِ وَالْخِيَانَةِ فِي قُلُوبِ رِجَالِ أُسْرَةٍ وَاحِدَةٍ؟!

وَكَانَ يُفَكِّرُ: يَبْدُو أَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يُعَوِّضُوا بِهَذَا الْجَمَالِ الشَّامِخِ عَنْ ضَعْفِهِمُ الذَّلِيلِ أَمَامَ الأَعْدَاءِ، وَلَكِنَّهُمْ نَسُوا أَنَّ هَذَا الْجَمَالَ لَنْ يَظَلَّ شَامِخًا بِدُونِ الْقُوَّةِ الَّتِي تَحْمِيهِ عِنْدَمَا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ يَدُ الطَّامِعِينَ.

# الذِّئابُ تَتَرَبَّص

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ ابْنَ الأَحْمَرِ، مُؤَسِّسَ الْمَمْلَكَةِ، لَمْ يَكُنْ يَجْهَلُ خَطَرَ أَعْدَائِهِ الدَّائِمَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُرِدْ لِهَذَا الْخَطَرِ أَنْ يَمْنَعَ غَرْنَاطَةَ مِنَ التَّقَدُّمِ وَالازْدِهَارِ وَالإِبْدَاعِ. وَلِذَا، فَقَدْ اسْتَخْدَمَ كُلَّ مَا لَدَيْهِ مِنْ مَكْرٍ وَخِدَاعٍ وَمُنَاوَرَةٍ، لِكَي يَنْأَى بِنَفْسِهِ عَنْ كُلِّ الصِّرَاعَاتِ، حَتَّى اسْتَطَاعَ أَنْ يُحَافِظَ عَلَى مَمْلَكَتِهِ، وَأَنْ يَصْرِفَ كُلَّ جَهْدِهِ فِي الْعُمْرَانِ، وَرِعَايَةِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَالْمَعَارِفِ. وَعِنْدَمَا مَاتَ، كَانَتْ غَرْنَاطَةُ فِي أَوْجِ مَجْدِهَا، حَتَّى إِنَّهَا كَانَتْ تُعَدُّ أَعْظَمَ مُدُنِ الْعَالَمِ حَضَارَةً، وَأَكْثَرَهَا ثَرَاءً.

وَلَكِنَّ عَيْنَ الطَّامِعِينَ لَمْ تَنَمْ عَنْ هَذِهِ الْجَنَّةِ، الَّتِي أَخَذَ الضَّعْفُ وَالْوَهَنُ يَدُبُّ فِي جَسَدِهَا الْجَمِيلِ، بَعْدَ مَوْتِ مُؤَسِّسِهَا ابْنِ الأَحْمَرِ، وَمَا تَوَالَى بَعْدَهُ مِنْ فِتَنٍ وَمُؤَامَرَاتٍ وَصِرَاعَاتٍ، نَشَبَتْ بَيْنَ أَبْنَائِهِ وَأَحْفَادِهِ، حَتَّى جَاءَتِ اللَّحْظَةُ الَّتِي يَتَرَقَّبُهَا الصَّلِيبِيُّونَ، بَعْدَ أَنْ

obeikandl.com

حَـدَثَ مَا حَدَثَ، وَتَوَلَّـى الْمُلْك (بُوعَبْدِالله) الْخَائِنُ لِبِلاَدِهِ، الَّذِي كَانُوا يُسَـمُّونَهُ (بُوعَبْدِالله الصَّغِير)!! وَالْحَقُّ أَنَّهُ كَانَ اسْـمًا عَلَى مُسَـمًّى، فَهُوَ لَمْ يَكْبُرْ أَبَدًا لِيَصِيرَ رَجُلاً كَالرِّجَالِ، بَلْ ظَلَّ، وَهُوَ مَلِكٌ، خَاضِعًا لأُمِّهِ (عَائِشَـةَ) الْمُتَسَـلِّطَةِ، تَمَامًا كَمَا كَـانَ خَاضِعًا لَهَا وَهُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ.

وَكَثِيرًا مَا رَآهَا الْهُدْهُدُ، وَهِيَ تَجْلِسُ مَكَانَهُ عَلَى كُرْسِيِّ الْعَرْشِ، تُؤَنِّبُهُ وَتُوَبِّخُهُ عَـلَى أَقَلِّ قَرَارٍ يَتَّخِذُهُ دُونَ إِذْنٍ مِنْهَا، حَتَّى لَوْ كَانَ هَذَا الْقَرَارُ يَمَسُّ حَيَاتَهُ الشَّخْصِيَّةَ.

أَمَّـا هُـوَ فَقَدْ كَانَ يَقِفُ أَمَامَهَا مُطَأْطِئَ الرَّأْسِ، مُرْتَبِـكًا يَتَلَعْثَمُ مِثْلَ طِفْلٍ خَائِبٍ خَائِفٍ، يُقِرُّ بِذَنْبِـهِ، وَيَنْتَظِرُ الْعِقَابَ!!

وَلِـذَا فَفِـي عَصْـرِ هَذَا الْمَلِكِ (الصَّغِيـرِ)، وَقَعَتِ الْكَارِثَـةُ الَّتِـي كَانَ الْهُدْهُدُ يُتَابِـعُ خُيُوطَهَـا، وَيَتَرَقَّـبُ حُدُوثَهَـا مُنْـذُ زَمَـنٍ، فَهُـوَ يَعْـرِفُ أَنَّ عَيْـنَ فِرْدِينَانْـد وَإِيزَابِيـلا لَـمْ تَنَمْ، بَـلْ هِيَ سَـاهِرَةٌ تَتَرَقَّـبُ اللَّحْظَـةَ

الْمُنَاسِبَةَ وَهَلْ هُنَاكَ لَحْظَةٌ أَنْسَبُ مِنْ هَذِهِ لِكَيْ يَنْقَضَّ الذِّئْبُ عَلَى الْحَمَلِ!!

وَهَذَا بِالضَّبْطِ مَا تَيَقَّنَ مِنْهُ الْهُدْهُدُ، وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى الشُّبَّاكِ فِي هَذَا الصَّبَاحِ، يَسْمَعُ حِوَارًا خَطِيرًا بَيْنَ إِيزَابِيلا وَفِرْدِينَانْد:

- هَذِهِ فُرْصَتُنَا يَا عَزِيزِي لِكَيْ نَنْتَهِيَ مِنْ أَمْرِ غَرْنَاطَةَ، مَمْلَكَةِ الْمُسْلِمِينَ الْوَحِيدَةِ الْبَاقِيَةِ فِي بِلادِنَا، أَعْنِي الشَّوْكَةَ الْوَحِيدَةَ فِي مَمْلَكَتِنَا.
- أَتَظُنِّينَ ذَلِكَ؟
- نَعَمْ؛ فَنَحْنُ سَنُهَاجِمُ مَمْلَكَةً تَحْكُمُهَا (عَائِشَةُ) الَّتِي لاَ تُجِيدُ سِوَى السَّيْطَرَةِ عَلَى وَلَدِهَا وَعَلَى خَدَمِ الْقَصْرِ وَجَوَارِيهِ.
- وَلَكِن بُوعَبْدِ الله لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا لِيُبَرِّرَ لَنَا الْهُجُومَ عَلَيْهِ.
- وَهَلْ سَنَنْتَظِرُ الْمُبَرِّرَ، أَيُّهَا الذِّئْبُ الْعَجُوزُ، يَبْدُو أَنَّ يَدَكَ قَدْ صَارَتْ تَرْتَعِشُ، وَلاَ تَقْوَى عَلَى حَمْلِ السَّيْفِ!!
- لاَ لَيْسَ هَذَا وَلَكِنْ...
- سَأُعْطِيكَ أَنَا الْمُبَرِّرَ الْقَوِيَّ؛ سَنَتَّهِمُه بِأَنَّهُ يُؤْوِي كُلَّ الْمُسْلِمِينَ الْفَارِّينَ مِنَ الْمَمَالِكِ الَّتِي اسْتَوْلَيْنَا عَلَيْهَا، وَبَيْنَ هَؤُلاءِ إِرْهَابِيُّونَ، ارْتَكَبُوا جَرَائِمَ بِحَقِّ الْمَسِيحِيِّينَ!!
- مِنَ الصَّعْبِ أَنْ نُثْبِتَ عَلَيْهِ هَذِهِ التُّهْمَةَ، وَرَغْمَ ذَلِكَ فَسَوْفَ يُسَلِّمُنَا مَنْ نُرِيدُ لِكَيْ يُرْضِينَا، فَمَاذَا سَنَفْعَلُ بِهِمْ؟!

- نَعَمْ يَاعَزِيزِي، أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْخَانِعَ الذَّلِيلَ سَيَخْضَعُ لِكُلِّ أَوَامِرِنَا، وَلَنْ يُعْطِيَنَا الْمُبَرِّرَ بِيَدِهِ أَبَدًا.

- فَمَاذَا نَفْعَلُ إِذَنْ!!

- نَفْتَعِلُ نَحْنُ هَذَا الْمُبَرِّرَ، وَلْيَكُنْ شِجَارًا بَيْنَ مَسِيحِيِّينَ وَمُسْلِمِينَ، يَتَحَوَّلُ إِلَى فِتْنَةٍ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ، تَفْرِضُ عَلَيْنَا التَّدَخُّلَ لِحِمَايَةِ إِخْوَانِنَا.

- أَنْتِ تَعْلَمِينَ أَنَّهُ يُعَامِلُ الْمَسِيحِيِّينَ أَحْسَنَ مُعَامَلَةٍ، بَلْ أَحْيَانًا يَضَعُهُمْ فَوْقَ الْمُسْلِمِينَ إِرْضَاءً لَنَا.

- لَا تَشْغَلْ بَالَكَ يَا عَزِيزِي، جَهِّزْ أَنْتَ قُوَّاتِكَ، وَاتْرُكْ لِي أَنَا مَسْأَلَةَ الْمُبَرِّرَاتِ، فَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ سَتَجِدُ نَفْسَكَ مُضْطَرًّا لِلْهُجُومِ عَلَى مَمْلَكَةِ غَرْنَاطَةَ، وَإِلَّا فَسَتَكُونُ خَائِنًا لِلرَّبِّ وَلِلْكَنِيسَةِ، وَلِشَعْبِكَ!!

وَيُقَهْقِهُ الذِّئْبُ وَهُوَ يَقُولُ: يَا لَكِ مِنْ شَيْطَانَةٍ! كُنْتُ فَقَطْ أُدَاعِبُكِ، وَأَخْتَبِرُ ذَكَاءَكِ. أَنَا جَاهِزٌ يَاعَزِيزَتِي، وَلَوْ أَمَرْتِنِي أَنْ أُهَاجِمَهُمُ الآنَ دُونِ أَيِّ مُبَرِّرٍ فَسَوْفَ أَفْعَلُ، وَلَكِنَّ حِيلَتَكِ أَجْمَلُ!!

# الذِّئابُ تَنْقَضّ

وَكَانَ الذِّئْبُ صَادِقًا فِي كَلاَمِهِ، وَكَانَتِ الذِّئْبَةُ مَاهِرَةً فِي حِيلَتِهَا، فَقَدْ أَعَدَّتِ الْخُطَّةَ، وَدَسَّتْ جَوَاسِيسَهَا، وَلَمْ تَمْضِ أَيَّامٌ حَتَّى تَشَاجَرَ مُسْلِمٌ مَعَ مَسِيحِيٍّ فِي السُّوقِ، وَهُمَا يَتَسَاوَمَانِ عَلَى ثَمَنِ دَجَاجَةٍ يَبِيعُهَا الْمُسْلِمُ لِلْمَسِيحِيِّ، أَوِ الْمَسِيحِيُّ لِلْمُسْلِمِ، فَسَبَّ الْمَسِيحِيُّ الْمُسْلِمَ، أَوْ سَبَّ الْمُسْلِمُ الْمَسِيحِيَّ، فَضَرَبَ الْمُسْلِمُ الْمَسِيحِيَّ، أَوْ ضَرَبَ الْمَسِيحِيُّ الْمُسْلِمَ!! إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ التَّفَاصِيلِ الَّتِي لاَ قِيمَةَ لَهَا فِي الظُّرُوفِ الْعَادِيَّةِ، وَلَكِنْ فِي هَذِهِ الظُّرُوفِ، سُرْعَانَ مَا تَحَوَّلَتِ الْمُشَاجَرَةُ التَّافِهَةُ، بَيْنَ شَخْصَيْنِ، إِلَى فِتْنَةٍ بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ، رُفِعَتْ فِيهَا السُّيُوفُ، وَسَالَتِ الدِّمَاءُ، وَتَضَخَّمَ الأَمْرُ مِنْ جِدَالٍ عَلَى ثَمَنِ دَجَاجَةٍ حَتَّى صَارَ صِرَاعًا بَيْنَ دِينَيْنِ سَمَاوِيَّيْنِ، وَاشْتَعَلَتْ نَارُ الْفِتْنَةِ، وَعَمَّتِ الْفَوْضَى أَرْجَاءَ مَمْلَكَةِ غَرْنَاطَةَ!!

وَلَمْ يَكَدْ (بُو عَبْدِ الله الصَّغِيرُ) يَنْهَضُ مِنَ السَّرِيرِ، وَيَسْتَأْذِنُ أُمَّهُ فِي ارْتِدَاءِ عَبَاءَتِهِ وَسِرْوَالِهِ الْحَرِيرِ، حَتَّى كَانَتْ قُوَّاتُ الذِّئْبِ الْمَسْعُورِ، تَقْتَحِمُ جَنَّةَ

اللهِ عَلَى الأَرْضِ، فَتَقْتُلُ وَتَحْرِقُ وَتُدَمِّرُ، بِكُلِّ مَا تَمْلِكُ مِنْ هَمَجِيَّةٍ وَحِقْدٍ، وَحُبٍّ لِلدِّمَاءِ وَالْخَرَابِ!!

اِسْتَبْسَلَ الْمُسْلِمُونَ، وَاسْتَمَاتُوا فِي الدِّفَاعِ عَنْ مَدِينَتِهِمْ، وَقَدَّمُوا أَرْوَعَ الأَمْثِلَةِ فِي الشَّجَاعَةِ وَالْفِدَاءِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَصْمُدُوا طَوِيلاً، فَقَدْ أَخَذَتْهُمُ الْمُفَاجَأَةُ، وَهُمْ بِدُونِ قِيَادَةٍ أَوْ تَجْهِيزٍ أَوِ اسْتِعْدَادٍ، بَلْ هُمْ فِي الْحَقِيقَةِ كَانُوا يُوَاجِهُونَ الْحَدِيدَ وَالنَّارَ بِلَحْمِهِمُ الْعَارِي. وَرَغْمَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانُوا مُسْتَعِدِّينَ لِلاسْتِمْرَارِ فِي التَّضْحِيَةِ وَالْمُقَاوَمَةِ، وَلَكِنَّ حَاكِمَهُمُ الصَّغِيرَ الْخَائِنَ الْتَفَّ مِنْ خَلْفِ ظُهُورِهِمْ، وَمَضَى تَحْتَ جُنْحِ الظَّلاَمِ، يُجْرِي مُفَاوَضَاتٍ سِرِّيَّةٍ مَعَ فِرْدِينَانْد!!

وَفِي الْمُفَاوَضَاتِ السِّرِّيَّةِ، عَرَضَ بُوعَبْدِ اللهِ عَلَى فِرْدِينَانْد التَّنَازُلَ عَنْ مَمْلَكَةِ غَرْنَاطَةَ، فِي مُقَابِلِ أَنْ يَتَعَهَّدَ الذِّئْبُ فِرْدِينَانْد بِحِمَايَةِ الْمُسْلِمِينَ وَصِيَانَةِ حُقُوقِهِمْ!!!

## عَهْدُ الذِّئَاب

وَبِالطَّبْعِ لَمْ يَكُنْ لَدَى الذِّئْبِ أَيُّ مَانِعٍ مِنَ التَّعَهُّدِ، بَلْ إِنَّهَا فُرْصَتُهُ الذَّهَبِيَّةُ، أَنْ يُقْسِمَ، وَيَعِدَ بِحِمَايَةِ الْحَمَلِ، وَبِصِيَانَةِ حُقُوقِهِ، وَيَتَعَهَّدَ بِكُلِّ مَا يُهَدِّئُ مَخَاوِفَهُ، حَتَّى يَتَمَكَّنَ مِنْهُ، وَيَلْتَهِمَهُ فِي هُدُوءٍ!!

وَهَكَذَا، فَتَحَ الرَّاعِي الْخَائِنُ (بُوعَبْدِالله الصَّغِيرُ) أَبْوَابَ غَرْنَاطَةَ لِلذِّئْبِ الْجَائِعِ

فِرْدِينَانْـد، الَّذِي جَلَسَ عَلَى عَرْشِ بَنِي الأَحْمَرِ فِي قَصْرِ الْحَمْرَاءِ، مِثْلَ الطَّاوُوسِ مَزْهُـوًّا بِانْتِصَـارِهِ، وَوَقَفَ أَمَامَهُ بُوعَبْدِالله مَهْزُومًا ذَلِيلاً، يَتَلَقَّى أَوَامِرَهُ بِأَنْ يُسَـلِّمَ إِلَيْـهِ مَفَاتِيـحَ الْمَدِينَـةِ، وَيَرْحَـلَ، وَأَنَّ عَلَى كُلِّ مُسْـلِمٍ فِي غِرْنَاطَةَ، وَفِـي الأَنْدَلُسِ كُلِّهَا، الاخْتِيَارَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ؛ إِمَّا الْبَقَاءَ آمِنًا فِى غِرْنَاطَةَ بِشَرْطِ الْوَلاَءِ وَالطَّاعَةِ لِمَلِكِهَا الصَّلِيبِيِّ، وَإِمَّا الرَّحِيلَ عَنِ الْبِلاَدِ خِلاَلَ مُهْلَةٍ مُدَّتُهَا شَهْرَانِ، يَبِيعُ فِيهَا مُمْتَلَكَاتِهِ!!

سَـلَّمَ بُوعَبْدِالله مَفَاتِيحَ الْمَدِينَةِ، وَأَذْعَنَ لأَوَامِـرِ فِرْدِينَانْد، وَخَضَعَ لَهُ صَاغِرًا. وَبِالرَّغْـمِ مِنْ ذَلِكَ، لَمْ يَصْبِرِ الذِّئْبُ الْمُتَعَطِّشُ لِلدِّمَاءِ حَتَّى يَمْضِيَ الشَّـهْرَانِ، فَـذَا بِهِ يَنْقُضُ كُلَّ وُعُودِهِ وَتَعَهُّدَاتِهِ، وَيَأْمُرُ بِإِجْبَارِ مَنْ بَقِيَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الأَنْدَلُسِ،

عَلَى تَرْكِ الإِسْلَامِ، وَالدُّخُولِ فِي الْمَسِيحِيَّةِ، وَإِلاَّ تَعَرَّضَ لأَشَدِّ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ، وَأَبْشَعِ أَسَالِيبِ الْقَتْلِ وَالتَّنْكِيلِ!!

## أغَانِي الْوَدَاع

فِي هَذِهِ الأَيَّامِ الْعَصِيبَةِ، لَمْ يَنَمِ الْهُدْهُدُ لَحْظَةً وَاحِدَةً فِي اللَّيْلِ أَوْ فِي النَّهَارِ، فَقَدْ كَانَ لاَ يَكُفُّ عَنِ الطَّيَرَانِ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ فِي غرْنَاطَةَ، وَالتَّنَقُّلِ بَيْنَ بُيُوتِهَا، لِيُتَابِعَ أَحْزَانَ النَّاسِ وَهُمْ يُوَدِّعُونَ بُيُوتَهُمْ وَوَطَنَهُمْ وَحَيَاتَهُمْ، وَيَجْمَعُونَ مَلاَبِسَهُمْ وَطُيُورَهُمْ وَأَوَانِيَهِمْ، يُلَمْلِمُونَ أَحْلاَمَهُمْ وَذِكْرَيَاتِهِمْ، وَيُمْعِنُونَ النَّظَرَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَكَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَحْفَظُوا صُورَتَهُ فِي قُلُوبِهِمْ. وَكَمْ تَمَنَّى بَعْضُهُمْ لَوْ يَسْتَطِيعُ حَمْلَ بَيْتِهِ مَعَهُ، وَلَكِنْ حَتَّى لَوِ اسْتَطَاعَ، فَكَيْفَ سَيَحْمِلُ بُيُوتَ الْجِيرَانِ وَالأَحْبَابِ!!

أَمَّا عَائِشَةُ الْمُتَسَلِّطَةُ، فَآخِرُ مَا سَمِعَهُ مِنْهَا الْهُدْهُدُ الْحَزِينُ، كَانَ أَيْضًا تَوْبِيخًا وَتَأْنِيبًا لابْنِهَا، وَهِيَ خَارِجَةٌ مَعَهُ لِلْمَرَّةِ الأَخِيرَةِ مِنْ قَصْرِ الْحَمْرَاءِ.

كَانَ بُوعَبْدِاللهِ قَدِ الْتَفَتَ، وَهُوَ يَبْتَعِدُ عَنْ قَصْرِ آبَائِهِ، لِيُلْقِيَ عَلَيْهِ نَظْرَةَ الْوَدَاعِ الأَخِيرَةِ. وَلَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ، فَبَكَى بِشِدَّةٍ، حَتَّى سَالَتْ دُمُوعُهُ مِنْ أَنْفِهِ، فَقَالَتْ لَهُ بِقَسْوَةٍ وَجَفَاءٍ: أَنْتَ الآنَ تَبْكِي مُلْكَكَ مِثْلَ النِّسَاءِ؛ لأَنَّكَ لَمْ تَحْفَظْهُ مِثْلَ الرِّجَالِ.

وَلِلْمَرَّةِ الأُولَى يَرُدُّ عَلَيْهَا ابْنُهَا بِحِدَّةٍ، وَهُوَ يَبْكِي، وَيَقُولُ: بَلْ أَنْتِ مَنْ ضَيَّعَ هَذَا

الْمُلْكَ، وَضَيَّعَنِي، عِنْدَمَا جَعَلْتِنِي دُمْيَةً تَافِهَةً فِي يَدِكِ. سَامَحَكِ اللهُ، سَامَحَكِ اللهُ.

ذُهِلَتْ عَائِشَةُ، وَانْعَقَدَ لِسَانُهَا، وَكَأَنَّهَا فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، اكْتَشَفَتِ الْحَقِيقَةَ، كَمَا اكْتَشَفَهَا الابْنُ الْبَاكِي، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ ضَاعَ كُلُّ شَيْءٍ.

سَقَطَتْ آخِرُ الْمُدُنِ، وَأَجْمَلُ الْمُدُنِ، وَبِسُقُوطِهَا تَكُونُ الأَنْدَلُسُ كُلُّهَا قَدْ ضَاعَتْ، بَعْدَ ثَمَانِ مِئَةِ سَنَةٍ مِنَ الْحَضَارَةِ وَالْفِكْرِ وَالْجَمَالِ وَالإِبْدَاعِ، عَاشَ فِيهَا كُلُّ النَّاسِ، مِنْ أَتْبَاعِ كُلِّ الدِّيَانَاتِ، أَزْهَى عُصُورِ الأُخُوَّةِ وَالتَّسَامُحِ وَالْمَحَبَّةِ وَالسَّلَامِ، عَلَّمَتْ خِلَالَهَا الْعَالَمَ كُلَّهُ كَيْفَ يَبْنِي، وَكَيْفَ يُفَكِّرُ، وَكَيْفَ يُبْدِعُ، وَمِنْهَا انْطَلَقَتْ أُورُبَّا فِي بِنَاءِ نَهْضَتِهَا وَحَضَارَتِهَا الْحَدِيثَةِ.

# الرَّحِيْل

سَقَطَتْ غِرْنَاطَةُ، وَخِلاَلَ أَشْهُرٍ قَلِيلَةٍ نَزَحَ أَكْثَرُ مِنْ مِلْيَوْنِ مُسْلِمٍ؛ هَرَبًا بِدِينِهِمْ، وَفِرَارًا مِنَ الْمَوْتِ، وَتَدَافَعُوا يَعْبُرُونَ الْبَحْرَ مِنْ عِنْدِ الْجَبَلِ الَّذِي صَارَ اسْمُهُ جَبَلَ طَارِقٍ، بِمَرَاكِبَ صَغِيرَةٍ ضَعِيفَةٍ، تَزَاحَمُوا فِيهَا، وَحَمَّلُوهَا بِأَكْثَرَ مِمَّا تَحْتَمِلُ، فَغَرِقَ الْكَثِيرُ مِنْهَا، وَابْتَلَعَتْهَا الأَمْوَاجُ، إِنَّهَا الأَمْوَاجُ نَفْسُهَا الَّتِي عَبَرَتْ فَوْقَهَا مَرَاكِبُ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ وَهِيَ تُبْحِرُ أَوَّلَ مَرَّةٍ لِتَفْتَحَ الأَنْدَلُسَ!!

كَانَ جَدُّنَا الهُدْهُدُ الحَزِينُ يَرْقُبُ أَفْوَاجَ النَّازِحِينَ، وَهُوَ يَبْكِي، وَيَقُولُ لِنَفْسِهِ: الأَجْدَادُ الْفَاتِحُونَ أَحْرَقُوا الْمَرَاكِبَ، حَتَّى يَمْنَعُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الفِرَارِ، وَلَكِنَّ هَؤُلاَءِ الأَحْفَادَ اخْتَارُوا الْفِرَارَ، فَلَمْ يَجِدُوا عِنْدَ الشَّاطِئِ غَيْرَ مَرَاكِبِ أَجْدَادِهِمْ الْمُحْتَرِقَةِ!!

وَالْغَرِيبُ الْعَجِيبُ، بَعْدَ كُلِّ هَذَا الْمَوْتِ وَالْعَذَابِ، أَنَّ الْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ كَانُوا يَحْمِلُونَ مَعَهُمْ مَفَاتِيحَ بُيُوتِهِمْ؛ لأَنَّهُمْ كَانُوا يَشْعُرُونَ شُعُورًا أَكِيدًا أَنَّهُمْ سَيَعُودُونَ إِلَيْهَا يَوْمًا مَا. وَالأَغْرَبُ أَنَّ هَذَا الشُّعُورَ قَدْ تَوَارَثَتْهُ الأَجْيَالُ، جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ، لِدَرَجَةِ أَنَّنِي رَأَيْتُ بِعَيْنَيَّ بَعْضَ هَذِهِ الْمَفَاتِيحِ لاَ يَزَالُ مَحْفُوظًا، بَيْنَ أَعَزِّ الأَشْيَاءِ، عِنْدَ أَحْفَادِهِمْ فِي بِلاَدِ الْمَغْرِبِ، حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا!!

قُلْتُ لِصَاحِبِي الْهُدْهُدِ: وَلَمْ يَبْقَ أَيُّ عَرَبِيٍّ أَوْ مُسْلِمٍ فِي الأَنْدَلُسِ؟

فَتَنَهَّدَ، وَقَالَ بِحُزْنٍ: هُنَاكَ كَثِيرُونَ رَفَضُوا الرَّحِيلَ، وَتَشَبَّثُوا بِالْبَقَاءِ فِي وَطَنِهِمْ، وَلَكِنَّ هَؤُلاَءِ كَانَ نَصِيبُهُمْ أَسْوَأَ، فَقَدْ ذَاقُوا أَلْوَانًا مِنَ الْمَوْتِ وَالْعَذَابِ، تَفَنَّنَ الذِّئَابُ فِي بَشَاعَتِهَا، لِدَرَجَةِ أَنَّ الْهُدْهُدَ الْحَزِينَ لَمْ يَكُنْ يَحْتَمِلُ مُجَرَّدَ وَصْفِهَا، وَكَانَ كُلَّمَا تَذَكَّرَهَا أَجْهَشَ بِالْبُكَاءِ، وَانْهَمَرَتْ دُمُوعُهُ، وَارْتَجَّ جَسَدُهُ، وَهُوَ يُرَدِّدُ: لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِالله، وَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بَشَرًا وَالله كَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بَشَرًا، وَإِلاَّ فَكَيْفَ تَحَمَّلَتْ قُلُوبُهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ بِبَشَرٍ مِثْلِهِمْ، فَحَتَّى الْحَيَوَانَاتُ الْمُفْتَرِسَةُ، تَتَوَقَّفُ عَنْ عَمَلِ ذَلِكَ عِنْدَمَا تَشْبَعُ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَشْبَعُونَ!!

## السَّقْطَة

عِنْدَئِذٍ، لَمْ أَتَمَالَكْ نَفْسِي مِنَ الْحُزْنِ وَالْبُكَاءِ، وَلَمْ يَتَمَالَكِ الْهُدْهُدُ نَفْسَهُ فَأَخَذَ يَبْكِي بِشِدَّةٍ، وَجِسْمُهُ يَنْتَفِضُ، وَيَرْتَجُّ، لِدَرَجَةِ أَنَّهُ تَرَنَّحَ، وَسَقَطَ مِنْ فَوْقِ غُصْنِ شَجَرَةِ التُّوتِ، مُرْتَطِمًا بِالأَرْضِ!!

انْحَنَيْتُ عَلَيْهِ مَفْزُوعًا، وَحَمَلْتُهُ عَلَى صَدْرِي. وَأَخَذَ هُوَ يُطَمْئِنُنِي، وَيَقُولُ بِصَوْتِهِ الْعَطُوفِ: لاَ تَخَفْ يَا وَلَدِي، لاَ تَخَفْ، أَنَا بِخَيْرٍ، أَنَا بِخَيْرٍ.

قُلْتُ لَهُ بِخَوْفٍ وَلَهْفَةٍ: هَلْ أَصَابَكَ مَكْرُوهٌ؟ هَلْ تَشْعُرُ بِالأَلَمِ؟

اِبْتَسَمَ الْهُدْهُدُ ابْتِسَامَةً خَفِيفَةً مِنْ وَرَاءِ الدُّمُوعِ، وَقَالَ: لاَ، لاَ شَيْءَ، وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّ حِكَايَةَ جَدِّي عَنْ سُقُوطِ الأَنْدَلُسِ أَصَابَتْنِي بِالْوَهَنِ وَالْحُزْنِ، وَأَسْقَطَتْنِي!!

قُلْتُ لَهُ: وَأَنَا أَيْضًا أَصَابَتْنِي بِالْحُزْنِ وَالْيَأْسِ.

فَتَبَدَّلَ الْهُدْهُدُ فَجْأَةً، ورَفَعَ جَنَاحَهُ السَّلِيمَ فِي وَجْهِي مُحْتَجًّا، وَقَالَ بِلَهْجَةٍ حَادَّةٍ، أَرْبَكَتْنِي:

(لاَ، لاَ تَقُلِ الْيَأْسَ، هُنَاكَ فَرْقٌ كَبِيرٌ لاَ بُدَّ أَنْ تَعْرِفَهُ جَيِّدًا، فَالْحُزْنُ صِفَةٌ نَبِيلَةٌ، تَجِدُهَا فِي كُلِّ مَنْ لَهُ قَلْبٌ يَشْعُرُ وَيُحِبُّ وَيَعْطِفُ، وَلاَ يَرْضَى بِالظُّلْمِ، أَمَّا الْيَأْسُ، وَالْعِيَاذُ بِالله، فَهُوَ صِفَةٌ مَذْمُومَةٌ، لاَ تَكُونُ إِلاَّ فِي قَلْبٍ أَعْمَى، لاَ يَعْرِفُ رَبَّهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ، وَلاَ يَعْرِفُ تَارِيخَ أَجْدَادِهِ، وَأَنْتَ إِنْسَانٌ طَاهِرٌ نَقِيٌّ، وَتَارِيخُ أَجْدَادِكَ يَا وَلَدِي فِيهِ سُقُوطٌ وَهَزَائِمُ، وَفِيهِ أَيْضًا أَمْجَادٌ وَانْتِصَارَاتٌ تُفْرِحُ الْقَلْبَ الْحَزِينَ.

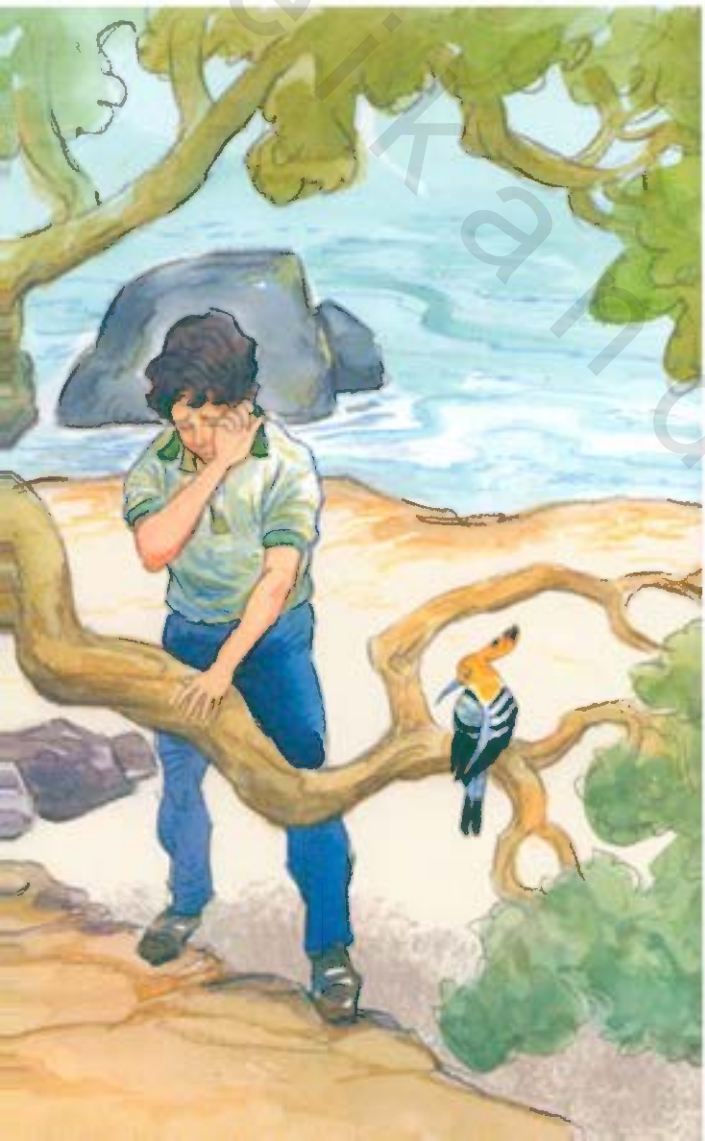

أَخَذَتْنِي الرَّهْبَةُ مِنْ كَلاَمِ الْهُدْهُدِ، وَعَاوَدَتْنِي مَوْجَةُ الْبُكَاءِ، فَقُلْتُ لَهُ: وَلَكِنَّنِي حَزِينٌ وَخَائِفٌ!!

orelkalam.com

أَشْفَقَ عَلَيَّ الْهُدْهُدُ، وَقَالَ بِصَوْتٍ عَطُوفٍ: سَامِحْنِي يَا وَلَدِي، يَبْدُو أَنَّنِي أَثْقَلْتُ عَلَيْكَ، وَحَمَّلْتُ طُفُولَتَكَ فَوْقَ مَا تَحْتَمِلُ اُعْذُرْنِي يَا وَلَدِي، فَالأَمَانَةُ ثَقِيلَةٌ عَلَيَّ، وَقَدْ شَاءَتْ حِكْمَةُ الله أَنْ تَكُونَ أَنْتَ الَّذِي يَرِثُهَا، وَيَحْمِلُهَا عَنِّي، وَأَنَا لاَ أَحْكِي لَكَ كُلَّ شَيْءٍ؛ لأَنَّ الْوَقْتَ ضَيِّقٌ، وَعُمْرِي قَصِيرٌ قَصِيرٌ. وَلِذَا فَأَنَا أَخْتَصِرُ، وَأَتْرُكُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً، وَأَخْتَارُ لَكَ الْحِكَايَاتِ الَّتِي تَحْمِلُ دُرُوسًا مُهِمَّةً، أُرِيدُكَ أَنْ تَتَعَلَّمَهَا، وَيَتَعَلَّمَهَا مِنْكَ كُلُّ النَّاسِ. وَلِلأَسَفِ، هَذِهِ الْحِكَايَاتُ الْمُهِمَّةُ فِيهَا أَحْزَانٌ ثَقِيلَةٌ؛ لأَنَّهَا مِثْلُ الدَّوَاءِ الْمُرِّ، وَلَكِنِّي أَعِدُكَ أَنْ أَحْكِيَ لَكَ غَدًا مَا يُفْرِحُ قَلْبَكَ.

نَظَرْتُ إِلَى الشَّمْسِ، فَوَجَدْتُهَا لاَ زَالَتْ عَالِيَةً فِي السَّمَاءِ. وَفَهِمَ الْهُدْهُدُ مَا أُفَكِّرُ فِيهِ، فَابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً ضَعِيفَةً شَاحِبَةً، وَقَالَ لِي: مَعَكَ حَقٌّ، الشَّمْسُ لاَ زَالَتْ تُضِيءُ وَلَكِنِّي لَمْ تَعُدْ بِي طَاقَةٌ عَلَى الْكَلاَمِ. خُذْنِي إِلَى الْبَيْتِ، وَادْعُ الله لِي أَنْ يَمُدَّ فِي عُمُرِي حَتَّى أَحْكِيَ لَكَ حِكَايَةَ جَدِّي (الْهُدْهُدِ الْمُتَفَائِلِ) الَّذِي مَاتَ وَهُوَ يَبْتَسِمُ!!

## الْعُصْفُورَةُ وَالْهُدْهُد

كُنْتُ لاَ أَزَالُ أَشْعُرُ بِالْقَلَقِ عَلَى الْهُدْهُدِ، بَعْدَ هَذِهِ السَّقْطَةِ، وَأَنَا أَحْمِلُهُ عَلَى صَدْرِي، وَأَشْعُرُ بِضَعْفِهِ، وَبِاضْطِرَابِ تَنَفُّسِهِ. وَفِي الْمَسَافَةِ الْقَصِيرَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ إِلَى الْبَيْتِ، كَانَ الْهُدْهُدُ عَلَى صَدْرِي صَامِتًا، بَيْنَمَا الْعُصْفُورَةُ تَتَقَافَزُ حَوْلَنَا، وَتُزَقْزِقُ بِعَصَبِيَّةٍ أَكْثَرَ مِنَ الْمُعْتَادِ، وَبِلاَ تَوَقُّفٍ، حَتَّى دَخَلْنَا الْبَيْتَ، وَهِيَ عَلَى

كَتِفِي، تُوَجِّهُ زَقْزَقَتَهَا لِلْهُدْهُدِ، حَتَّى وَضَعْتُهُ دَاخِلَ الْقَفَصِ، وَأَغْلَقْتُ عَلَيْهِ الْبَابَ، فَحَطَّتْ أَمَامَهُ، وَأَدْخَلَتْ رَأْسَهَا مِنْ بَيْنِ أَعْوَادِ الْقَفَصِ، وَأَكْمَلَتْ زَقْزَقَتَهَا الْعَصَبِيَّةَ، وَهُوَ يَهُزُّ لَهَا رَأْسَهُ، وَيَقُولُ: مَعَكِ حَقٌّ، مَعَكِ حَقٌّ، سَأَفْعَلُ، سَأَفْعَلُ. ثُمَّ طَارَتْ مِنَ الشُّبَّاكِ، عَائِدَةً إِلَى الشَّجَرَةِ.

نَظَرْتُ إِلَى الْهُدْهُدِ مُنْدَهِشًا، وَسَأَلْتُهُ: مَاذَا كَانَتْ تَقُولُ لَكَ؟!

قَالَ الْهُدْهُدُ: كَانَتْ تَطْلُبُ مِنِّي أَنْ أُنَبِّهَكَ إِلَى شَيْئَيْنِ فِي غَايَةِ الأَهَمِّيَّةِ وَالْخُطُورَةِ.

سَأَلْتُهُ مُنْدَهِشًا: مَا هُمَا؟

قَالَ الْهُدْهُدُ: أَوَّلاً، تُرِيدُكَ أَنْ تَأْخُذَ حِذْرَكَ مِنَ الْعِرْسَةِ، فَقَدْ سَمِعَتْهَا وَهِيَ تَتَآمَرُ عَلَيَّ، لِكَيْ تَقْتُلَنِي!!

قُلْتُ لِلْهُدْهُدِ: نَعَمْ، تَذَكَّرْتُ الآنَ تَحْذِيرَ أُمِّي، وَلِذَلِكَ أَعْطَتْنِي هَذَا الْقَفَصَ لِكَيْ تَنَامَ فِيهِ، وَبِالْفِعْلِ أَنَا أَرَى الْعِرْسَةَ كَثِيرًا هَذِهِ الأَيَّامَ، وَهِيَ تُرَاقِبُنَا مِنْ بَعِيدٍ، وَلَكِنْ لِمَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَكَ؟!

تَنَهَّدَ الْهُدْهُدُ، وَقَالَ: هِيَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي حَتَّى لاَ أَحْكِيَ لَكَ الأَسْرَارَ!!

قُلْتُ مُنْدَهِشًا: وَلِمَاذَا لاَ تُرِيدُكَ أَنْ تَحْكِيَ لِيَ الأَسْرَارَ؟

فَقَالَ: هَذِهِ حِكَايَةٌ أُخْرَى، سَأَحْكِيهَا لَكَ إِذَا كَانَ فِي الْوَقْتِ مُتَّسَعٌ، وَلَكِنْ خُذْ حِذْرَكَ يَا وَلَدِي، وَلاَ تَغْفُلْ عَنِّي حَتَّى فِي النَّهَارِ، وَنَحْنُ عَلَى غُصْنِ الشَّجَرَةِ!!

شَعَرْتُ بِالْخَوْفِ، فَسَأَلْتُهُ: وَمَا الشَّيْءُ الثَّانِي؟!

قَالَ: الشَّيْءُ الثَّانِي هُوَ الأَهَمُّ، وَهُوَ أَنَّكَ لاَ بُدَّ أَنْ تَبْدَأَ، مِنَ الآنِ، فِي تَدْوِينِ الْحِكَايَاتِ الَّتِي حَكَيْتُهَا لَكَ، وَكِتَابَتِهَا عَلَى الْوَرَقِ، حَتَّى لاَ تَنْسَى مِنْهَا شَيْئًا، فَقَدْ كَثُرَتِ الْحِكَايَاتُ وَتَشَعَّبَتْ، وَلاَ زَالَ هُنَاكَ الْكَثِيرُ. وَذَاكِرَتُكَ لَنْ تَحْمِلَ كُلَّ هَذِهِ التَّفَاصِيلِ.

كَانَ الْهُدْهُـدُ يَقُـولُ ذَلِـكَ، وَقَدْ وَصَلَ إِلَـى قِمَّةِ التَّعَـبِ، حَتَّـى أَنَّ صَوْتَهُ كَانَ ضَعِيفًا خَافِتًا، أَكَادُ لاَ أَسْمَعُهُ. وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ شَعَرْتُ بِحَرَكَةٍ فِي الْخَارِجِ، خَلْفَ الشُّبَّاكِ، فَسَرَتْ قَشْعَرِيرَةٌ فِي بَدَنِي، وَقُمْتُ بِسُرْعَةٍ لأَرَى، فَوَجَدْتُ الْعِرْسَةَ تَجْرِي مُبْتَعِدَةً!!

أَغْلَقْـتُ الشُّـبَّاكَ بِإِحْـكَامٍ، وَعُـدْتُ إِلَى الْهُدْهُـدِ لأُكْمِلَ كَلاَمِي مَعَـهُ، وَلَكِنِّي وَجَدْتُهُ قَدْ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ وَنَامَ، رَغْمَ أَنَّ الشَّمْسَ لاَ زَالَتْ فِي السَّمَاءِ!!

## لُغَةٌ لا يَفْهَمُهَا الْكِبَار

ظَلَلْتُ وَقْتًا طَوِيلاً وَاقِفًا أَمَامَ الْقَفَصِ، أَنْظُرُ إِلَى الْهُدْهُدِ وَهُوَ نَائِمٌ بِهُدُوءٍ، بَيْنَمَا أَنَا قَلِقٌ، أُفَكِّرُ فِي كَلاَمِهِ: يَا تُرَى لِمَاذَا تُرِيدُ الْعِرْسَةَ أَنْ تَقْتُلَهُ؟!!

وَفِي هَـذِهِ اللَّحْظَةِ، اقْتَرَبَـتْ أُمِّي، وَوَقَفَتْ بِبَـابِ الْغُرْفَـةِ، وَقَالَتْ مُبْتَسِـمَةً: عُـدْتَ مُبَكِّرًا الْيَـوْمَ، أَنْـتَ وَصَدِيقُكَ، كَيْفَ حَالُـهُ الآنَ؟ أَلَمْ يَتَحَسَّنْ جَنَاحُهُ؟

وَقَبْـلَ أَنْ أَرُدَّ عَلَيْهَـا، فُوجِئْـتُ بِالْهُدْهُدِ يَفْتَحُ عَيْنَيْـهِ، وَيَقُـولُ لِي: قُـلْ لِوَالِدَتِـكَ إِنَّنِي تَحَسَّـنْتُ، وَالْحَمْدُ لله، وَبَلِّغْهَا شُكْرِي عَلَى كَرَمِهَا وَعَطْفِهَا.



obeikandl.com

اِقْتَرَبْتُ مِنَ الْهُدْهُدِ، وَقُلْتُ لَهُ هَامِسًا: مَا دُمْتَ صَاحِيًا، كَلِّمْهَا أَنْتَ، فَسَوْفَ تَسْعَدُ بِذَلِكَ.

فَابْتَسَمَ ، وَرَدَّ هَامِسًا: لَنْ تَسْمَعَنِي، وَلَنْ تَفْهَمَ كَلاَمِي.

- لِمَاذَا؟!

- أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَحِيدُ مِنَ الْبَشَرِ الَّذِي يَسْمَعُنِي وَيَفْهَمُنِي!!

- وَلَكِنَّهَا أُمِّي. أَطْيَبُ أُمٍّ فِي الدُّنْيَا.

- هَذِهِ مَشِيئَةُ اللهِ وَحِكْمَتُهُ يَا وَلَدِي، حَتَّى لاَ تَكُونَ الأَسْرَارُ مَكْشُوفَةً لِلنَّاسِ جَمِيعًا.

- لِمَاذَا؟!

- حَتَّى يُحَاسِبَ كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى عَمَلِهِ وَاخْتِيَارِهِ.

- وَلِمَاذَا لاَ يَفْهَمُكَ كُلُّ النَّاسِ؟!

- لَوْ كَانَ النَّاسُ يَفْهَمُونَ لُغَتِي، وَيَطَّلِعُونَ عَلَى الأَسْرَارِ، مَا كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مَاتَ مَسْمُومًا، وَلاَ مَاتَ طَارِقٌ مَظْلُومًا مَقْهُورًا، وَلاَ سَقَطَتِ الأَنْدَلُسُ، وَلاَ وَقَعَتْ كُلُّ هَذِهِ الْمُؤَامَرَاتُ، وَلاَ حَدَثَتْ كَوَارِثُ كَثِيرَةٌ فِي التَّارِيخِ!! سَتَتَكَلَّمُ فِي هَذَا فِيمَا بَعْدُ. لَكِنْ، أَبْلِغْ وَالِدَتَكَ، أَرْجُوكَ.

- سَأُبْلِغُهَا، وَلَكِنْ مَاذَا لَوْ.

وَقَبْلَ أَنْ أُكْمِلَ سُؤَالِي، قَاطَعَتْنِي أُمِّي، وَقَالَتْ: سَلاَمَتُكَ يَابُنَيَّ، هَلْ تُكَلِّمُ نَفْسَكَ؟!

قُلْتُ: لاَ يَا أُمِّي، أَنَا أُكَلِّمُ الْهُدْهُدَ، إِنَّهُ يَشْكُرُكِ عَلَى عَطْفِكِ وَكَرَمِكِ.

اِبْتَسَمَتْ أُمِّي وَقَالَتْ: قُلْ لِصَاحِبِكَ: لاَ شُكْرَ عَلَى وَاجِبٍ، فَهُوَ عَزِيزٌ عَلَيْنَا



obeikandl.com

جَمِيعًا، وَهَذَا أَقَلُّ مَا يَجِبُ أَنْ نُقَدِّمَهُ لِلطَّائِرِ الْحَكِيمِ، جُنْدِيِّ سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ، وَصَاحِبِ الأَسْرَارِ الْعَظِيمَةِ.

ذُهِلْتُ مِنْ كَلامِ أُمِّي، وَسَأَلْتُهَا: كَيْفَ عَرَفْتِ كُلَّ ذَلِكَ؟!!

اِبْتَسَمَتْ أُمِّي، وَهِيَ تَهُمُّ بِالانْصِرَافِ، وَتَقُولُ: هَلْ تَظُنُّ أَنَّكَ الْوَحِيدُ الَّذِي يَعْرِفُ؟! تَسَمَّرْتُ فِي مَكَانِي، وَقَدْ أَخَذَتْنِي الدَّهْشَةُ وَالْمُفَاجَأَةُ؛ فَكَيْفَ عَرَفَتْ أُمِّي كُلَّ هَذا عَنِ الْهُدْهُدِ؟ كَيْفَ عَرَفَتْ؟! هَلْ كَلَّمَهَا وَحَكَى لَهَا؟! هَلْ كَانَ يَضْحَكُ عَلَيَّ عِنْدَمَا قَالَ لِي: إِنَّنِي الْوَحِيدُ الَّذِي يُكَلِّمُهُ وَيَفْهَمُ كَلامَهُ؟! هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْهُدْهُدُ كَذَّابًا وَمُخَادِعًا؟!

اِلْتَفَتُّ إِلَى الْهُدْهُدِ غَاضِبًا، لِكَيْ أَسْأَلَهُ، لَكِنَّنِي وَجَدْتُهُ يَغطُّ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ!!

فَكَّرْتُ أَنْ أُدْخِلَ يَدَيَّ مِنْ بَيْنِ أَعْوَادِ الْقَفَصِ لأَلْكِزَهُ بِإِصْبَعِيَ فِي صَدْرِهِ، وَأُوْقِظَهُ، وَلَكِنِّي وَجَدْتُهُ ضَعِيفًا هَزِيلاً مُنْكَمِشًا عَلَى نَفْسِهِ، فَتَرَاجَعْتُ، وَتَحَوَّلَ غَضَبِي مِنْهُ إِلَى إِشْفَاقٍ عَلَيْهِ!!

اِلْتَفَتُّ بِقَلَقٍ إِلَى الشُّبَّاكِ فَوَجَدْتُهُ مُغْلَقًا، وَخَلْفَهُ فِي الْبَعِيدِ شَجَرَةُ التُّوتِ مُنْحَنِيَةً بِأَغْصَانِهَا عَلَى النِّيلِ، وَخَلْفَهَا فِي الْبَعِيدِ الْبَعِيدِ، كَانَتْ شَمْسُ الْغُرُوبِ قُرْصًا أَحْمَرَ، يَتَخَفَّى وَرَاءَ الأَشْجَارِ الْبَعِيدَةِ.

اِتَّجَهْتُ إِلَى بَابِ غُرْفَتِي فَأَغْلَقْتُهُ بِإِحْكَامٍ، وَجَلَسْتُ عَلَى مَكْتَبِي بَعْضَ الْوَقْتِ حَتَّى هَدَأْتُ، ثُمَّ أَخْرَجْتُ قَلَمِي، وَدَفْتَرِي، وَكَتَبْتُ فِي وَسَطِ السَّطْرِ: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ثُمَّ كَتَبْتُ تَحْتَهَا بِخَطٍّ كَبِيرٍ: (أَسْرَارُ الْهُدْهُدِ)، وَانْطَلَقْتُ أَكْتُبُ، مُحَاوِلاً تَسْجِيلَ كُلِّ مَا حَدَثَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْهُدْهُدِ، وَكُلِّ مَا حَكَاهُ لِي عَنْ أَجْدَادِهِ بِكُلِّ تَفَاصِيلِهِ.

obeikandl.com

# حُلْمُ الطُّوفَان

وَفِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ أَيْضًا، لَمْ أَعْرِفْ مَتَى نِمْتُ، وَلاَ كَيْفَ نِمْتُ، وَلَكِنِّي نِمْتُ، وَحَلُمْتُ.

وَفِي الْحُلْمِ، رَأَيْتُ نَفْسِي وَاقِفًا عَلَى سَطْحِ بَيْتِنَا، أَنَا وَأُمِّي وَأَبِي، وَجَدِّي وَجَدَّتِي، وَإِخْوَتِي جَمِيعًا. كُنَّا خَائِفِينَ مَرْعُوبِينَ، نَنْظُرُ إِلَى النِّيلِ وَقَدْ زَادَ مَاؤُهُ وَارْتَفَعَ، وَفَاضَ عَنْ شَاطِئَيْهِ، وَغَطَّى الأَرْضَ، وعَلاَ فَوْقَهَا، وَلاَ زَالَ يَرْتَفِعُ، وَيُغَطِّي الأَشْجَارَ، حَتَّى لَمْ يَعُدْ ظَاهِرًا مِنْهَا إِلاَّ أَغْصَانٌ قَلِيلَةٌ، تَتَزَاحَمُ عَلَيْهَا عَصَافِيرُ كَثِيرَةٌ.

وَاقْتَرَبَ الْمَاءُ مِنْ سَطْحِ الْبَيْتِ. وَفَجْأَةً، ارْتَجَّ بَيْتُنَا ذُو الْجُدْرَانِ الْحَجَرِيَّةِ الضَّخْمَةِ، مُحْدِثًا صَرِيرًا وَضَجِيجًا، وَتَكَسُّرًا شَدِيدًا، ثُمَّ انْخَلَعَ مِنْ جُذُورِهِ، وَأَخَذَ يَطْفُو عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ، وَيَنْجَرِفُ سَرِيعًا مَعَ التَّيَّارِ الْهَادِرِ!!

كَانَ الْمَنْظَرُ مَهِيبًا رَهِيبًا، فَالدُّنْيَا كُلُّهَا بَحْرٌ مُتَلاَطِمٌ، بِلا شَوَاطِئَ أَوْ حُدُودٍ، فَوْقَهُ سَمَاءٌ بِلاَ شَمْسٍ، تَجْرِي غُيُومُهَا السَّوْدَاءُ فَوْقَنَا سَرِيعَةً مُتَلاَحِقَةً، لاَ نَكَادُ نَرَاهَا.

وَفَجْأَةً، يَلْمَعُ الْبَرْقُ، وَيُولَدُ مِنْهُ طَائِرٌ أَبْيَضُ يَلُوحُ فِي الْبَعِيدِ، وَلاَ يَزَالُ الطَّائِرُ يَقْتَرِبُ وَيَقْتَرِبُ، وَالْعَاصِفَةُ تَهْدَأُ وَتَهْدَأُ، حَتَّى ظَهَرَ الطَّائِرُ وَاضِحًا، فَإِذَا هُوَ الْهُدْهُدُ بِعَبَاءَةِ جَدِّي الْبَيْضَاءِ الْهَفْهَافَةِ، وَفِي مِنْقَارِهِ حَبْلٌ طَوِيلٌ، يَرْبِطُ أَحَدَ طَرَفَيْهِ فِي حَدِيدِ شُبَّاكِي، وَيَسْحَبُ الْبَيْتَ مِنْ طَرَفِهِ الآخَرِ، فَيَنْسَابُ الْبَيْتُ فَوْقَ سَطْحِ الْمَاءِ هَادِئًا مِثْلَ مَرْكَبٍ كَبِيرٍ بِلاَ أَشْرِعَةٍ، وَلاَ يَزَالُ الْمَاءُ يَهْبِطُ وَيَهْبِطُ، حَتَّى رَسَا الْبَيْتُ عَلَى

الأَرْضِ، فَإِذَا بِنَا فِي الصَّحْرَاءِ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، وَإِذَا بَجَدِّي وَاقِفٌ يُصَلِّي بِنَا إِمَامًا، يَتْلُو بِصَوْتِهِ الخَاشِعِ الجَمِيْلِ آيَةَ الكُرْسِيِّ، وَنَحْنُ وَاقِفُونَ خَلْفَهُ حُفَاةً عَلَى الرِّمَالِ، فِي الْمَكَانِ نَفْسِهِ الَّذِي كَانَ يُصَلِّي فِيهِ طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ، وَهُوَ يَحْلُمُ بِالأَنْدَلُسِ!

وَصَحَوْتُ مِنَ الْحُلْمِ، وَأَنَا أُرَدِّدُ مِثْلَ جَدِّي، وَهُوَ يُتَمْتِمُ بَعْدَ الصَّلاَةِ: يَا عَلِيُّ، يَا عَظِيمُ، جَلَّ الْبَاقِي، سُبْحَانَكَ، سُبْحَانَ الله.

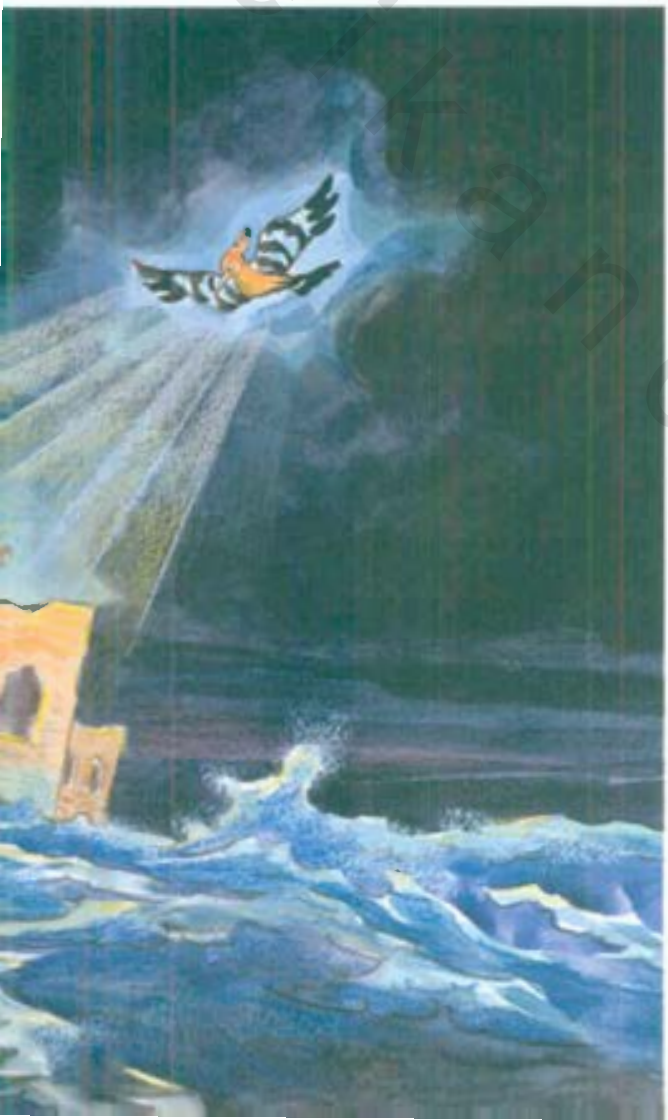

كَانَتِ الْغُرْفَةُ لا تَزَالُ غَارِقَةً فِي ظَلاَمِ اللَّيْلِ وَلَكِنَّنِي لَمْ أُعاوِدِ النَّوْمَ، وَقَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ الْعُصْفُورَةُ لِتَنْقُرَ زُجَاجَ شُبَّاكِي، كُنْتُ قَدْ فَتَحْتُ الشُّبَّاكَ، وَوَقَفْتُ أَنْظُرُ إِلَى الأُفُقِ الْبَعِيدِ، إِلَى النِّيلِ، إِلَى شَجَرَةِ التُّوتِ، وَالضَّبَابُ يَلُفُّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ حَوْلِي.

شَعَرْتُ بِرَغْبَةٍ شَدِيدَةٍ فِي أَنْ أَخْرُجَ وَحْدِي، وَأَجْلِسَ عَلَى غُصْنِ شَجَرَةِ التُّوتِ، وَأُدْلِيَ

بِرِجْلَيَّ فِي تَيَّارِ الْمَاءِ الْجَارِي، كَمَا كُنْتُ أَفْعَلُ دَائِمًا، دُونَ أَنْ يَكُونَ الْهُدْهُدُ مَعِي. وَمَا كِدْتُ أَبْتَعِدُ عَنِ الشُّبَّاكِ حَتَّى انْطَلَقَتِ الْعُصْفُورَةُ مِنْ عُشِّهَا، وَأَقْبَلَتْ نَحْوِي بِزَقْزَقَتِهَا الْعَصَبِيَّةِ، فَالْتَفَتُّ إِلَى الْهُدْهُدِ فَإِذَا بِهِ يَبْتَسِمُ، وَيَقُولُ لِي بِصَوْتٍ حَنُونٍ: أَتُرِيدُ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى النِّيلِ وَحْدَكَ يَا أَحْمَدُ الأَمِينُ؟!

شَعَرْتُ بِالسَّعَادَةِ وَهُوَ يُنَادِينِي بِهَذَا الاسْمِ، وَلَكِنْ أَخَذَتْنِي الدَّهْشَةُ الشَّدِيدَةُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ مَا يَدُورُ بِخَاطِرِي، وَسَأَلْتُهُ: كَيْفَ عَرَفْتَ؟

فَابْتَسَمَ، وَقَالَ: أَنَا أَعْرِفُ عَنْكَ أَكْثَرَ مِمَّا تَعْرِفُ أَنْتَ عَنْ نَفْسِكَ. هَيَّا يَا وَلَدِي، هَيَّا، فَالْوَقْتُ أَمَامَنَا قَصِيرٌ، وَالأَيَّامُ قَلِيلَةٌ، هَيَّا.

قَالَ ذَلِكَ وَهُوَ يَعْتَدِلُ مُتَأَهِّبًا، فَفَتَحْتُ الْقَفَصَ، وَمَدَدْتُ يَدَيَّ لأَحْمِلَهُ عَلَى صَدْرِي، وَأَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى مَكَانِنَا الْمَعْهُودِ.

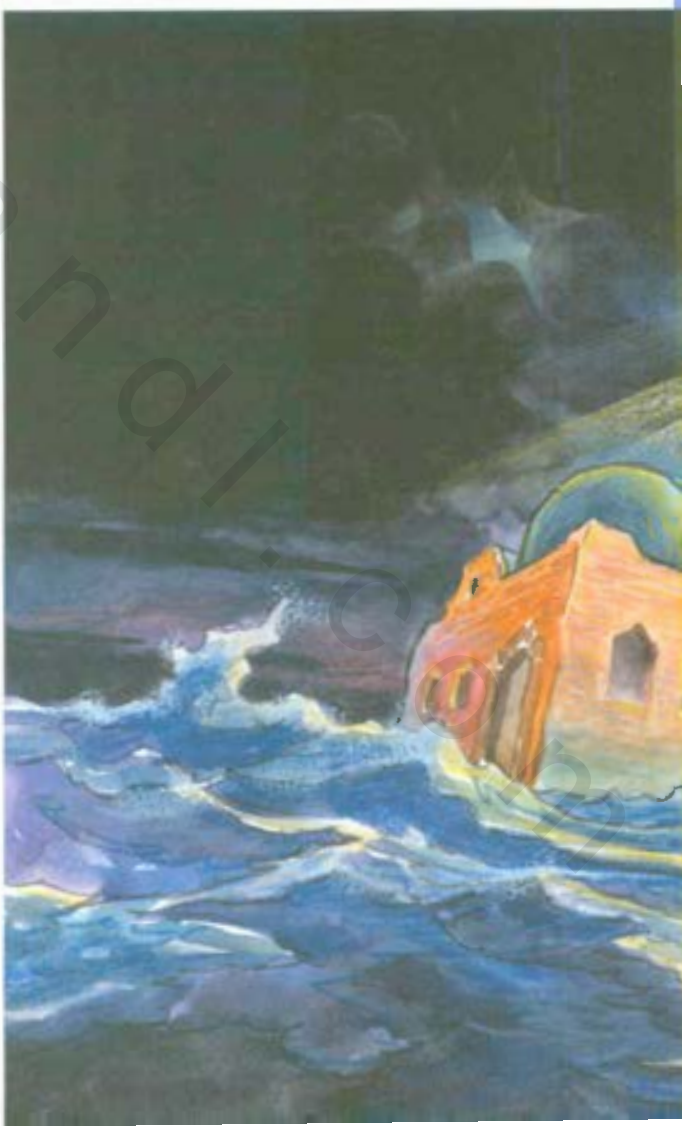

# رَائِحَةُ الأَحْبَاب

فِي الطَّرِيقِ إِلَىٰ الشَّجَرةِ، فَاجَأَنِيَ الْهُدْهُدُ، وَسَأَلَنِي سُؤَالاً غَرِيبًا: هَلْ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ يَا وَلَدِي؟!

أَجَبْتُهُ مُنْدَهِشًا: نَعَمْ أَشْرَقَتْ، أَلاَ تَرَاهَا!!

فَتَلَعْثَمَ قَلِيلاً، وَقَالَ: الْحَقِيقَةُ.. أَشْعُرُ أَنَّ نَظَرِي قَدْ ضَعُفَ كَثِيرًا، وَلَمْ أَعُدْ أَرَى جَيِّدًا كَمَا كُنْتُ أَرَى!!

وَعِنْدَمَا وَصَلْنَا إِلَى الشَّاطِئِ، وَأَنْزَلْتُهُ عَلَى الأَرْضِ، فَاجَأَنِي بِمَا هُوَ أَغْرَبُ، فَقَدْ وَقَفَ مُنْتَصِبًا رَافِعًا رَأْسَهُ، وَأَخَذَ يَدُورُ حَوْلَ نَفْسِهِ، وَيَشْتَمُّ الْهَوَاءَ بِعُمْقٍ، ثُمَّ قَالَ بِذُهُولٍ: إِنِّي أَشُمُّ رَائِحَةَ وَلَدِي!!

تَعَجَّبْتُ، وَقُلْتُ: وَلَدُكَ؟! أَلَمْ تَقُلْ لِيَ إِنَّهُ مَاتَ تَحْتَ أَنْقَاضِ الْبَيْتِ الَّذِي هَدَمَهُ الصَّهَاينَةُ عَلَى سُكَّانِهِ؟!

فَأَجَابَنِي بِذُهُولٍ غَرِيبٍ: وَلَكِنِّي أَشُمُّ رَائِحَةَ وَلَدِي!!

وَرَغْمَ تَعَاطُفِي مَعَهُ، وَإِشْفَاقِي عَلَيْهِ، فَقَدْ كُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّهُ يَتَمَاكَرُ عَلَيَّ، وَيُرِيدُ أَنْ يَشْغَلَنِي بِشَيْءٍ آخَرَ حَتَّى لاَ أَسْأَلَهُ عَمَّا حَدَثَ بِالأَمْسِ، وَكَيْفَ عَرَفَتْ أُمِّي هَذِهِ الأَسْرَارَ.

وَعَقَدْتُ الْعَزْمَ عَلَى أَنْ أَتَجَاهَلَ كُلَّ كَلاَمِهِ هَذَا، وَأَنْ أَسْأَلَهُ.

وَيَبْـدُو أَنَّـهُ، كَعَادَتِهِ، قَـدْ فَهِمَ مَا يَجُولُ بِخَاطِـرِي، فَلَمْ يَتْرُكْ لِـيَ الْفُرْصَةَ، وَمَا إِنْ بَـدَأْتُ فِـي تَقْلِيبِ التُّرْبَةِ أَمَامَهُ بِغُصْنِ الشَّـجَرةِ الْيَابِسِ، حَتَّى بَـدَأَ يَتَكَلَّمُ، وَدُوْنِ مُقَدِّمَاتٍ، أَخَذَ يَقُصُّ عَلَيَّ حِكَايَةَ جَدِّهِ، وَكَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ!!

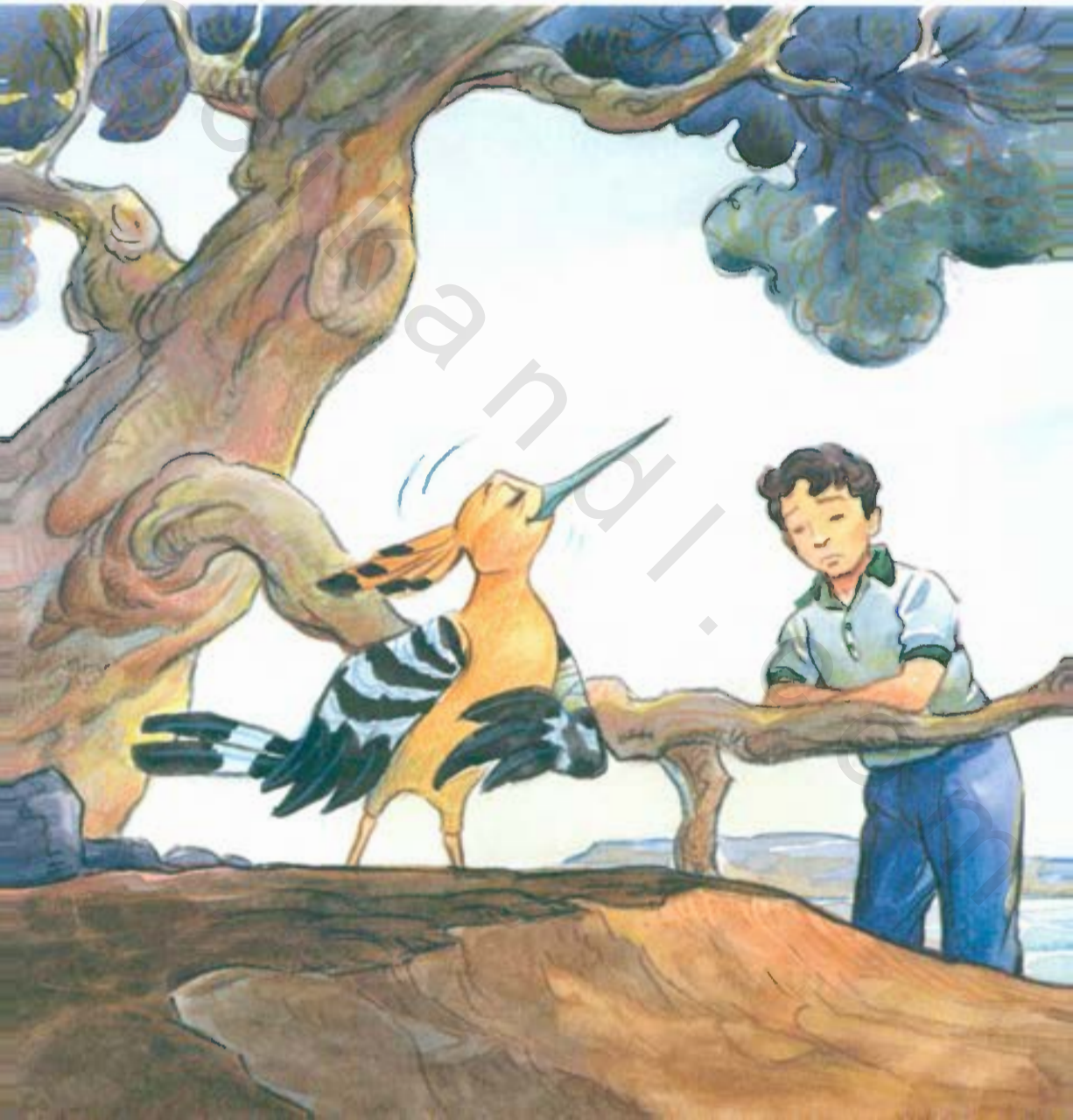

# الْهُدْهُدُ الْمُتَفَائِل

بَدَأَ الْهُدْهُدُ يَحْكِي، وَهُوَ يَأْكُلُ، وَيَقُولُ:

الْغَرِيبُ فِي شَخْصِيَّةِ الْهُدْهُدِ الْمُتَفَائِلِ هَذَا، أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ سَعِيدًا، وَلاَ مُتَفَائِلاً، فِي بِدَايَةِ حَيَاتِهِ عَلَى الإِطْلاَقِ، بَلْ إِنَّهُ كَانَ أَكْثَرَ حُزْنًا وَتَعَاسَةً مِنَ الْهُدْهُدِ الْحَزِينِ نَفْسِهِ، وَلَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ بِبَالِهِ، وَلاَ بِبَالِ غَيْرِهِ، أَنَّ قِصَّتَهُ الَّتِي بَدَأَتْ حَزِينَةً إِلَى هَذَا الْحَدِّ، سَتَنْتَهِي نِهَايَةً سَعِيدَةً إِلَى هَذَا الْحَدِّ!!

نَشَأَ هَذَا الْهُدْهُدُ فِي مَدِينَةِ الْقُدْسِ الشَّرِيفِ، فِي عُشٍّ بَنَاهُ لَهُ أَبُوهُ فَوْقَ قِمَّةِ مِئْذَنَةِ الْمَسْجِدِ الأَقْصَى، فَكَانَ مِنْ مَوْقِعِهِ هَذَا، يَرَى عَنْ يَمِينِهِ قُبَّةَ الصَّخْرَةِ، وَيَرَى عَنْ شِمَالِهِ أَرْوِقَةَ الْمَسْجِدِ الأَقْصَى وَسَاحَاتِهِ، وَعِنْدَمَا يَمُدُّ بَصَرَهُ إِلَى الأُفُقِ الْمَفْتُوحِ أَمَامَهُ، فَإِنَّهُ يَرَى مَدِينَةَ الْقُدْسِ كُلَّهَا، بِشَوَارِعِهَا الْمُتَعَرِّجَةِ صُعُودًا وَهُبُوطًا، وَبُيُوتِهَا الْحَجَرِيَّةِ الْبَيْضَاءِ، ذَاتِ الْحَدَائِقِ وَالأَسْوَارِ. بَلْ إِنَّهُ كَانَ يَسْتَطِيعُ، بِبَصَرِهِ الْحَادِّ، رُؤْيَةَ الصِّغَارِ، وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي الشَّوَارِعِ وَالْحَدَائِقِ، وَفَوْقَ أَسْطُحِ الْبُيُوتِ الْبَعِيدَةِ.

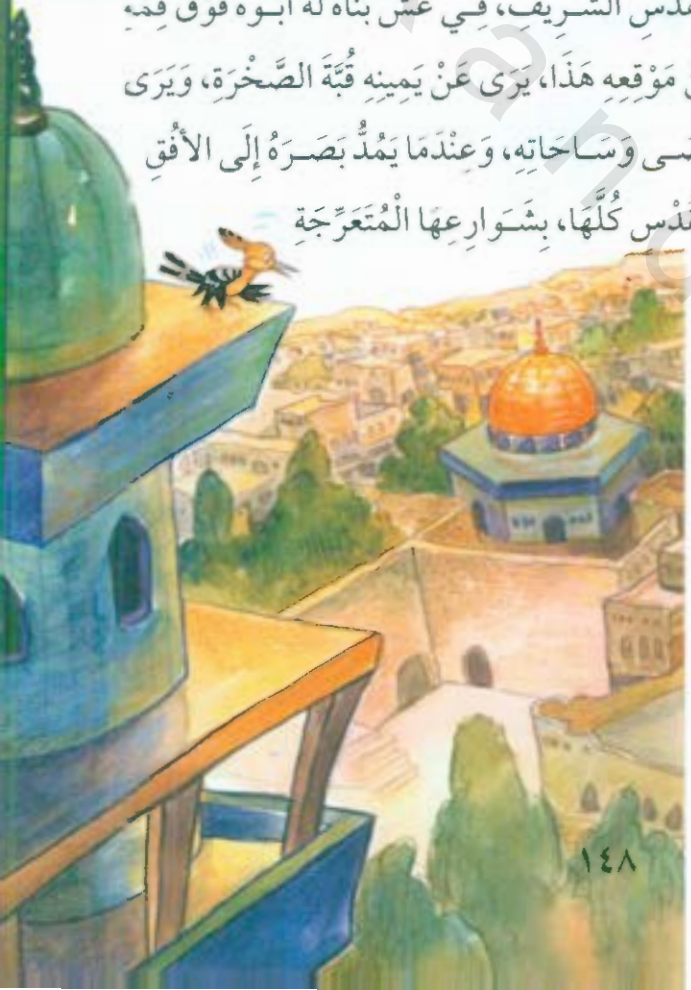

# مَوَاكِبُ السَّلام

وَكَانَ يَحْلُو لِهَذَا الصَّغِيرِ أَنْ يُرَاقِبَ، مِنْ مَوْقِعِهِ هَذَا، حَرَكَةَ النَّاسِ فِي الْمَدِينَةِ، وَخَاصَّةً فِي أَوْقَاتِ الصَّلَاةِ، عِنْدَمَا يَصْعَدُ الْمُؤَذِّنُ إِلَى أَعْلَى الْمِئْذَنَةِ، فَيَكُونُ وَاقِفًا تَحْتَ الْعُشِّ مُبَاشَرَةً، يَرَاهُ الْهُدْهُد وَهُوَ يُتَمْتِمُ بِالدُّعَاءِ، قَبْلَ أَنْ يَصْدَحَ بِالأَذَانِ، فَتَسْتَيْقِظُ كُلُّ حَوَاسِّهِ، وَيَمُدُّ بَصَرَهُ الْحَادَّ إِلَى كُلِّ أَنْحَاءِ الْمَدِينَةِ، لِيُتَابِعَ حَرَكَةَ الْمُصَلِّينَ، الَّتِي تَنْبَعِثُ مَعَ انْطِلَاقِ الصَّوْتِ الْخَاشِعِ الْجَمِيلِ. كَانَ يُتَابِعُهُمْ بِشَغَفٍ مُنْذُ الْبِدَايَةِ، وَهُمْ يَخْرُجُونَ وَاحِدًا وَاحِدًا مِنْ أَبْوَابِ بُيُوتِهِمُ الْبَيْضَاءِ، تَجْمَعُهُمُ الطُّرُقَاتُ الضَّيِّقَةُ الْمُتَعَرِّجَةُ، فَيُسَلِّمُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَيَسِيرُونَ مَعًا فِي جَمَاعَاتٍ صَغِيرَةٍ، وَيُتَابِعُ هَذِهِ الْجَمَاعَاتِ الصَّغِيرَةَ وَهِيَ تَتَلَاقَى مَعَ غَيْرِهَا مِنَ الْجَمَاعَاتِ عِنْدَ تَقَاطُعِ الطُّرُقِ، فَيَتَضَاعَفُ عَدَدُهُمْ، وَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَقْتَرِبُوا مِنَ الْمَسْجِدِ الأَقْصَى، وَقَدْ أَصْبَحُوا جُمُوعًا بِالْمِئَاتِ وَالآلَافِ، وُجُوهُهُمْ هَادِئَةٌ مُشْرِقَةٌ، يَخْتَلِطُ وَقْعُ أَقْدَامِهِمُ الْمُطْمَئِنَّةِ عَلَى الأَرْضِ الْحَجَرِيَّةِ، مَعَ أَصْوَاتِهِمُ الْهَادِئَةِ وَهُمْ يُتَمْتِمُونَ بِالْحَمْدِ وَالتَّسْبِيحِ.

يَحْدُثُ هَذَا كُلَّ يَوْمٍ، وَخُصُوصًا يَوْمَ الْجُمُعَةِ. أَمَّا فِي يَوْمِ الأَحَدِ، فَقَدْ كَانَ يُرَاقِبُ بِالْمِثْلِ حَرَكَةَ جُمُوعِ الْمُصَلِّينَ وَالْحُجَّاجِ الْمَسِيحِيِّينَ، الْوَافِدِينَ إِلَى كَنِيسَةِ الْقِيَامَةِ، وَكَنِيسَةِ الْمَهْدِ، وَهُمْ يَتَحَرَّكُونَ فِي هُدُوءٍ وَسَكِينَةٍ، عَلَى إِيقَاعِ الأَجْرَاسِ، وَهِيَ تَصْدَحُ فِي السَّمَاءِ.

وَكَثِيرًا مَا كَانَ وَالِدُهُ، فِي هَذِهِ اللَّحَظَاتِ، يَقِفُ إِلَى جَانِبِهِ سَعِيدًا، وَيَقُولُ لَهُ:

أُنْظُرْ يَاوَلَدِي، إِنَّهَا مَدِينَةُ السَّلَامِ وَالْمَحَبَّةِ، الْكُلُّ فِيهَا آمِنٌ مُطْمَئِنٌّ عَلَى حَيَاتِهِ وَعَلَى مَالِهِ وَعَلَى كَرَامَتِهِ، وَالْكُلُّ فِيهَا حُرٌّ فِي دِينِهِ وَعَقِيدَتِهِ، اللَّهُمَّ أَدِمْ عَلَيْهَا سَلَامَكَ وَمَحَبَّتَكَ.

فَيَقُولُ الْهُدْهُدُ الطِّفْلُ:

آمِينْ، يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

## عَوْدَةُ الذِّئَابِ

وَلَكِنَّ هَذَا الْحُلْمَ الْجَمِيلَ لَمْ يَدُمْ طَوِيلاً، فَقَدْ أَرَدَ الصَّلِيبِيُّونَ الأَشْرَارَ أَنْ يُحَوِّلُوهُ قَتْلاً وَخَوْفًا وَخَرَابًا، فَجَاءُوا بِجُيُوشِهِمْ وَأَسَاطِيلِهِمْ، وَدَمَّرُوا مَدِينَةَ السَّلَامِ، وَهَدَمُوهَا عَلَى أَهْلِهَا الآمِنِينَ!!

فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، اسْتَيْقَظَ الْهُدْهُدُ الطِّفْلُ مَفْزُوعًا يَصْرُخُ، وَهُوَ يَرَى وَالِدَهُ يَسْقُطُ أَمَامَهُ فِي الْعُشِّ مُضَرَّجًا بِالدِّمَاءِ، فَقَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ صَلِيبِيٌّ فِي صَدْرِهِ، فَجَرَحَهُ

جُرْحًا بَلِيغًا، وَلَكِنَّهُ قَاوَمَ الْجُرْحَ والأَلَمَ، وَظَلَّ يُرَفْرِفُ، وَيُجَاهِدُ بِكُلِّ مَا بَقِيَ لَهُ مِنْ قُوَّةٍ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْعُشِّ، وَهُوَ يَنْزِفُ، وَيَلْفِظُ أَنْفَاسَهُ الأَخِيرَةَ.

وَفِي السَّاعَاتِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي بَقِيَتْ لَهُ فِي الْحَيَاةِ، جَلَسَ بِصَوْتِهِ الْمُتَقَطِّعِ اللاَّهِثِ، يَحْكِي لِوَلَدِهِ الطِّفْلِ كُلَّ مَا حَدَثَ، وَيُحَمِّلُهُ الأَمَانَةَ، وَيَأْخُذُ عَلَيْهِ الْعَهْدَ. وَلَكِنْ، قَبْلَ أَنْ يُجِيبَهُ طِفْلُهُ الْبَاكِي بِقَسَمِ الْعَهْدِ وَالْوَفَاءِ، كَانَ قَدْ أَسْلَمَ الرُّوحَ إِلَى بَارِئِهَا!!

( وَلِذَلِكَ سَيَظَلُّ هَذَا الْهُدْهُدُ، طَوَالَ حَيَاتِهِ، يُرَدِّدُ الْكَلِمَةَ الَّتِي لَمْ يَسْمَعْهَا مِنْهُ أَبَدًا: أُعَاهِدُكَ أَمَامَ الله يَا أَبِي.

اِمْتَلأَ قَلْبُ الطِّفْلِ بِالأَحْزَانِ، حَتَّى قَبْلَ أَنْ يُغَادِرَ الْعُشَّ. وَالآنَ، صَارَ وَحِيدًا يَتِيمًا، لَيْسَ أَمَامَهُ إِلاَّ أَنْ يَعْتَنِيَ بِنَفْسِهِ، وَيُوَاجِهَ الدُّنْيَا بِمُفْرَدِهِ، وَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ عَلَيْهِ أَنْ يُوَاجِهَهُ، أَنْ يَتَعَلَّمَ الطَّيَرَانَ وَحْدَهُ، وَإِلاَّ فَسَوْفَ يَمُوتُ جُوعًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْعُشِّ!!

مَدَّ الْهُدْهُدُ الصَّغِيرُ رَقَبَتَهُ، وَنَظَرَ إِلَى الأَرْضِ، فَوَجَدَهَا بَعِيدَةً بَعِيدَةً، وَتَخَيَّلَ نَفْسَهُ وَهُوَ يَسْقُطُ مِنْ هَذَا الارْتِفَاعِ، فَارْتَعَشَ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ، وَشَعَرَ بِالدُّوَارِ، وَأَخَذَ يَتَرَنَّحُ، وَلاَ يَسْتَطِيعُ الْوُقُوفَ عَلَى رِجْلَيْهِ، فَجَلَسَ فِي الْعُشِّ مُنْهَارًا يَبْكِي.

بَعْدَ وَقْتٍ، هَدَأَ الْهُدْهُدُ، وَأَخَذَ يُشَجِّعُ نَفْسَهُ: لَسْتَ أَوَّلَ طَائِرٍ يَطِيرُ، وَلَيْسَ أَمَامَكَ خِيَارٌ، لاَ بُدَّ أَنْ تَفْعَلَ. فَإِمَّا أَنْ تَطِيرَ، وَإِمَّا أَنْ تَمُوتَ.

وَأَخَذَ يَتَذَكَّرُ كَلِمَاتِ أَبِيهِ، وَهُوَ يَنْصَحُهُ: مَنْ يَنْظُرْ إِلَى الأَرْضِ، يَهْبِطْ وَيَسْقُطْ، وَمَنْ يَتَطَلَّعْ إِلَى السَّمَاءِ، يَرْتَفِعْ فِي الأَعَالِي. وَعَلَى الْفَوْرِ، مَسَحَ دُمُوعَهُ، وَنَهَضَ

مُنْتَصِبًا، نَاظِرًا إِلَى السَّمَاءِ، وَدَعَا اللهَ أَنْ يُعِينَهُ وَيُوَفِّقَهُ، ثُمَّ فَرَدَ جَنَاحَيْهِ، وَانْطَلَقَ يُرَفْرِفُ بِكُلِّ مَا لَدَيْهِ مِنْ عَزْمٍ وَإِصْرَارٍ، وَلاَ زَالَ يُرَفْرِفُ وَيُرَفْرِفُ، حَتَّى ارْتَفَعَ فِي الْفَضَاءِ، وَوَازَنَ نَفْسَهُ، وَدَارَ حَوْلَ الْمِئْذَنَةِ دَوْرَةً كَامِلَةً، وَعَادَ لِيَحُطَّ فِي الْعُشِّ، وَهُوَ يَشْعُرُ أَنَّ قَلْبَهُ سَيَنْفَجِرُ مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ والانْفِعَالِ.

تَشَجَّعَ الهُدْهُدُ، وَكَرَّرَ التَّجْرِبَةَ مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ، كَانَ يَطِيرُ مَسَافَةً أَبْعَدَ وَأَعْلَى، وَلَمْ تَغْرُبْ شَمْسُ ذَلِكَ الْيَوْمِ حَتَّى كَانَ قَدْ أَتْقَنَ الطَّيَرَانَ مِثْلَ أَيِّ طَائِرٍ كَبِيرٍ. وَمِنْ صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي، انْطَلَقَ يَجُوبُ الآفَاقَ، لاَ لِيَمْرَحَ وَيَلْهُوَ، مِثْلَ كُلِّ الصِّغَارِ، بَلْ لِيُتَابِعَ، وَيَرَى بِعَيْنَيْهِ الصَّغِيرَتَيْنِ، أَبْشَعَ جَرَائِمِ التَّارِيخِ!!

## يَوْمُ الفَزَعِ

لَمْ يَكُنْ قَدْ مَضَى عَلَى مَوْتِ أَبِيهِ سِوَى أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ أَفَاقَ مِنْ هَذِهِ الصَّدْمَةِ الْمُرَوِّعَةِ، حَتَّى جَاءَتْهُ الصَّدْمَةُ الأَشَدُّ؛ فَقَدْ رَأَى الْجَبَابِرَةَ الصَّلِيبِيِّينَ، وَهُمْ يَسُوقُونَ الآلاَفَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رِجَالاً وَنِسَاءً وَأَطْفَالاً، وَيَذْبَحُونَهُمْ فِي سَاحَةِ الْمَسْجِدِ الأَقْصَى، دُونَ أَنْ تَأْخُذَهُمُ الرَّحْمَةُ بِامْرَأَةٍ ضَعِيفَةٍ، أَوْ بِشَيْخٍ كَبِيرٍ، أَوْ حَتَّى بِالرَّضِيعِ فِي حِضْنِ أُمِّهِ!!

سَكَتَ صَاحِبِي لَحْظَةً، ثُمَّ تَنَهَّدَ، وَالدُّمُوعُ تَلْمَعُ فِي عَيْنَيْهِ، وَقَالَ: وَالْمُشْكِلَةُ يَا أَمِينُ، أَنَّ الْهُدْهُدَ، لِكَوْنِهِ طَائِرًا، فَهُوَ يَرَى الصُّورَةَ كَامِلَةً، بِكُلِّ تَفَاصِيلِهَا، وَأَبْعَادِهَا

الرَّهِيبَةِ، عَلَى عَكْسِ أَيِّ كَائِنٍ آخَرَ يَقِفُ عَلَى الأَرْضِ، وَلاَ يَرَى إِلاَّ جَانِبًا وَاحِدًا هُوَ الْجَانِبُ الْقَرِيبُ مِنْهُ. وَلِذَا فَقَدْ كَانَ التَّأْثِيرُ عَنِيفًا عَلَى الْهُدْهُدِ، إِلَى دَرَجَةٍ لاَ تُصَدَّقُ.

كَانَ الْهُدْهُدُ يَطِيرُ فَوْقَ الْمَكَانِ، عَلَى ارْتِفَاعٍ مُنْخَفِضٍ، وَيَرَى كُلَّ قَطْرَةِ دَمٍ، وَكُلَّ دَمْعَةٍ، وَكُلَّ صَرْخَةٍ، وَكُلَّ يَدٍ حَاقِدَةٍ تَهْوِي بِسَيْفِهَا الْغَادِرِ عَلَى رَقَبَةِ بَرِيءٍ، وَيُرَاقِبُ وُجُوهَ السَّفَّاحِينَ، وَنَظَرَاتِهِمْ، وَيَتَعَجَّبُ: كَيْفَ يَتَحَوَّلُ بَعْضُ الْبَشَرِ وُحُوشًا مُفْتَرِسَةً!! وَيَتَذَكَّرُ كَلِمَاتٍ سَمِعَهَا مِنْ أَبِيهِ فِي لَحَظَاتِهِ الأَخِيرَةِ:

(اعْلَمْ يَاوَلَدِي أَنَّ خَسَارَةَ الْقَاتِلِ أَكْبَرُ مِنْ خَسَارَةِ الْمَقْتُولِ؛ فَالْمَقْتُولُ يَفْقِدُ حَيَاتَهُ، أَمَّا الْقَاتِلُ فَيَفْقِدُ إِنْسَانِيَّتَهُ، وَالإِنْسَانِيَّةُ أَغْلَى مِنَ الْحَيَاةِ، يَا وَلَدِي.

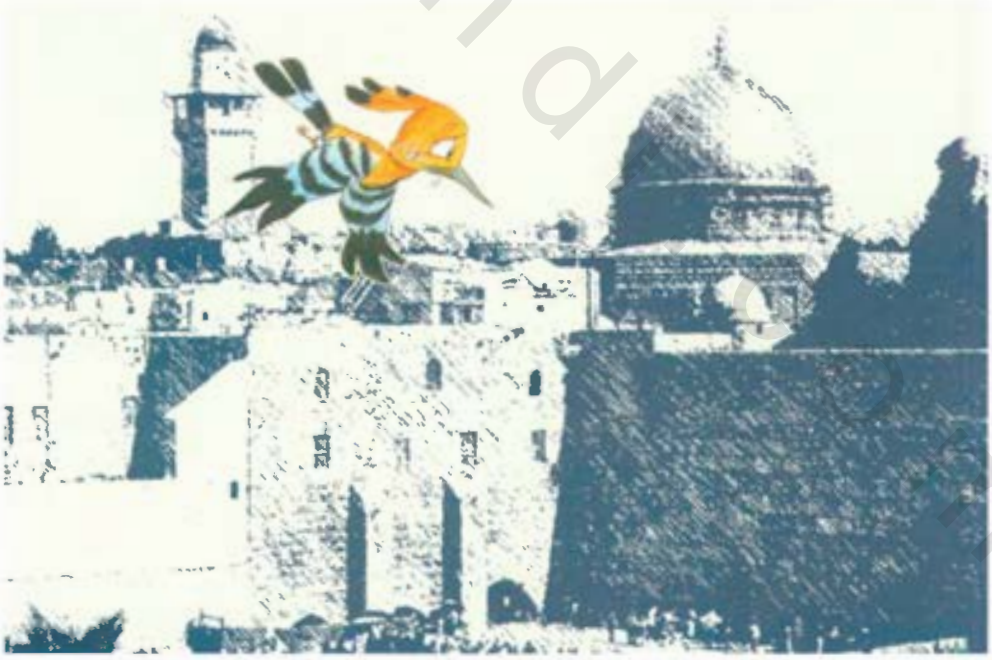

ثُمَّ يَرْتَفِعُ قَلِيلاً، وَيَدُوْرُ فِي الْفَضَاءِ، فَيَرَى صُورَةً أَكْبَرَ لِلْمَكَانِ؛ يَرَى الْمَسْجِدَ الأَقْصَى، بَيْتَ الله ، الَّذِي طَالَمَا ضَمَّ هَؤُلاَءِ الأَبْرِيَاءِ فِي صَلاَتِهِمْ، وَجَمَعَهُمْ عَلَى الإِيمَانِ والسَّلامِ وَالْمَحَبَّةِ، وَهَا هُمُ الآنَ يُذْبَحُونَ، فِي نَفْسِ الْمَكَانِ الَّذِي كَانُوا فِيهِ يَسْجُدُونَ!!

ثُمَّ يَرْتَفِعُ فِي الْفَضَاءِ أَكْثَرَ، فَيَرَى كَنِيسَةَ الْمَهْدِ، وَكَنِيسَةَ الْقِيَامَةِ، فَتَكْتَمِلُ صُورَةُ الْمَأْسَاةِ فِي عَيْنَيْهِ، وَيَعْتَصِرُ قَلْبَهُ الأَلَمُ؛ فَهَؤُلاَءِ الْقَتَلَةُ الْمُجْرِمُونَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَتْبَعُ هَذِهِ الْكَنِيسَةِ، الَّتِي لَمْ تَكُنْ يَوْمًا إِلاَّ مَهْدًا لِلْمَحَبَّةِ وَالسَّلاَمِ!! وَيَدَّعُونَ أَنَّهُمْ جَاءُوا دِفَاعًا عَنِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، وَعَنِ الصَّلِيبِ، رَمْزِ الْخَلاَصِ مِنَ الآثَامِ وَالآلاَمِ، وَهَاهُمْ يَدُوسُونَ بِأَقْدَامِهِمْ الْمُدَنَّسَةِ عَلَى كِتَابِ الْمَحَبَّةِ، وَيَنْزِعُونَ الصَّلِيبَ، ويَتَّخِذُونَهُ، بِأَيْدِيهِمْ سَيْفًا يَذْبَحُونَ بِهِ الأَبْرِيَاءَ!!

لَمْ يَحْتَمِلْ قَلْبُ الْهُدْهُدِ الصَّغِيرِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَانْهَارَتْ قُوَاهُ، وَسَقَطَ مِنَ الْفَضَاءِ، عَلَى قُبَّةِ الصَّخْرَةِ، مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَاقِدًا الْوَعْيَ بِكُلِّ مَا حَوْلَهُ!!

## السُّؤَالُ الصَّعْبُ

عِنْدَ ذَلِكَ، لَمْ أَحْتَمِلْ أَنَا أَيْضًا، وَشَعَرْتُ بِالاخْتِنَاقِ، فَبَكَيْتُ بِشِدَّةٍ، وَقَاطَعْتُ صَاحِبِي الْهُدْهُدَ صَارِخًا: وَلَكِنْ، لِمَاذَا نَحْنُ دَائِمًا؟! لِمَاذَا يَأْتِي الأَعْدَاءُ دَائِمًا لِيَعْتَدُوا عَلَيْنَا نَحْنُ؟! وَعَلَى بِلادِنَا نَحْنُ؟! وَعَلَى أَبْرِيَائِنَا نَحْنُ؟! لِمَاذَا؟!!

صَمَتَ الْهُدْهُدُ لَحْظَةً، وَدُمُوعُهُ الصَّغِيرَةُ تَتَسَاقَطُ عَلَى الأَرْضِ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ، وَقَالَ: لَيْسَ دَائِمًا يَا وَلَدِي، لَيْسَ دائمًا، وَلَكِنْ لأَنَّ هَذِهِ الأَرْضَ هِيَ أَرْضُ الْخَيْرَاتِ، وَمَهْدُ الدِّيَانَاتِ، وَمَنْبَعُ الْفِكْرِ وَالْحَضَارَةِ وَالضَّمِيرِ؛ فَهِيَ مَحَلُّ أَطْمَاعِ الْغُزَاةِ الطَّامِعِينَ، وَهُمْ لاَ يَتَجَرَّأُونَ عَلَى غَزْوِنَا إِلاَّ عِنْدَمَا نَكُونُ ضِعَافًا مُتَفَرِّقِينَ مُشَتَّتِينَ، فَنَصِيرُ مِثْلَ الْجِسْمِ الضَّعِيفِ، الَّذِي تَنْجَحُ الْجَرَاثِيمُ فِي غَزْوِهِ بِالأَمْرَاضِ؛ لأَنَّهُ جِسْمٌ ضَعِيفٌ!!

وَصَمَتَ مَرَّةً أُخْرَى، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ، وَقَالَ: وَلَكِنْ، اعلَمْ يَا وَلَدِي، أَنَّ الضَّعْفَ وَالْمَرَضَ أَنْوَاعٌ وَدَرَجَاتٌ، فَالضَّعْفُ الَّذِي أَصَابَ الأَنْدَلُسَ كَانَ شَدِيدًا شَدِيدًا، وَلِذَلِكَ كَانَ الْمَرَضُ فَتَّاكًا قَاتِلاً، قَضَى عَلَى الدَّوْلَةِ الإِسْلامِيَّةِ هُنَاكَ، وَأَزَالَهَا. أَمَّا الضَّعْفُ الَّذِي أَصَابَ مِصْرَ، فَقَدْ كَانَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ وَأَهْوَنَ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ يَنْجَحِ الصَّلِيبِيُّونَ فِي الاسْتِيلاَءِ عَلَيْهَا، وَبَاءَتْ حَمَلاَتُهُمْ عَلَيْهَا بِالْفَشَلِ. أَمَّا بِلاَدُ الشَّامِ، فَكَانَ الْمَرَضُ قَدْ تَمَكَّنَ مِنْهَا، فَغَزَاهَا الصَّلِيبِيُّونَ، وَاسْتَوْلَوْا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ مُدُنِهَا، وَكَانَ أَهَمَّهَا جَمِيعًا مَدِينَةُ الْقُدْسِ الشَّرِيفِ، الَّتِي شَهِدَ الْهُدْهُدُ الْمُتَفَائِلُ سُقُوطَهَا، وَرَأَى بِعَيْنَيْهِ كُلَّ الْمَذَابِحِ وَالْفَظَاعَاتِ الَّتِي ارْتَكَبَهَا الصَّلِيبِيُّونَ فِي حَقِّ الْمُسْلِمِينَ الأَبْرِيَاءِ.

ثُمَّ تَنَهَّدَ تَنْهِيدَةً عَمِيقَةً، وَقَالَ: لَنْ أَحْكِيَ لَكَ مَا حَكَاهُ الْهُدْهُدُ عَنْ هَذِهِ الْمَذَابِحِ وَالْفَظَاعَاتِ الَّتِي رَآهَا، حَتَّى لاَ أُثْقِلَ عَلَيْكَ بِالأَحْزَانِ. وَلَكِنِّي أُرِيدُكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ هَذَا الْهُدْهُدَ التَّعِيسَ، رَغْمَ كُلِّ مَا رَآهُ، وَكُلِّ مَا عَايَشَهُ، لَمْ يَيْأَسْ، وَلَمْ يَسْتَسْلِمْ لأَحْزَانِهِ، وَمَضَى يَجُوبُ بِلاَدَ الْمُسْلِمِينَ، مِنْ شَرْقِهَا إِلَى غَرْبِهَا، بَحْثاً عَنِ الأَمَلِ.

## إِلَى بَلَدِ الْمَحْبُوب

بَعْدَ تَفْكِيرٍ وَبَحْثٍ وَاسْتِقْصَاءٍ، هَدَاهُ ذَكَاؤُهُ، وَدَلَّتْهُ بَوْصَلَةُ الأَمَلِ فِي قَلْبِهِ إِلَى قَاهِرَةِ الْمُعِزِّ!! فَانْطَلَقَ إِلَيْهَا بِجَنَاحَيْهِ الْمُتْعَبَيْنِ، قَاصِدًا حَيًّا مِنْ أَحْيَائِهَا، عَلَى مَشَارِفِ مَدِينَةِ الْفُسْطَاطِ الْقَدِيمَةِ، الَّتِي بَنَاهَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ رَضِيَ الله عَنْهُ عِنْدَمَا فَتَحَ مِصْرَ.

فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، كَانَتْ بُيُوتُ الْمِصْرِيِّينَ أُعْجُوبَةً مِنَ الأَعَاجِيبِ، فَقَدْ كَانُوا يَبْنُونَهَا عَالِيَةً مِنْ عِدَّةِ طَوَابِقَ، وَيَمْلأُونَ سُطُوحَهَا بَطَمْيِ النِّيلِ، وَيَغْرِسُونَ فِيهَا النَّخِيلَ وَأَشْجَارَ الْفَوَاكِهِ وَالأَعْنَابِ، فَتَتَحَوَّلُ هَذِهِ الأَسْطُحُ الْعَالِيَةُ إِلَى حَدَائِقَ غَنَّاءَ كَاسِيَةٍ، لِدَرَجَةِ أَنَّ الْهُدْهُدَ عِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى الْقَاهِرَةِ، نَظَرَ مِنَ الْفَضَاءِ، فَلَمْ يَجِدْ غَيْرَ الْحَدَائِقِ الْخَضْرَاءِ، وَلَمْ يَرَ بَشَرًا وَلاَ بُيُوتًا وَلاَ أَسْوَاقًا، فَأَخَذَ يَتَسَاءَلُ: أَيْنَ الْمَدِينَةُ؟! وَأَيْنَ الْبُيُوتُ؟! وَأَيْنَ الْمِصْرِيُّونَ، الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّهُمْ بِالْمَلاَيِينِ؟!!

ظَنَّ الْهُدْهُدُ أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ بَعْدُ إِلَى الْقَاهِرَةِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ مُوَاصَلَةَ الطَّيَرَانِ، فَقَدْ أَجْبَرَهُ التَّعَبُ عَلَى النُّزُولِ مِنَ الْفَضَاءِ؛ لِكَيْ يَرْتَاحَ قَلِيلاً، ثُمَّ يُعَاوِدُ السَّفَرَ.

حَطَّ الْهُدْهُدُ فَوْقَ تَعْرِيشَةِ عِنَبٍ، كَانَ تَحْتَ ظِلِّهَا شَيْخٌ يُصَلِّي، وَخَلْفَهُ زَوْجَتُهُ وَأَبْنَاؤُهُ، وَمَا كَادَ يَجْلِسُ، وَيَلْتَقِطُ أَنْفَاسَهُ حَتَّى اكْتَشَفَ السِّرَّ، فَوَقَفَ مَبْهُورًا، وَقَدْ اتَّسَعَتْ عَيْنَاهُ وَانْفَتَحَ مِنْقَارُهُ مِنْ شِدَّةِ الدَّهْشَةِ، وَهُوَ يَتَأَمَّلُ الْمَنْظَرَ الْعَجِيبَ لِلْحَدَائِقِ الْغَنَّاءِ الْمَزْرُوعَةِ فَوْقَ سُطُوحِ الْبُيُوتِ!! وَلَمْ يُفِقْ مِنَ الدَّهْشَةِ إِلاَّ عِنْدَمَا فَرَغَ الشَّيْخُ مِنْ صَلاَتِهِ، وَجَلَسَ يَدْعُو اللهَ وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يُوسُفَ، وَاجْعَلْهُ الأَمِينَ، اللَّهُمَّ حَقِّقْ عَلَى يَدَيْهِ نَصْرَكَ الْمُبِينَ، وَاجْعَلْهُ عِزًّا لِلإِسْلاَمِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَأَمَلاً لِكُلِّ الْمُسْتَضْعَفِينَ.

وَيُرَدِّدُ الأَبْنَاءُ خَلْفَهُ: آمِينْ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اِنْدَهَشَ الْهُدْهُدُ مِنْ هَذَا الدُّعَاءِ، فَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ يَسْمَعُ فِيهَا عَنْ قَائِدٍ أَوْ مَلِكٍ بِهَذَا الاسْمِ، وَلَكِنَّهُ شَعَرَ بِبَارِقَةِ أَمَلٍ فِي قَلْبِهِ. وَلَمْ تَطُلْ حَيْرَتُهُ، فَقَدْ بَادَرَ أَصْغَرُ الأَبْنَاءِ يَسْأَلُ أَبَاهُ: مَنْ يُوسُفُ الأَمِينُ هَذَا يَا أَبِي؟

فَابْتَسَمَ الأَبُ ابْتِسَامَةً حَانِيَةً، وَقَالَ: إِنَّهُ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ، التَّقِيُّ الزَّاهِدُ، الَّذِي أَصْبَحَ الْيَوْمَ مَلِكًا عَلَى مِصْرَ، إِنَّهُ صَلاَحُ الدِّينِ الأَيُّوبِيُّ يَا وَلَدِي، الَّذِي أَقْسَمَ أَلاَّ يَنَامَ، وَلاَ يَرْتَاحَ، حَتَّى يُحَرِّرَ الْقُدْسَ، أَوْ يَمُوتَ شَهِيدًا.

## الْهُدْهُدُ الشَّاعِر

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، نَسِيَ الْهُدْهُدُ كُلَّ تَعَبِهِ، وَانْتَفَضَ مِنْ مَكَانِهِ، وَهُوَ يَهْتِفُ بِحَمَاسَةٍ شَدِيدَةٍ: الله أَكْبَرُ، هَذَا هُوَ، هَذَا مَنْ جِئْتُ أَبْحَثُ عَنْهُ، هَذَا هُوَ!!

وَلَمْ يَتَمَالَكْ نَفْسَهُ، فَوَقَفَ مُمْشُوقًا، وَمَدَّ رَقَبَتَهُ إِلَى أَعْلَى، وَأَخَذَ يَرْقُصُ، وَيَصْدَحُ بِصَوْتِهِ الْجَمِيلِ، وَيُنْشِدُ:

يَارَبَّ العَالَمِينْ
أُنْصُرْ صَلاَحَ الدِّينْ
سُبْحَانَكَ اللَّهُمْ يَا خَالِقَ الأَمَلْ
يُزِيلُ كُلَّ هَمْ وَيُزَحْزِحُ الْجَبَلْ

يَـارَبَّ العَـالَمِـــيْنْ

أُنْصُـرْ صَـلَاحَ الدِّيـنْ

قَلْـبـي لَحْـــمٌ ودَمْ كَـانَ، ولَـمْ يَـــزَلْ

يُغَـــالِبُ الأَلَـــمْ وسِـوَاكَ ما سَـأَلْ

يـــارَبَّ الـعـالمـيْنْ

اجْعَلْ صَـلَاحَ الدِّيـنْ

أَمَـلَ المُسْتَـضْعَـفيـنْ

ودِرْعَ الْمُـــــؤْمِنِيـنْ

وَفَـــرْحَـةَ الْحَـــزِينْ

يَـــا رَبَّ الْعَـالَمِـــيْنْ

ثُمَّ انْطَلَقَ يُرَفْرِفُ فِي الْفَضَاءِ، دُونَ أَنْ يَلْتَفِتَ أَحَدٌ مِنَ الْجَالِسِينَ تَحْتَ التَّعْرِيشَةِ إِلَى أُنْشُودَتِهِ الرَّائِعَةِ، فَقَدْ كَانَتْ، بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ، مُجَرَّدَ تَغْرِيدِ طَائِرٍ جَمِيلِ الصَّوْتِ، مِنْ آلَافِ الطُّيُورِ، الَّتِي تَحُطُّ عَلَى الأَغْصَانِ، ثُمَّ تَطِيرُ!!

obeikandl.com

# أيْنَ الْمَحْبُوب؟!

فِي طَرِيقِ بَحْثِهِ عَنْ صَلاَحِ الدِّينِ، وَهُوَ يَحْمِلُ كُلَّ هَذَا الأَمَلِ وَالتَّفَاؤُلِ، صَادَفَ الْهُدْهُدُ أَشْيَاءَ غَرِيبَةً، جَعَلَتْهُ يَشْعُرُ بِالْحَيْرَةِ وَالاضْطِرَابِ!!

فَأَوَّلُ بَيْتٍ وَقَفَ عِنْدَهُ، وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى قَلْعَةِ صَلاَحِ الدِّينِ، كَانَ كُوخَ فَلاَّحٍ فَقِيرٍ، مَبْنِيًّا بِالطِّينِ، نِصْفُهُ مَسْقُوفٌ بِسَعْفِ النَّخِيلِ، وَأَعْوَادِ حَطَبِ الذُّرَةِ، وَنِصْفُهُ الآخَرُ مَكْشُوفٌ لِلسَّمَاءِ. نَظَرَ الْهُدْهُدُ مِنْ خِلاَلِهِ، فَرَأَى الْفَلاَّحَ وَأُسْرَتَهُ، فِي حَالَةٍ بَائِسَةٍ؛ كَانَتِ الزَّوْجَةُ تَبْكِي بِحُرْقَةٍ، وَهِيَ تَحْتَضِنُ أَطْفَالَهَا، وَالزَّوْجُ وَاقِفٌ حَزِينٌ مُرْتَبِكٌ، يُحَاوِلُ تَهْدِئَتَهَا، وَيَقُولُ: اصْبِرِي، وَلاَ تَحْزَنِي، فَهَذَا أَمْرُ اللهِ.

فَتَصْرُخُ الزَّوْجَةُ: لَيْسَ أَمْرَ اللهِ، فَاللهُ لَمْ يَأْمُرْ بِالظُّلْمِ، بَلْ هَذَا أَمْرُ صَلاَحِ الدِّينِ، وَهَذَا عَمَلُ جُنُودِهِ، الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ لِيَسْلِبُونَا آخِرَ رَغِيفِ خُبْزٍ فِي بَيْتِنَا، وَيَتْرُكُوا أَوْلاَدَنَا

يَمُوتُونَ جُوعًا، حَسْبِيَ اللهِ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، حَسْبِيَ اللهِ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ!! ثُمَّ تَعُودُ لِتَبْكِيَ بِحُرْقَةٍ. وَلاَ يَتَمَالَكُ الزَّوجُ نَفْسَهُ، فَيَتْرُكُهَا، وَيَخْرُجُ بِسُرْعَةٍ قَبْلَ أَنْ تَرَاهُ، أَوْ يَرَاهُ أَطْفَالَهُ، وَهُوَ يَبْكِي!!

طَارَ الْهُدْهُدُ وَهُوَ يَشْعُرُ بِمَرَارَةٍ فِي حَلْقِهِ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى سَفْحِ الْقَلْعَةِ، فَحَطَّ عَلَى مَجْرَى الْعُيُونِ، الَّذِي يَصِلُ بَيْنَ الْقَلْعَةِ وَبَيْنَ النِّيلِ، وَيَمُدُّهَا بِالْمَاءِ، وَقَفَ الْهُدْهُدُ يَشْرَبُ، وَيَتَأَمَّلُ، بِإِعْجَابٍ وَدَهْشَةٍ، هَذَا الْمَجْرَى الْمَائِيَّ الَّذِي بُنِيَ بِالْحَجَرِ عَلَى شَكْلِ أَقْوَاسٍ ضَخْمَةٍ، مُتَدَرِّجَةِ الارْتِفَاعِ، مِثْلِ دَرَجَاتِ السُّلَّمِ، يُمَثِّلُ كُلٌّ مِنْهَا مُسْتَوًى أُفُقِيًّا، وُضِعَتْ عِنْدَ نِهَايَتِهِ سَاقِيَةٌ عَلَى شَكْلِ قُرْصٍ بِهِ قَوَادِيسُ، تَدُورُ فَتَرْفَعُ الْمَاءَ إِلَى الْمُسْتَوَى الأَعْلَى، الَّذِي يَلِيهِ. وَهَكَذَا، حَتَّى يَصِلَ الْمَاءُ مِنَ النِّيلِ إِلَى الْقَلْعَةِ الْمَبْنِيَّةِ فَوْقَ التَّلَّةِ الْمُرْتَفِعَةِ.

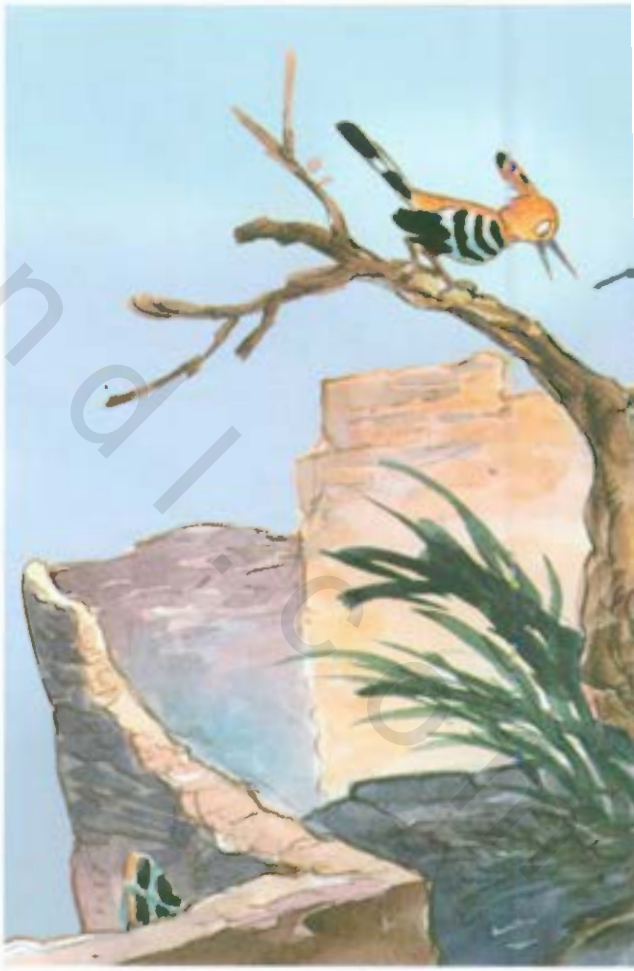

# نارٌ تَحْتَ الرَّماد

وَبَيْنَما هُوَ يُتابِعُ بِانْبِهارٍ حَرَكَةَ السَّواقِي وَالْماءِ الَّذي يَتَدَفَّقُ إِلَى الأَعْلَى، إِذا بِهِ يَسْمَعُ تَحْتَ أَحَدِ الأَقْواسِ حِوارًا ناريًّا مَكْتُومًا بَيْنَ شابَّيْنِ، أَحَدُهُما فِي يَدِهِ خِنْجَرٌ، وَالآخَرُ يُحاوِلُ أَنْ يُهَدِّئَهُ، وَيُخَلِّصَهُ مِنْ يَدِهِ:

- أُتْرُكْ هَذَا.
- لَنْ أَتْرُكَهُ.
- قُلْتُ لَكَ اتْرُكْهُ، وَتَعَالَ مَعِيَ، تَعَالَ.
- لَنْ أَتْرُكَهُ، وَلَنْ آتِيَ مَعَكَ، وَلَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْمَكَانَ.
- هَل جُنِنْتَ؟ مَاذَا سَتَفْعَلُ؟!
- سَأَنْتَظِرُ حَتَّى يَمُرَّ مِنْ هُنَا، فَأَقْتُلُهُ، وَأَرْتَاحُ!!
- لَنْ يَتْرُكَكَ الْجُنُودُ، سَيُمْسِكُونَ بِكَ، وَسَتُقْتَلُ أَنْتَ.
- الْمَوْتُ أَفْضَلُ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ.
- هَذَا كَلَامُ مَجَانِينَ.

- لَوْ كُنْتَ مَكَانِي لَفَعَلْتَ مِثْلِي، لَوْ هَدَمَ الْجُنُودُ بَيْتَكُمْ، وَأَلْقَوْا بِكُمْ فِي الْعَرَاءِ، وَأَخَذُوا أَبَاكَ فَأَلْقَوهُ فِي ظَلاَمِ السِّجْنِ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، مَا كُنْتَ تَقُولُ إِنِّي مَجْنُونٌ.

- أَبُوكَ لَيْسَ الْوَحِيدَ، هُنَاكَ الْكَثِيرُونَ غَيْرُهُ، وَلَيْسَ الْحَلُّ أَنْ تَكُونَ أَنْتَ أَيْضًا سَجِينًا أَوْ قَتِيلاً، فَيَضِيعُ كُلُّ أَمَلٍ لأُسْرَتِكَ أَنْ يَعِيشُوا مَسْتُورِينَ، حَتَّى يَفُكَّ الله قَيْدَ أَبِيكَ، وَيَأْتِيَ بِالْفَرَجِ مِنْ عِنْدِهِ.

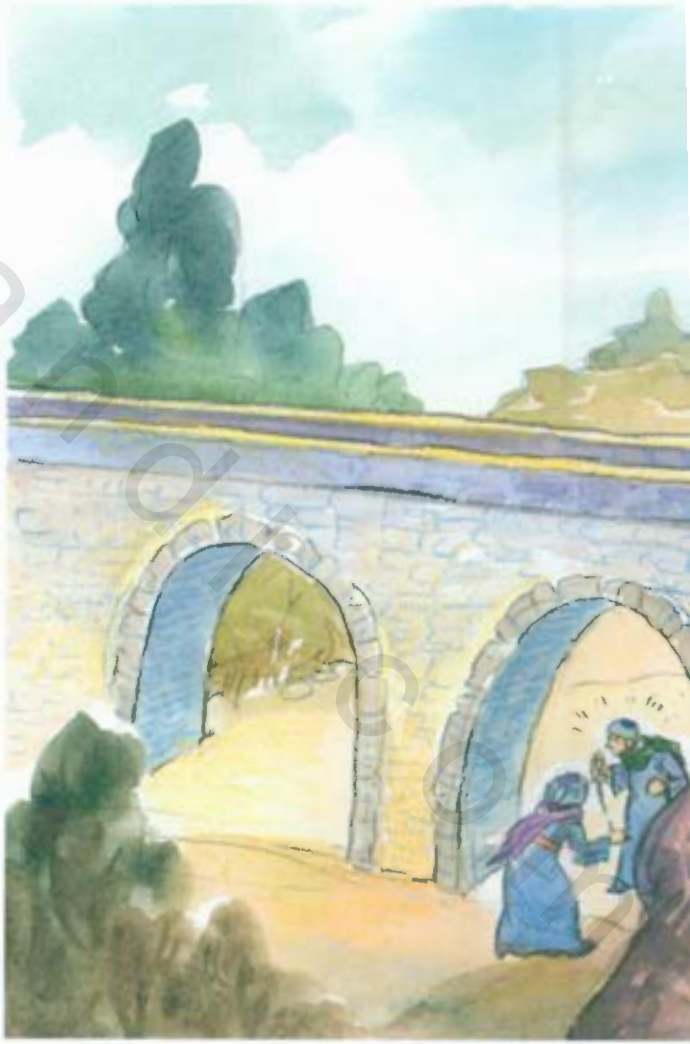

لَمْ يَسْتَطِعِ الْهُدْهُدُ الانْتِظَارَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَرَفْرَفَ صَاعِدًا بِمُحَاذَاةِ مَجْرَى الْعُيُونِ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى سُورِ الْقَلْعَةِ، وَهُوَ يَشْعُرُ فِي حَلْقِهِ بِمَرَارَةٍ أَشَدَّ، فَقَدْ أَدْرَكَ الآنَ، بِوُضُوحٍ، أَنَّ هُنَاكَ نَارًا تَحْتَ الرَّمَادِ!!

# أيْنَ صَلاَحُ الدِّين؟

حَطَّ الْهُدْهُدُ فَوْقَ قِمَّةِ بُرْجِ الْمُرَاقَبَةِ، وَأَخَذَ يَمْسَحُ الْمَكَانَ بِنَظَرَاتِهِ، وَلَمْ يَسْتَغْرِقْ وَقْتًا طَوِيلاً فِي الْبَحْثِ، فَالْوَقْتُ وَقْتُ صَلاَةِ الظُّهْرِ، وَصَلاَحُ الدِّينِ لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي الْمَسْجِدِ، وَهَا هُوَ الْمَسْجِدُ بِمَنَارَتِهِ الْعَالِيَةِ، فِي رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ حَدِيقَةِ الْقَلْعَةِ.

عِنْدَمَا حَطَّ الْهُدْهُدُ عَلَى الثُّرَيَّاتِ الْكَبِيرَةِ فِي وَسَطِ الْمَسْجِدِ، كَانَ الْمُصَلُّونَ قَدْ فَرَغُوا مِنَ الصَّلاَةِ، وَأَخَذُوا يَخْرُجُونَ فِي هُدُوءٍ. وَلَكِنْ، أَيْنَ صَلاَحُ الدِّينِ مِنْ بَيْنِ كُلِّ هَؤُلاَءِ؟ لَيْسَ مِنْ بَيْنِهِمْ مَنْ يَلْبَسُ تَاجًا، أَوْ تَبْدُو عَلَيْهِ الْعَظَمَةُ وَالأُبَّهَةُ، أَوْ يُحِيطُ بِهِ الْحُرَّاسُ، هُنَاكَ حُرَّاسٌ قَلِيلُونَ فَقَطْ، يَقِفُونَ فِي الْخَارِجِ، وَهَا هُمْ يُغْلِقُونَ الأَبْوَابَ، بَعْدَ أَنْ خَرَجَ كُلُّ الْمُصَلِّينَ!! كَادَ الْهُدْهُدُ يَنْطَلِقُ، لِيَبْحَثَ عَنْهُ فِي مَكَانٍ آخَرَ، وَلَكِنَّهُ الْتَفَتَ إِلَى دَاخِلِ الْمَسْجِدِ، فَإِذَا جَمَاعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ جَالِسُونَ عَلَى الأَرْضِ قَرِيبًا مِنَ الْمِحْرَابِ. وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، عَرَفَ الْهُدْهُدُ صَلاَحَ الدِّينِ، إِنَّهُ ذَلِكَ النَّحِيلُ الْجَالِسُ فِي صَدَارَةِ الْمَجْلِسِ، مَهْمُومًا مُقَطِّبَ الْجَبِينِ، مَهِيبًا رَغْمَ مَظْهَرِهِ الْمُتَوَاضِعِ، تَتَجَلَّى فِي مَلاَمِحِهِ عَلاَمَاتُ الزَّعَامَةِ وَالْفُرُوسِيَّةِ.

كَانَ صَلاَحُ الدِّينِ وَرِجَالُهُ يَتَحَدَّثُونَ بِصَوْتٍ خَفِيضٍ، حَتَّى

أَنَّ الْهُدْهُدَ لَمْ يَكُنْ يَسْمَعُهُمْ جَيِّدًا رَغْمَ وُقُوفِهِ عَلَى الثُّرَيَّا الَّتِي تَتَدَلَّى فَوْقَهُمْ مُبَاشَرَةً، وَلَكِنَّهُ فَهِمَ مِنَ الْكَلَامِ الْقَلِيلِ الَّذِي الْتَقَطَهُ أَنَّهُمْ يَتَدَارَسُونَ بَعْضَ الْخُطَطِ الْحَرْبِيَّةِ، وَأَنَّهُمْ يَتَحَدَّثُونَ عَنِ الْقُدْسِ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الرِّجَالَ هُمْ وُزَرَاءُ صَلَاحِ الدِّينِ وَمُسْتَشَارُوهُ وَقَادَةُ جَيْشِهِ.

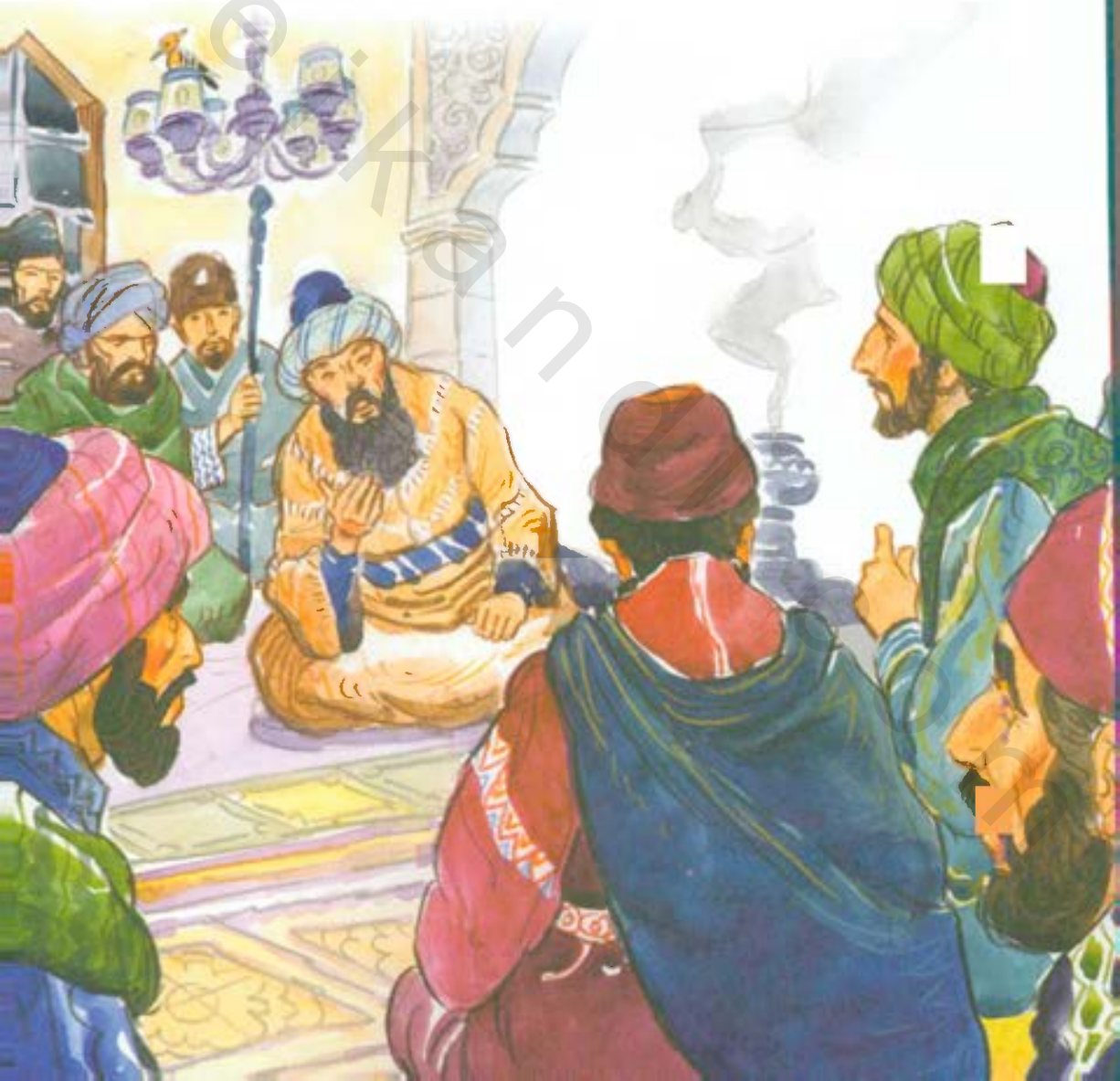

# صَرْخَةُ النَّار

وَبَيْنَمَا يُحَاوِلُ الْهُدْهُدُ أَنْ يَفْتَحَ أُذُنَيْهِ إِلَى آخِرِهَا لِكَيْ يَسْمَعَ، ارْتَجَّ الْمَسْجِدُ بِصَرْخَةٍ مُدَوِّيَةٍ، كَادَتْ تُوقِعُهُ مِنْ فَوْقِ الثُّرَيَّا!!

ـ يَا يُوسُفُ بْنَ أَيُّوبَ!!

الْتَفَتَ الْهُدْهُدُ مَفْزُوعًا، فَإِذَا بِهَذَا الصَّوْتِ الرَّهِيبِ، صَادِرٌ مِنِ امْرَأَةٍ عَجُوزٍ، ضَئِيلَةِ الْحَجْمِ، تَلْبَسُ أَثْمَالاً بَالِيَةً، وَفِي يَدِهَا غُصْنُ شَجَرَةٍ تَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ، وَتَمْشِي بِبُطْءٍ بِاتِّجَاهِ مَجْلِسِ صَلاَحِ الدِّينِ، وَهِيَ تَصْرُخُ غَاضِبَةً مِثْلَ جَمْرَةٍ مُشْتَعِلَةٍ!!

ـ يَا يُوسُفُ بْنَ أَيُّوبَ!!

كَيْفَ مَرَّتْ مِنْ بَيْنِ الْحُرَّاسِ الْوَاقِفِينَ بِالْخَارِجِ؟! وَكَيْفَ دَخَلَتْ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ الْمُغْلَقَةِ؟! وَكَيْفَ لَمْ يَلْحَظْهَا أَحَدٌ عِنْدَمَا دَخَلَتْ، وَلاَ وَهِيَ تَسِيرُ كُلَّ هَذِهِ الْمَسَافَةِ، حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى صَحْنِ الْمَسْجِدِ؟! لِدَرَجَةِ أَنَّ الْهُدْهُدَ تَمَلَّكَهُ شُعُورٌ غَرِيبٌ أَنَّهَا لَمْ تَدْخُلْ مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ، بَلْ إِنَّ الأَرْضَ انْشَقَّتْ فَجْأَةً، وَأَخْرَجَتْهَا مِثْلَ الْحِمَمِ الْبُرْكَانِيَّةِ!!

انْتَفَضَ صَلاَحُ الدِّينِ وَرِجَالُهُ وَاقِفِينَ، وَقَدْ عَقَدَتِ الدَّهْشَةُ أَلْسِنَتَهُمْ لِلَحْظَةٍ وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا، ثُمَّ شَرَعَ بَعْضُهُمْ يَزْعَقُ فِيهَا، وَيَسْأَلُهَا: مَنْ أَنْتِ؟ وَكَيْفَ دَخَلْتِ؟ وَكَيْفَ وَصَلْتِ إِلَى هُنَا؟! وَلَكِنَّ صَلاَحَ الدِّينِ أَشَارَ إِلَيْهِمْ بِيَدِهِ، دُونَ أَنْ يُحَوِّلَ بَصَرَهُ عَنْهَا، فَصَمَتُوا، وَوَقَفُوا مُتَسَمِّرِينَ فِي أَمَاكِنِهِمْ، ثُمَّ اتَّجَهَ إِلَيْهَا، وَقَدْ زَالَتْ عَنْ وَجْهِهِ مَلاَمِحُ الْجِدِّيَّةِ وَالتَّجَهُّمِ، وَاقْتَرَبَ مِنْهَا رَقِيقًا مُتَوَاضِعًا، بِوَجْهٍ



obeikandl.com

سَمِعَ بَشُوشٌ، وَصَوْتٍ عَطُوفٍ، يَقُولُ لَهَا: لَبَّيْكِ يَا أُمُّ.

- أَأَنْتَ يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ!!؟

- نَعَمْ، أَنَا الْعَبْدُ الضَّعِيفُ الْفَقِيرُ إِلَى الله .

- لِمَاذَا تُعِدُّ الْعُدَّةَ لِقِتَالِ الصَّلِيبِيِّينَ، يَابْنَ أَيُّوبَ؟

- لأَرْفَعَ الظُّلْمَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَنِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ أَتْبَاعِ كُلِّ دِينٍ.

- كَيْفَ، وَأَنْتَ مَنْ يَظْلِمُهُمْ، وَيَقْهَرُهُمْ، يَا صَلاَحَ الدِّينِ!!

تَغَيَّرَ وَجْهُ صَلاَحِ الدِّينِ، وَنَفَرَ عِرْقُ الْغَضَبِ فِي حَبِينِهِ، فَهَمَّ بَعْضُ الْوَاقِفِينَ يُرِيدُ أَنْ يَفْتِكَ بِالْمَرْأَةِ الْعَجُوزِ، أَوْ يَقْبِضَ عَلَيْهَا فَيُلْقِيهَا خَارِجَ الْمَسْجِدِ، وَلَكِنَّهُ أَشَارَ إِلَيْهِمْ بِيَدِهِ، وَهُوَ يَقْتَرِبُ مِنْهَا أَكْثَرَ، وَقَدِ ازْدَادَ حُنُوًّا وَعَطْفًا، وَقَالَ لَهَا: كَيْفَ أَظْلِمُهُمْ يَا أُمُّ؟!

قَالَتِ الْمَرْأَةُ بِصَوْتِهَا النَّارِيِّ: أَعْلَمُ أَنَّكَ سَتُلْقِي بِي فِي ظُلُمَاتِ سِجْنِكَ، كَمَا فَعَلَ بِي مَنْ سَبَقُوكَ، وَلَكِنِّي عَاهَدْتُ اللهَ أَلاَّ أَسْكُتَ عَنْ كَلِمَةِ حَقٍّ أَقُولُهَا فِي وَجْهِ حَاكِمٍ ظَالِمٍ، وَأَنْتَ ظَالِمٌ يَابْنَ أَيُّوبَ، سُجُونُكَ مَمْلُوءَةٌ بِالأَبْرِيَاءِ، وَجُنُودُكَ يَقْتَحِمُونَ كُلَّ بَيْتٍ لِكَيْ يُحَصِّلُوا الضَّرَائِبَ الَّتِي فَرَضْتَهَا غَصْبًا عَلَى الْفُقَرَاءِ، ضَرَائِبَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ غَيْرُ الْهَوَاءِ الَّذِي يَتَنَفَّسُهُ الْفُقَرَاءُ، وَلاَ يَدْفَعُونَ عَنْهُ ضَرِيبَةً. لَمْ يَبْقَ لَكَ إِلاَّ أَنْ تُحْصِيَ عَلَى النَّاسِ أَنْفَاسَهُمْ يَابْنَ أَيُّوبَ!! وَتُرِيدُ أَنْ تُوَاجِهَ الصَّلِيبِيِّينَ؟!

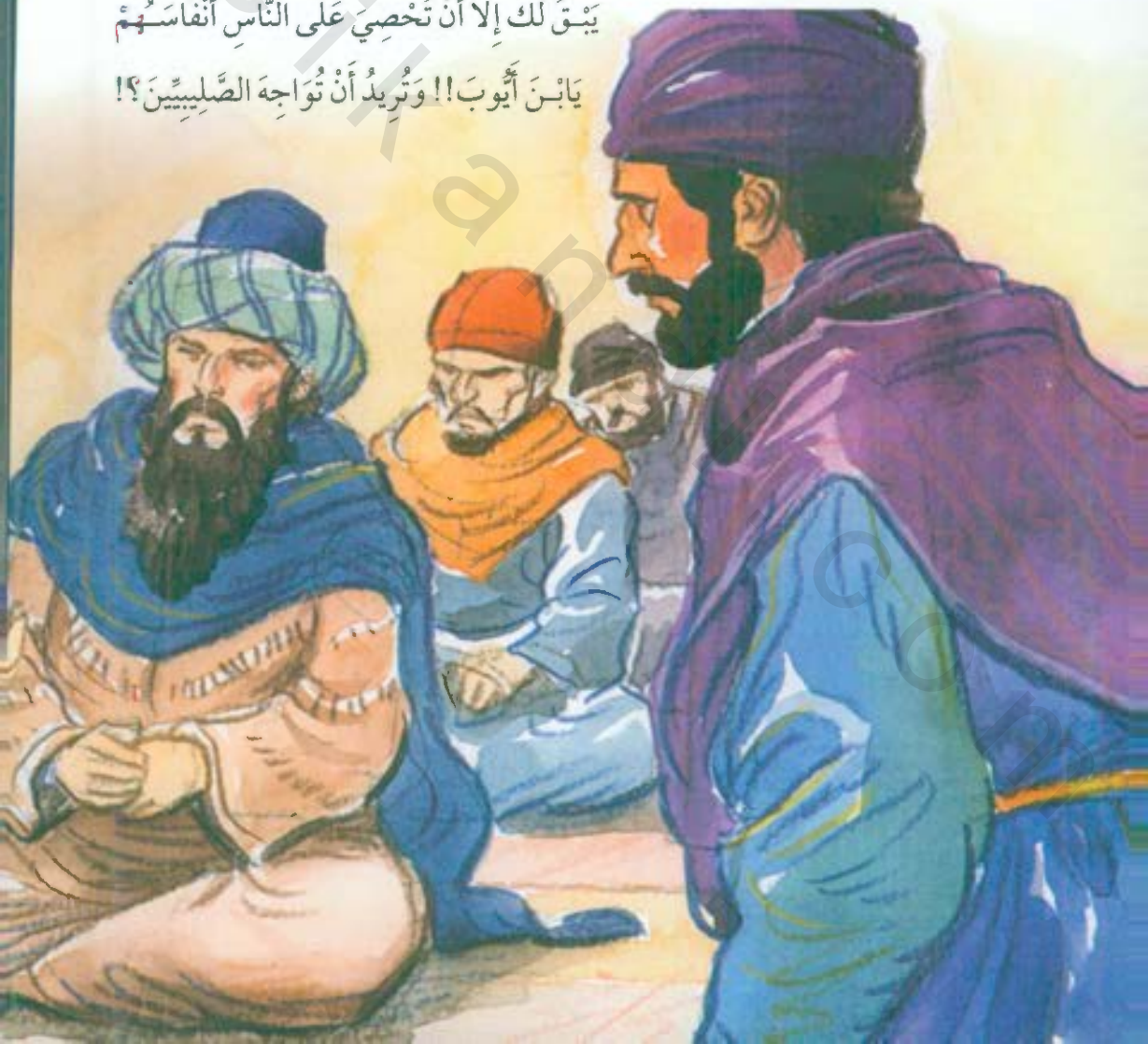

تُواجِهُهُمْ بِمَنْ؟! تُواجِهُهُمْ بِالرِّجالِ الَّذينَ أَفْقَرْتَهُمْ، وَسَجَنْتَهُمْ، وَأَحْنَيْتَ رُؤُوسَهُمْ ذُلاً وَخُضُوعًا؟! فَهَلْ تَنْتَصِرَ بِالأَذِلَّاءِ؟! لا، لَنْ تَنْتَصِرَ يَابْنَ أَيُّوبَ، لَنْ تَنْتَصِرَ!!

اِمْتَقَعَ وَجْهُ صَلاحِ الدِّينِ، وَاحْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْعَجُوزِ الْمِسْكِينَةِ، الَّتِي تُوَاجِهُهُ مِثْلَ جَمْرَةِ نَارٍ مُشْتَعِلَةٍ. ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى رِجَالِهِ، فَإِذَا بِهِمْ جَمِيعًا مُنْكَمِشِينَ مَذْعُورِينَ، يَنْظُرُونَ إِلَى الأَرْضِ!!

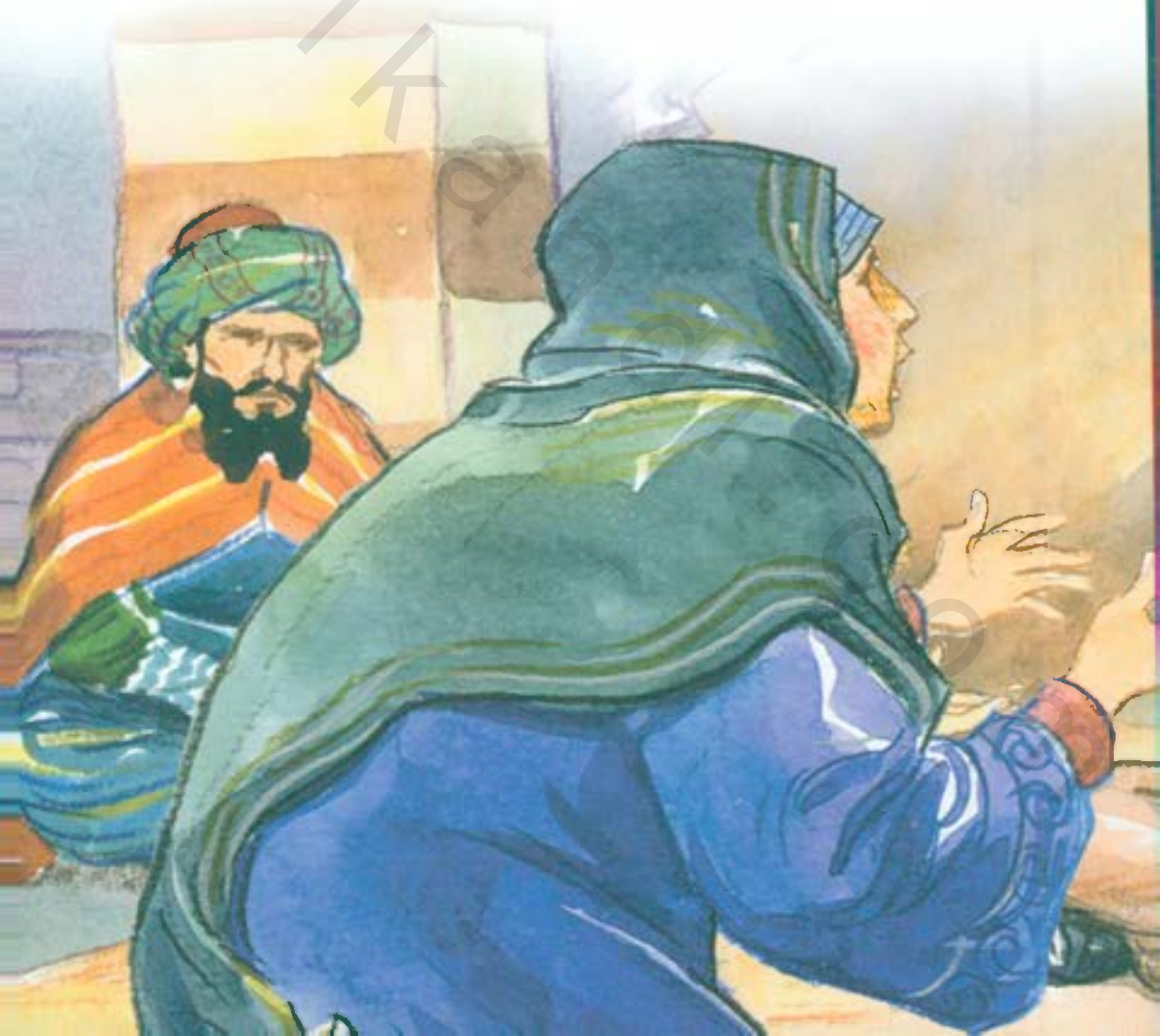

لَحْظَةُ صَمْتٍ رَهِيبٍ، يَقْطَعُهَا، فَجْأَةً، صَوْتُ صَلاَحِ الدِّينِ، مِثْلَ سَيْفٍ حَادٍّ، شَعَرَ بِهِ الْهُدْهُدُ، وَكَأَنَّهُ يَشُقُّ قُبَّةَ الْمَسْجِدِ، وَيَخْرُجُ مُجَلْجِلاً إِلَى السَّمَاءِ، وَهُوَ يَصْرُخُ فِي رِجَالِهِ: مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ مَنْ أَمَرَ بِهَذَا؟

وَيَعُودُ الصَّمْتُ الرَّهِيبُ، تَقْطَعُهُ الْعَجُوزُ بِصَوْتٍ حَزِينٍ سَاخِرٍ:

إِنْ كُنْتَ لاَ تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ

أَوْ كُنْتَ تَدْرِي، فَالْمُصِيبَةُ أَعْظَمُ!!

ظَلَّ صَلاَحُ الدِّينِ فِي مَكَانِهِ مُتَحَفِّزًا، يَصُبُّ عَلَيْهِمْ مِنْ عَيْنَيْهِ نَارَ غَضَبِهِ، مِثْلَ أَسَدٍ جَرِيحٍ يَلْتَقِطُ أَنْفَاسَهُ اللاَّهِثَةَ، قَبْلَ أَنْ يَبْطِشَ بَطْشَةَ جَبَّارٍ، وَقَالَ لَهُمْ بِصَوْتٍ آمِرٍ مُخِيفٍ، مِثْلِ الزَّئِيرِ، مَشْحُونٍ بِالْوَعِيدِ: الآنَ، تُهْدَمُ كُلُّ السُّجُونِ، وَيُفْرَجُ عَنْ كُلِّ مَنْ فِيهَا، وَتُلْغَى الضَّرَائِبُ عَنِ الْفُقَرَاءِ، وَلاَ يَدْخُلُ الْجُنُودُ بَيْتًا إِلاَّ بِأَمْرِ الْقَاضِي. ثُمَّ صَرَخَ فِيهِمْ: انْصَرِفُوا. وَنَفِّذُوا الآنَ، فَوْرَ، وَأَعْلِنُوا ذَلِكَ لِلنَّاسِ جَمِيعًا، انْصَرِفُوا. فَجَرَى الْجَمِيعُ، صَغِيرُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ، مُسْرِعِينَ، خَارِجِينَ مِنَ الْمَسْجِدِ، وَصَلاَحُ الدِّينِ يَجْلِدُ ظُهُورَهُمْ بِنَظَرَاتِهِ الْغَاضِبَةِ!!

أَمَّا الْعَجُوزُ، فَكَانَتْ، فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، قَدْ تَحَوَّلَتْ مِنْ جَمْرَةٍ مُشْتَعِلَةٍ، إِلَى جَمْرَةٍ أَطْفَأَهَا الْمَاءُ!! وَهِيَ

الآنَ مُنْكَمِشَةٌ بَائِسَةٌ ضَعِيفَةٌ، تَبْكِي مِثْلَ أُمٍّ، وَتَمْسَحُ دُمُوعَهَا بِكُمِّ جِلْبَابِهَا، وَتَقُولُ وَهِيَ مَحْنِيَّةُ الرَّأْسِ، وَكَأَنَّهَا تُكَلِّمُ نَفْسَهَا:

أَعَزَّكَ الله يَا وَلَدِي، وَأَعَزَّ بِكَ الإِسْلاَمَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَنَصَرَ بِكَ الْحَقَّ وَالْعَدْلَ، وَأَنْصَفَ بِكَ الْمَقْهُورِينَ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ.

وَبِشَهَامَةِ الْفَارِسِ النَّبِيلِ، يَنْحَنِي صَلاَحُ الدِّينِ لِلْمَرْأَةِ الْعَجُوزِ، وَهُوَ يَقُولُ بِصَوْتٍ تَخْنُقُهُ الْعَبَرَاتُ: سَامِحِينِي يَا أُمُّ، سَامِحِينِي، وَاطْلُبِي لِيَ الْمَغْفِرَةَ مِنْ رَبِّ الْغُفْرَانِ، فَقَدْ شَغَلَنِي الْجِهَادُ عَنْ شُؤُونِ النَّاسِ، وَمَا الْجِهَادُ إِلاَّ مِنْ أَجْلِ كَرَامَةِ النَّاسِ، فَيَا وَيْلِي مِنْ غَضَبِ الله!

وَلاَ يَمْلِكُ الْهُدْهُدُ نَفْسَهُ، فَيُجْهِشُ بِالْبُكَاءِ، وَتَتَسَاقَطُ دُمُوعُهُ الصَّغِيرَةُ عَلَى نُحَاسِ الثُّرَيَّا. وَلاَ تَتَمَالَكُ الْعَجُوزُ نَفْسَهَا، فَتَنْهَارُ عَلَى الأَرْضِ، فَيُسْنِدُهَا صَلاَحُ الدِّينِ بِيَدَيْهِ الْحَانِيَتَيْنِ، حَتَّى تَجْلِسَ. وَيَجْلِسُ هُوَ أَمَامَهَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَالدُّمُوعُ تَلْمَعُ فِي عَيْنَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: لَوْ مَنَحْتُكِ نِصْفَ عُمُرِي مَا كَافَأْتُكِ، يَا مَنْ نَجَّيْتِنِي مِنْ غَضَبِ الله وَعَذَابِهِ.

فَتَقُولُ الْعَجُوزُ بِصَوْتِهَا الْبَاكِي: بَلْ يَا لَيْتَنِي أَمْلِكُ أَنْ أَهَبَ لَكَ عُمُرِي كُلَّهُ يَا وَلَدِي.

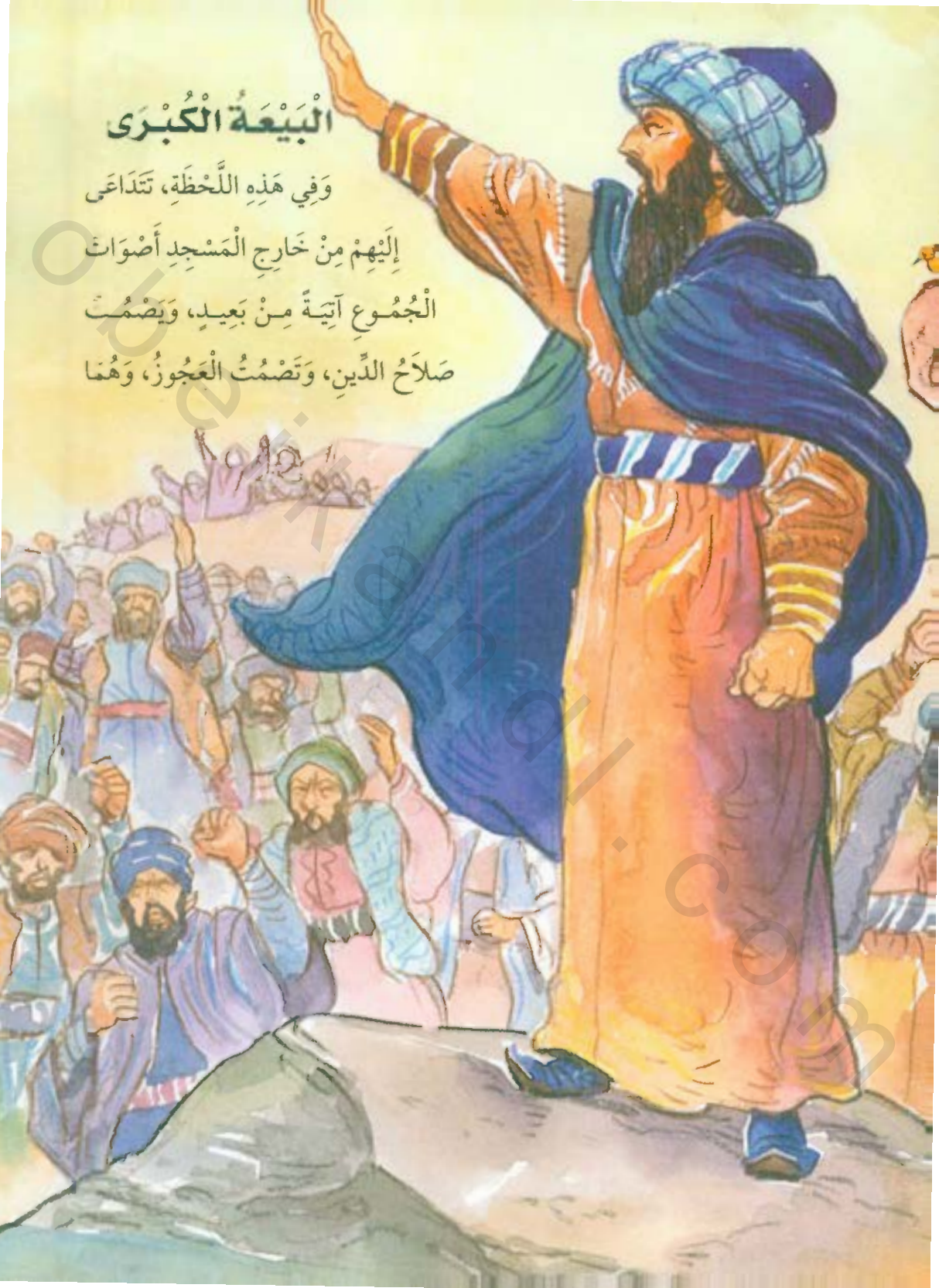

## الْبَيْعَةُ الْكُبْرَى

وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، تَتَدَاعَى
إِلَيْهِمْ مِنْ خَارِجِ الْمَسْجِدِ أَصْوَاتُ
الْجُمُوعِ آتِيَةً مِنْ بَعِيدٍ، وَيَصْمُتُ
صَلاَحُ الدِّينِ، وَتَصْمُتُ الْعَجُوزُ، وَهُمَا

يَسْمَعَانِ الصَّيْحَاتِ وَالْهُتَافَاتِ تَتَعَالَى، وَتَقْتَرِبُ: عَاشَ صَلاَحُ الدِّينِ... عَاشَ صَلاَحُ الدِّينِ... عَاشَ السُّلْطَانُ الْعَادِلُ... عَاشَ السُّلْطَانُ النَّاصِرُ!!

وَتَقُولُ الْعَجُوزُ، وَقَدْ تَهَلَّلَ وَجْهُهَا بِالْبُشْرَى: هَكَذَا تَسْتَطِيعُ قَهْرَ الصَّلِيبِيِّينَ يَا وَلَدِي، هَكَذَا تَسْتَطِيعُ؛ فَلَيْسَ السُّلْطَانُ الْقَوِيُّ، مَنْ يُخْضِعُ رِقَابَ النَّاسِ بِالسَّيْفِ وَالْمَذَلَّةِ، بَلْ مَنْ يَمْلِكُ قُلُوبَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ. وَهَا هِيَ الْبِدَايَةُ؛ قُلُوبُ النَّاسِ مَعَكَ، فَكُنْ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّهِمْ بِكَ، كُنِ ابْنًا لِكَبِيرِهِمْ، وَأَبًا لِصَغِيرِهِمْ، وَأَخًا لِشَبَابِهِمْ، وَلاَ تَجْعَلْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَكَ حِجَابًا؛ فَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَا وَلَدِي لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ. فَاتَّقِ اللهَ فِيهِمْ حَتَّى تَنَالَ تَأْيِيدَهُ وَرِضَاهُ، فَمَا النَّصْرُ يَا وَلَدِي إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ. اِنْهَضْ يَا وَلَدِي، اِنْهَضْ وَاخْرُجْ لِلنَّاسِ الَّذِينَ جَاءُوا يُبَايِعُونَكَ، وَيُعَلِّقُونَ عَلَيْكَ الأَمَلَ بَعْدَ اللهِ.

وَيَنْهَضُ صَلاَحُ الدِّينِ، وَيَتَقَدَّمُ بِخُطُوَاتٍ بَطِيئَةٍ نَحْوَ الْبَابِ، لِيَخْرُجَ إِلَى النَّاسِ، وَهُوَ يَشْعُرُ أَنَّ قَدَمَيْهِ لاَ تَلْمِسَانِ الأَرْضَ!!

وَيَنْطَلِقُ الْهُدْهُدُ خَارِجًا مِنْ شُبَّاكِ الْمَسْجِدِ، وَعِنْدَمَا يَرَى الْجُمُوعَ الْحَاشِدَةَ، تَمْلَؤُهُ النَّشْوَةُ، وَتَتَمَلَّكُهُ الرَّغْبَةُ الْعَارِمَةُ فِي أَنْ يَطِيرَ وَيَطِيرَ، حَتَّى يَصِلَ إِلَى السَّحَابِ.

# احْتِفَالُ الهُدْهُد

وَهَـذَا مَا صَنَعَهُ فِعْلاً، فَقَدِ انْطَلَقَ طَائِرًا مِنْ فَوْقِ الْجُمُوعِ، مُرْتَفِعًا إِلَى الأَعْلَى، وَلاَ زَالَ يُرَفْرِفُ وَيُرَفْرِفُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى أَقْصَى ارْتِفَاعٍ يَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ إِلَيْهِ، ثُـمَّ ضَمَّ جَنَاحَيْهِ، وَتَرَكَ جِسْمَهُ يَهْوِي، وَهُوَ يَدُورُ وَيَتَقَلَّبُ فِي الْفَضَاءِ، بِحَرَكَاتٍ بَهْلَوَانِيَّةٍ عَجِيبَةٍ، شَاعِرًا أَنَّ كُلَّ هَؤُلاَءِ النَّاسِ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَيُتَابِعُونَ حَرَكَاتِهِ بِدَهْشَةٍ وَإِعْجَابٍ، وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ أَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ لَمْ يَكُنْ يُلاَحِظُهُ، أَوْ يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، فَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، كَانَتْ قُلُوبُ النَّاسِ وَعُيُونُهُمْ شَاخِصَةً إِلَى صَلاَحِ الدِّينِ، الَّذِي يَقِفُ أَمَامَهُمُ الآنَ، يُحَدِّثُهُمْ حَدِيثَ الْقَلْبِ إِلَى الْقَلْبِ.

لَمْ يَلْتَفِتْ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ إِلَى الْهُدْهُدِ، الَّذِي ظَلَّ يُؤَدِّي حَرَكَاتِهِ الْبَهْلَوَانِيَّةَ بِكُلِّ حَمَاسَةٍ وَإِخْلاَصٍ، وَنَسِيَ نَفْسَهُ، وَلَمْ يَنْتَبِهْ إِلَى أَنَّهُ يَقْتَرِبُ مِنَ الأَرْضِ!!

وَلَوْلاَ أَنَّ الله لَطَفَ بِهِ، فَسَقَطَ عَلَى شَجَرَةٍ أَغْصَانُهَا مُتَشَابِكَةٌ لَيِّنَةٌ، لَكَانَ هَذَا الْعَرْضُ قَدِ انْتَهَى بِمَأْسَاةٍ تُودِي بِحَيَاةِ الْهُدْهُدِ، وَلانْقَطَعَتْ عَنَّا أَخْبَارُ أَهَمِّ انْتِصَارٍ حَقَّقَهُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الصَّلِيبِيِّينَ الْمُعْتَدِينَ فِي تَارِيخِهِمْ كُلِّهِ!!

تَرَكَتِ السَّقْطَةُ نُدْبَةً سَوْدَاءَ عَلَى الْجَانِبِ الأَيْمَنِ مِنْ مِنْقَارِ الْهُدْهُدِ، وَخَلَّفَتْ أَلَمًا فِي كَتِفِهِ الأَيْسَرِ، ظَلَّ يُلاَزِمُهُ طَوَالَ حَيَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَلْتَفِتُ إِلَى كُلِّ ذَلِكَ أَوْ يَهْتَـمُّ بِـهِ، فَقَدْ كَانَ يَمْلَؤُهُ الشُّـعُورُ بِأَنَّهُ، فِي هَذَا الْيَوْمِ، وُلِـدَ مَوْلِدًا جَدِيدًا، وَكَانَ

يَقُولُ دَائِمًا: فِي هَذَا الْيَوْمِ، مَحَا الله مِنْ قَلْبِي كُلَّ أَحْزَانِ الْمَاضِي، وَوَضَعَ مَكَانَهَا الأَمَلَ وَالتَّفَاؤُلَ!!

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، لَمْ يُفَارِقِ الْهُدْهُدُ صَلاَحَ الدِّينِ لَحْظَةً وَاحِدَةً، فَقَدْ كَانَ يُرَافِقُهُ وَهُوَ يَصِلُ اللَّيْلَ بِالنَّهَارِ، لِيُتَابِعَ بِنَفْسِهِ بِنَاءَ الْجَيْشِ، وَتَدْرِيبَاتِهِ وَاسْتِعْدَادَاتِهِ، وَيُشْرِفُ عَلَى حَرَكَةِ الإِصْلاَحِ وَالْبِنَاءِ الدَّاخِلِيِّ، دُوْنَ أَنْ يَنْسَى وَاجِبَاتِهِ كَحَاكِمٍ عَادِلٍ، يَهْتَمُّ بِأَدَقِّ شُؤُونِ النَّاسِ، وَيَسْتَمِعُ إِلَى شَكَاوَاهُمْ، وَيَرُدُّ عَنْهُمُ الْمَظَالِمَ، وَيُقِيمُ بَيْنَهُمُ الْعَدْلَ، وَكَانَ فِي كُلِّ ذَلِكَ مِثَالاً لِلْقَائِدِ الشُّجَاعِ الصُّلْبِ، وَلِلسُّلْطَانِ الْحَكِيمِ الْعَادِلِ، الَّذِي لاَ يَظْهَرُ مِنْهُ لِلنَّاسِ إِلاَّ جَانِبُ الْقُوَّةِ وَالصَّلابَةِ وَالْحَزْمِ.

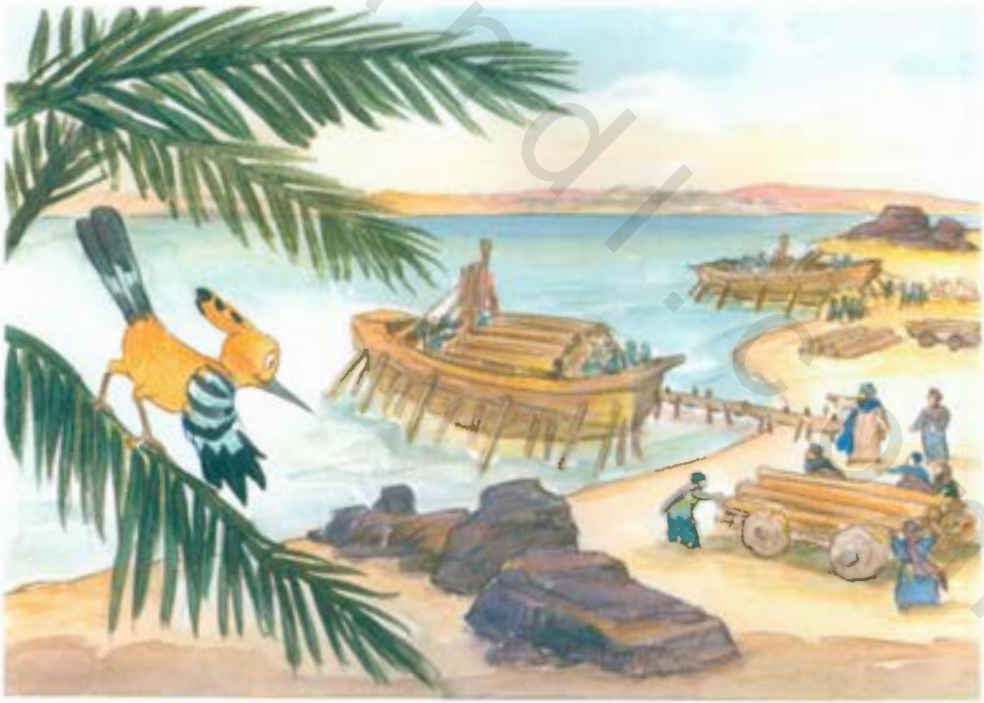

# الأَسَدُ الرَّقِيق

أَمَّا الْهُدْهُدُ فَهُوَ مَنْ كَانَ يَعْرِفُ رِقَّةَ قَلْبِ هَذَا الأَسَدِ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَرَاهُ فِي اللَّحَظَاتِ الَّتِي يَتَحَوَّلُ فِيهَا إِلَى إِنْسَانٍ ضَعِيفٍ، كَثِيرِ الْبُكَاءِ مِثْلِ طِفْلٍ، كُلَّمَا خَلاَ إِلَى نَفْسِهِ، وَوَقَفَ أَمَامَ الله خَاشِعًا ذَلِيلاً، يُصَلِّي، وَيَدْعُو، وَيَبْتَهِلُ، وَكَانَ دُعَاؤُهُ دَائِمًا: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ الضَّعِيفُ، فَلاَ تَخْذُلْنِي أَمَامَ أَعْدَائِكَ. ثُمَّ تَنْهَمِرُ مِنْهُ الدُّمُوعُ!!

وَأَكْثَرُ مَرَّةٍ رَآهُ فِيهَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، كَانَتْ عِنْدَمَا أَعْلَنَ أَحَدُ مُلُوكِ الصَّلِيبِيِّينَ أَنَّهُ سَيَقُودُ جَيْشَهُ لاحْتِلاَلِ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ وَالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ!!

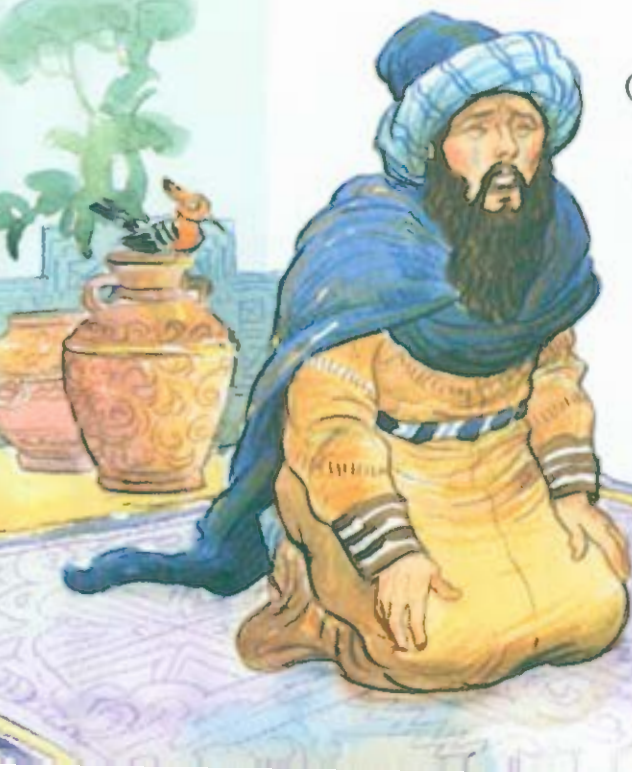

كَانَ هَذَا الصَّلِيبِيُّ وَاسْمُهُ (أَرْنَاطُ) مَلِكًا عَلَى مَدِينَةِ (الْكَرَكِ)، وَكَانَ مَغْرُورًا أَحْمَقَ، شَدِيدَ الْكَرَاهِيَةِ وَالْحِقْدِ عَلَى الإِسْلاَمِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ خَائِنًا لِعَهْدِهِ مَعَ صَلاَحِ الدِّينِ؛ فَهُوَ وَاحِدٌ

مِـنَ الْمُلُوكِ الصَّلِيبِيِّينَ الَّذِيـنَ عَقَدُوا مَعَهُ هُدْنَةً مُدَّتُهَا أَرْبَعُ سَـنَوَاتٍ، وَهَا هُوَ الآنَ يُرِيدُ خَرْقَ هَذِهِ الْهُدْنَةِ، لَيْسَ فَقَطْ، بَلْ إِنَّهُ يُرِيدُ الاعْتِدَاءَ عَلَى أَقْدَسِ بِقَاعِ الأَرْضِ؛ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَهُوَ مَا جَعَلَ صَلاَحَ الدِّينِ يَصْرُخُ مِثْلَ أَسَدٍ جَرِيحٍ: إِلاَّ هَذِهِ يَا عَدُوَّ الله، وَالله لَوْ فَعَلَهَا لَنُقَاتِلَنَّهُ حَتَّى آخِرِ قَطْرَةٍ مِنْ دِمَائِنَا!!

وَكَانَ صَـلاَحُ الدِّينِ فِي قَسَـمِهِ هَذَا يُعَبِّرُ عَـنِ الْغَضَبِ الَّذِي يَغْلِي فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ، حَتَّى الْهُدْهُدُ نَفْسُهُ كَانَ يَشْعُرُ أَنَّ قَلْبَهُ سَيَخْرُجُ مِنْ صَدْرِهِ مِنْ شِدَّةِ الانْفِعَالِ وَالْحَمَاسَـةِ وَهُـوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَقَدْ رَفَعَ سَـيْفَهُ عَالِيًـا، وَوَقَفَ أَمَامَ النَّـاسِ وَقْفَةَ الْقَائِدِ الْبَطَلِ الشَّـامِخِ، يُقْسِـمُ عَلَى الدِّفَاعِ عَنِ الْحَرَمَيْنِ الشَّـرِيفَيْنِ بِدَمِـهِ وَرُوحِهِ، وَيَأْمُرُ النَّاسَ بِالاسْتِعْدَادِ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ الله.

هَكَـذَا كَانَ صَـلاَحُ الدِّينِ جَبَلاً شَـامِخًا أَمَـامَ النَّاسِ، وَظَلَّ هَكَـذَا وَالْهُدْهُدُ يُتَابِعُـهُ بِـكُلِّ الْحُـبِّ وَالانْبِهَارِ، حَتَّـى دَخَلَ بَيْتَهُ، وَانْفَرَدَ بِنَفْسِـهِ، فَوَقَـفَ لَهُ عَلَى الشُّـبَّاكِ، لِيَـرَى مِنْهُ مَا يَزِيدُهُ حُبًّا وَانْبِهَارًا فَهَاهُوَ مَـنْ كَانَ أَمَامَ النَّاسِ جَبَلاً، يَعُودُ أَمَامَ الله طِفْلاً ضَعِيفًا خَائِفًا، يَخِرُّ عَلَى الأَرْضِ سَاجِدًا، وَهُوَ يَبْكِي، وَيَبْتَهِلُ إِلَى اللـهِ وَيَرْجُـوهُ أَنْ يُعِينَهُ وَيَنْصُرَهُ عَلَـى عَدُوِّهِ الْجَبَّارِ، وَأَنْ يَحْفَظَ دِمَاءَ الْمُسْـلِمِينَ وَدِمَاءَ جَمِيعِ الأَبْرِيَاءِ.

# الصَّبْرُ الْمُر

كَانَ صَلاحُ الدِّينِ يَعْلَمُ جَيِّدًا أَنَّ قُوَّةَ عَدُوِّهِ الْمَغْرُورِ، تَتَفَوَّقُ كَثِيرًا عَلَى قُوَّتِهِ. وَيَعْرِفُ أَنَّ عَدُوَّهُ الْخَبِيثَ يُرِيدُ بِعَمَلِهِ هَذَا أَنْ يُفَوِّتَ عَلَيْهِ فُرْصَةَ اسْتِغْلالِ سَنَوَاتِ الْهُدْنَةِ الأَرْبَعِ فِي تَدْرِيبِ جَيْشِهِ وَتَجْهِيزِهِ. لِذَا يُرِيدُ أَنْ يُوَرِّطَهُ الآنَ فِي مَعْرَكَةٍ غَيْرِ مُتَكَافِئَةٍ، يَعْلَمُ جَيِّدًا أَنَّ صَلاحَ الدِّينِ لَنْ يَتَأَخَّرَ عَنْ خَوْضِهَا دِفَاعًا عَنْ أَقْدَسِ مُقَدَّسَاتِهِ حَتَّى لَوْ كَلَّفَتْهُ حَيَاتَهُ، بَلْ إِنَّهَا حَتْمًا سَتُكَلِّفُهُ حَيَاتَهُ، وَحَيَاةَ الآلافِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

فِيمَا تَلا ذَلِكَ مِنَ الأَيَّامِ، كَثَّفَ صَلاحُ الدِّينِ جُهُودَهُ، وَاسْتَخْدَمَ كُلَّ حِيَلِهِ وَدِعَايَتِهِ، فِي الإِيحَاءِ لأَرْنَاطَ أَنَّ إِمْدَادَاتٍ كَثِيرَةً قَدْ جَاءَتْهُ مِنْ كُلِّ بِلادِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّ قُوَّاتٍ كَثِيرَةً قَدْ بَدَأَتْ تَتَحَرَّكُ، لِتُدَافِعَ عَنِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، فَخَافَ وَتَرَاجَعَ عَنْ تَهْدِيدِهِ. أَمَّا صَلاحُ الدِّينِ فَقَدِ اسْتَوْعَبَ الدَّرْسَ الْقَاسِيَ، وَمِنْ يَوْمِهَا لَمْ يَنَمْ!!

حَكَى الْهُدْهُدُ كَثِيرًا عَنْ صَلاحِ الدِّينِ، فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُرَدِّدُ بِدَهْشَةٍ وَانْبِهَارٍ: فِي هَذِهِ السَّنَوَاتِ، لا أَذْكُرُ أَنِّي رَأَيْتُ صَلاحَ الدِّينِ نَائِمًا، إِلاَّ لَحَظَاتٍ قَلِيلَةً، مُعْظَمُهَا كَانَ عَلَى حَصِيرِ الْمَسْجِدِ، بَعْدَ صَلاةِ الظُّهْرِ، وَفِي مُعْظَمِ هَذِهِ الْمَرَّاتِ، كَانَ هُنَاكَ مِنْ رِجَالِهِ وَمُسَاعِدِيهِ مَنْ يُوقِظُهُ لأَمْرٍ مُهِمٍّ!!

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُ هُوَ مَنْ أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ، فَقَدْ كَانَ شَدِيدَ الْحِرْصِ عَلَى أَنْ يُتَابِعَ بِنَفْسِهِ

تَلَّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ، فِي بِنَاءِ الْجَيْشِ وَتَدْرِيبِهِ
وَتَسْلِيحِهِ، وَإِصْلَاحِ أَحْوَالِ الْبِلَادِ الدَّاخِلِيَّةِ
بِنَاءِ الْمَدَارِسِ وَالْمُسْتَشْفَيَاتِ، وَشَقِّ التُّرَعِ،
إِنْشَاءِ الْمَصَانِعِ، وَتَمْهِيدِ الطُّرُقِ، وَتَوْفِيرِ الأَمْنِ،
بِنَاءِ الأَسْوَارِ وَالْقِلَاعِ وَالتَّحْصِينَاتِ وَالأَبْرَاجِ.

وَكَانَ يُرَدِّدُ دَائِمًا عَلَى مَسَامِعِ رِجَالِهِ: لَابُدَّ
أَنْ نُتِمَّ كُلَّ اسْتِعْدَادَاتِنَا قَبْلَ انْقِضَاءِ سَنَوَاتِ
الْهُدْنَةِ الأَرْبَعِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الصَّلِيبِيِّينَ،
لِكَيْ نَشْرَعَ فِي الْجِهَادِ مِنْ أَجْلِ
تَحْرِيرِ الْقُدْسِ.

وَكَانَ يُشَدِّدُ عَلَيْهِمْ فِي
الْقَوْلِ: سَتَكُونُ خُطْوَتُنَا
الأُولَى تَوْحِيدَ مِصْرَ وَالشَّامِ،
فَبِدُونِ تَوْحِيدِهِمَا لَنْ نَسْتَطِيعَ عَمَلَ شَيْءٍ؛ فَهُمَا مَعًا
مِثْلُ الْفَكَّيْنِ، وَبِدُونِ الْفَكَّيْنِ لَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نُطْبِقَ
عَلَى الصَّلِيبِيِّينَ، وَنُحَرِّرَ الْقُدْسَ.

# سَنُّ السُّيُوْف

قَبْلَ انْقِضَاءِ السَّنَوَاتِ الأَرْبَعِ، كَانَ صَلاَحُ الدِّينِ قَدْ أَتَمَّ اسْتِعْدَادَاتِهِ، وَوَحَّدَ مِصْرَ وَالشَّامَ تَحْتَ رَايَتِهِ، وَلَكِنَّهُ الْفَارِسُ الْمُسْلِمُ النَّبِيلُ، الَّذِي لاَ يَنْقُضُ عَهْدَهُ حَتَّى مَعَ أَعْدَائِهِ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَبْدَأْ بِالْهُجُومِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَتَحَرَّشْ بِهِمْ، وَظَلَّ مُنْتَظِرًا حَتَّى تَأْتِيَهُ الْفُرْصَةُ.

وَقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَ صَلاَحِ الدِّينِ، فَجَاءَتْهُ الْفُرْصَةُ دُونَ تَأْخِيرٍ، وَمِنَ الأَحْمَقِ الْمَغْرُورِ نَفْسِهِ، الْمَلِكِ الصَّلِيبِيِّ (أَرْنَاطَ)، مَلِكِ مَدِينَةِ الْكَرَكِ الْوَاقِعَةِ عَلَى الطَّرِيقِ بَيْنَ مِصْرَ وَالشَّامِ. فَقَدْ شَاءَ بِحَمَاقَتِهِ أَلاَّ يَتْرُكَ الصَّلِيبِيِّينَ يَنْعَمُونَ بِتِلْكَ الْهُدْنَةِ، وَأَنْ يُقَدِّمَ لِصَلاَحِ الدِّينِ الْمُبَرِّرَ الدِّينِيَّ وَالأَخْلاَقِيَّ لِكَيْ يَتَحَرَّرَ مِنْ عِبْءِ هَذِهِ الْمُعَاهَدَةِ الَّتِي تُقَيِّدُهُ. فَقَدْ أَقْدَمَ عَلَى عَمَلٍ طَائِشٍ نَقَضَ الْهُدْنَةَ وَأَشْعَلَ الْحَرْبَ، عِنْدَمَا اسْتَوْلَى عَلَى قَافِلَةٍ تِجَارِيَّةٍ مُتَّجِهَةٍ مِنْ مِصْرَ إِلَى دِمَشْقَ، وَأَسَرَ حَامِيَتَهَا وَرِجَالَهَا، وَأَلْقَى بِهِمْ أَسْرَى فِي حِصْنِ الْكَرَكِ.

حَاوَلَ صَلاَحُ الدِّينِ أَنْ يَتَذَرَّعَ بِالصَّبْرِ فَبَعَثَ إِلَى أَرْنَاطَ يَلُومُهُ عَلَى فِعْلِهِ، وَيُهَدِّدُهُ إِذَا لَمْ يَرُدَّ أَمْوَالَ الْقَافِلَةِ وَيُطْلِقْ سَرَاحَ الأَسْرَى. وَبَدَلاً مِنْ أَنْ يَسْتَجِيبَ أَرْنَاطُ أَسَاءَ الرَّدَّ، وَاغْتَرَّ بِقُوَّتِهِ، وَرَدَّ عَلَى رُسُلِ صَلاَحِ الدِّينِ بِكَلاَمٍ فِيهِ جَفَاءٌ وَكِبْرٌ وَتَحْقِيرٌ لَهُمْ وَلِصَلاَحِ الدِّينِ، وَقَدْ كَانَ الأَمْرُ يَهُونُ لَوْ وَقَفَ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، وَخُصُوصًا مَعَ صَلاَحِ الدِّينِ صَاحِبِ النَّفْسِ السَّامِيَةِ الْمُتَسَامِحَةِ الَّتِي تَغْفِرُ لِلنَّاسِ، وَتَتَسَامَحُ مَعَ هَفَوَاتِهِمْ، وَلَكِنْ أَنْ يُسِيءَ هَذَا الْمُتَعَجْرِفُ إِلَى الإِسْلاَمِ وَإِلَى نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ صَلَّى

الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَهَذَا مَا أَشْعَلَ الْغَضَبَ فِي قَلْبِ صَلاَحِ الدِّينِ، عِنْدَمَا سَمِعَهُ مِنْ رُسُلِهِ، فَهَبَّ صَارِخًا شَاهِرًا سَيْفَهُ، وَكَأَنَّهُ يَرَى أَرْنَاطَ أَمَامَهُ، وَيَصْرُخُ فِي وَجْهِهِ: إِلاَّ هَذَا يَا عَدُوَّ الله ، وَالله لأَقْتُلَنَّكَ بِسَيْفِي هَذَا!!

كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْمَرَّةَ الثَّانِيَةَ الَّتِي يَغْضَبُ فِيهَا صَلاَحُ الدِّينِ هَذِهِ الْغَضْبَةَ، وَيُطْلِقُ فِيهَا عَلَى (أَرْنَاطَ) لَقَبَ عَدُو الله ، وَالْمَرَّةَ الثَّانِيَةَ الَّتِي يُقْسِمُ فِيهَا عَلَى قَتْلِهِ، وَالْمَرَّةَ الثَّانِيَةَ الَّتِي يَرَاهُ فِيهَا الْهُدْهُدُ، وَهُوَ مُنْفَرِدٌ فِي غُرْفَتِهِ يَبْكِي فِي صَلاَتِهِ بُكَاءً شَدِيدًا، وَيَتَضَرَّعُ إِلَى الله أَنْ يَهَبَ لَهُ الصَّبْرَ وَالْعَوْنَ، وَالنَّصْرَ عَلَى عَدُوِّهِ.

وَشَعَرَ كَثِيرٌ مِنْ مُلُوكِ الصَّلِيبِيِّينَ وَكُبَرَائِهِمْ بِالْخَطَرِ، وَحَاوَلُوا أَنْ يَتَدَارَكُوا الْمَوْقِفَ، وَلَكِنَّ أَرْنَاطَ الْمُتَعَجْرِفَ أَصَرَّ عَلَى مَوْقِفِهِ، وَرَفَضَ إِعَادَةَ أَمْوَالِ الْقَافِلَةِ وَإِطْلاَقَ الأَسْرَى، فَزَادَ الأَمْرُ تَعْقِيدًا، وَلَمْ يَبْقَ أَمَامَ صَلاَحِ الدِّينِ سِوَى الْحَرْبِ وَالْقِصَاصِ.

obeikandl.com

# الْمَعْرَكَةُ الْكُبْرَى

عَبَّأَ صَلاَحُ الدِّينِ قُوَاهُ وَاسْتَعَدَّ لِمُنَازَلَةِ الصَّلِيبِيِّينَ وَخَوْضِ مَعْرَكَةِ الْجِهَادِ الْكُبْرَى الَّتِي ظَلَّ يُعِدُّ لَهَا سَنَوَاتٍ وَسَنَوَاتٍ مُنْتَظِرًا الْفُرْصَةَ.

وَلَمْ تَكُنْ تَصَرُّفَاتُ (أَرْنَاطَ) الْحَمْقَاءُ سِوَى مُبَرِّرٍ وَسَبَبٍ ظَاهِرِيٍّ لإِشْعَالِ حَمَاسَةِ صَلاَحِ الدِّينِ، وَإِعْلاَنِ الْحَرْبِ عَلَى الصَّلِيبِيِّينَ.

فِي دِمَشْقَ، تَجَمَّعَتْ جُيُوشُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مِصْرَ وَجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَمِنْ دِيَارِ بَكْرٍ وَحَلَبَ، وَمِنْ دِمَشْقَ انْطَلَقَتْ جَحَافِلُهَا، مُتَّجِهَةً إِلَى حِصْنِ الْكَرَكِ، فَحَاصَرَتْهُ. وَدَمَّرَتْهُ، وَفَرَّ أَرْنَاطُ مَذْعُورًا، لِيَلْجَأَ إِلَى مَلِكِ الصَّلِيبِيِّينَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ.

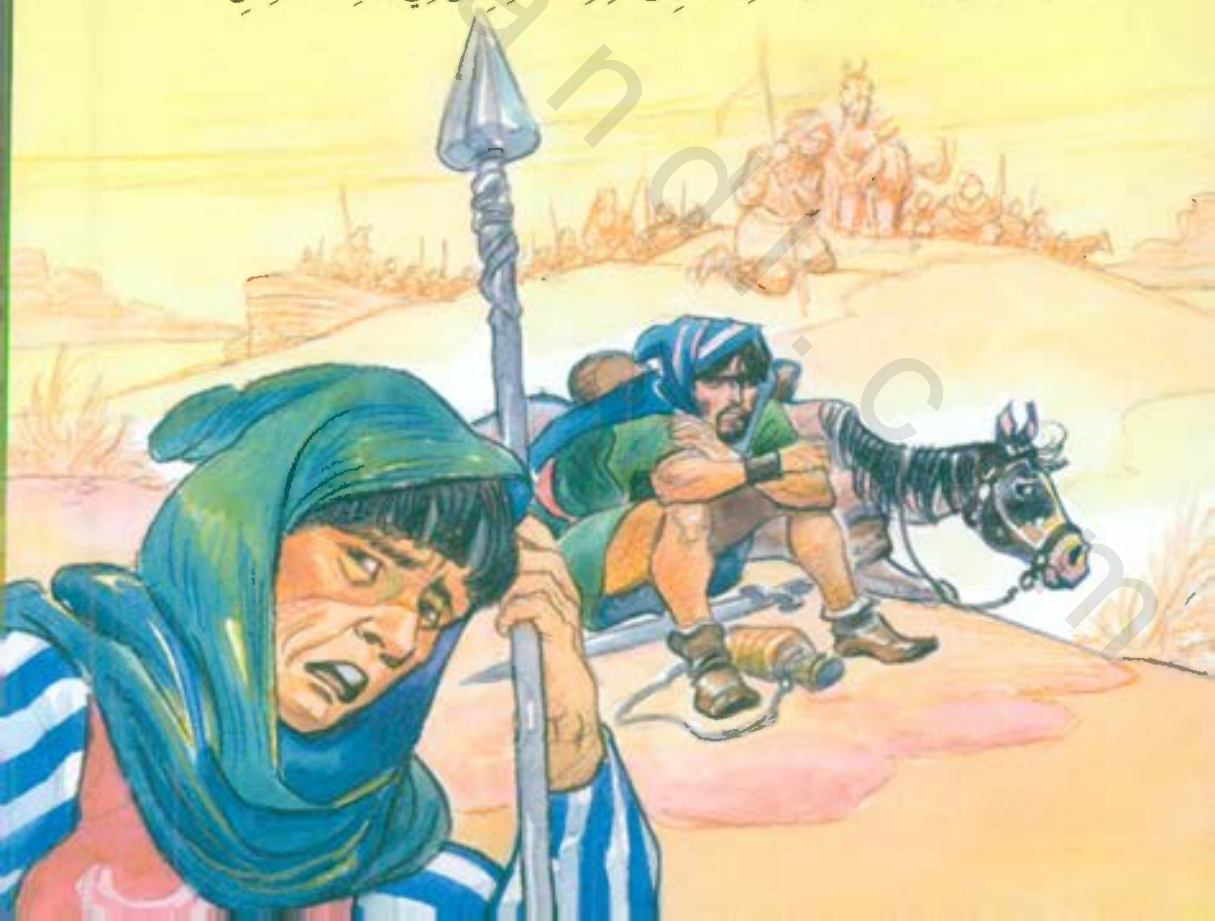

وَرَغْمَ أَنَّ صَلاَحَ الدِّينِ لَمْ يُعْلِنِ الْحَرْبَ إِلاَّ عَلَى أَرْنَاطَ، مُحْتَرِمًا الْمُعَاهَدَةَ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الآخَرِينَ، إِلاَّ أَنَّ بَقِيَّةَ مُلُوكِ الصَّلِيبِيِّينَ نَقَضُوا الْهُدْنَةَ مِنْ جَانِبِهِمْ، وَجَمَعُوا قُوَّاتِهِمْ فِي مَدِينَةِ صَفُّورِيَّةَ، تَحْتَ قِيَادَةِ مَلِكِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ مُعْلِنِينَ الْحَرْبَ عَلَى صَلاَحِ الدِّينِ. وَهَكَذَا هَيَّأَتِ الأَقْدَارُ لَهُ الْفُرْصَةَ، لِكَيْ يُحَقِّقَ حُلْمَهُ الْكَبِيرَ!!

وَقَفَ الْهُدْهُدُ عَلَى شُبَّاكِ الْقَاعَةِ الْكَبِيرَةِ يُتَابِعُ صَلاَحَ الدِّينِ، وَهُوَ يَشْرَحُ الْخُطَّةَ لِرِجَالِهِ، وَيَقُولُ:

- نُرِيدُ أَنْ نُجْبِرَهُمْ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ حُصُونِهِمْ وَالْمَسِيرِ إِلَيْنَا، حَتَّى نَدَّخِرَ قُوَّتَنَا، وَنَلْقَاهُمْ وَهُمْ مُتْعَبُونَ.
- وَلَكِنْ كَيْفَ نُجْبِرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ يَا سَيِّدِي؟!
- بَلَغَنِي أَنَّ زَوْجَةَ (رِيمُونْد) مَلِكِ طَرَابُلُسَ مَوْجُودَةٌ فِي قَلْعَةِ مَدِينَةِ طَبَرِيَّةَ. لِذَا سَنُهَاجِمُ مَدِينَةَ طَبَرِيَّةَ، فَيُضْطَرُّونَ لِلْخُرُوجِ إِلَيْنَا لإِنْقَاذِ مَلِكَتِهِمْ!!
- يَا لَهَا مِنْ فِكْرَةٍ!!
- سَلَّمَ اللهُ لِسَانَكَ يَا سَيِّدِي.

قَفَزَ الْهُدْهُدُ مِنْ مَكَانِهِ وَهُوَ يَهْتِفُ: اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّهَا فِكْرَتِي، وَكَمْ تَمَنَّيْتُ لَوْ كُنْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَهَا لِصَلاَحِ الدِّينِ، وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّ هُنَاكَ نَاسًا مُلْهَمُونَ، يَتَصَرَّفُونَ وَكَأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ الأَسْرَارَ مِثْلِي!!

# أَوَّلُ الانْتِصارَات

تَحَرَّكَتْ قُوَّاتُ صَلاحِ الدِّينِ، فَاقْتَحَمَتْ مَدِينَةَ طَبَرِيَّةَ اقْتِحامًا سَاحِقًا، وَضَرَبَتْ حِصَارًا مُشَدَّدًا عَلَى قَلْعَتِهَا، فَاسْتَبَدَّ الْغَضَبُ وَالذُّعْرُ بِمُلُوكِ الصَّلِيبِيِّينَ، الَّذِينَ اتَّمُّوا فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَعَقَدُوا اجْتِمَاعًا يُنَاقِشُونَ فِيهِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ عَمَلُهُ. وَبِالطَّبْعِ، كَانَ الْهُدْهُدُ حَاضِرًا هَذَا الاجْتِمَاعَ!!

بَعْضُ الصَّلِيبِيِّينَ فَهِمَ حِيلَةَ صَلاحِ الدِّينِ، وَطَلَبَ الانْتِظَارَ وَالتَّرَيُّثَ، مُحَذِّرًا مِنْ صُعُوبَةِ الطَّرِيقِ وَقِلَّةِ الْمَاءِ. وَبَعْضُهُمْ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ، وَاتَّهَمَ الآخَرِينَ بِالْجُبْنِ وَالضَّعْفِ، وَطَالَبَ بِسُرْعَةِ الْخُرُوجِ لِمُلاقَاةِ صَلاحِ الدِّينِ فِي طَبَرِيَّةَ. وَاحْتَدَّ بَيْنَهُمُ الْجِدَالُ، وَاحْتَدَمَ الْخِلافُ.

وَفِيما بَعْدُ، عِنْدَمَا كَانَ الْهُدْهُدُ يَحْكِي عَنْ هَذَا الاجْتِمَاعِ، كَانَ يَضْحَكُ، وَيَقُولُ ساخِرًا: وَبِفَضْلٍ مِنَ اللهِ، كَانَتِ الْغَلَبَةُ، فِي نِهَايَةِ هَذَا الاجْتِمَاعِ، لِلْغُرُورِ وَالْعَجْرَفَةِ!!

عِنْدَمَا عَلِمَ صَلاحُ الدِّينِ بِخُرُوجِهِمْ إِلَيْهِ، لَمْ يَتَمالَكْ نَفْسَهُ مِنَ السَّعَادَةِ، فَخَرَّ ساجِدًا للهِ يَشْكُرُهُ عَلَى نِعْمَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ، فَقَدْ ظَلَّ طَوالَ أَيَّامٍ يُصَلِّي، وَيَدْعُو اللهَ أَنْ تَنْجَحَ خُطَّتُهُ، لِكَيْ يَجْعَلَهَا مَعْرَكَةً حاسِمَةً، يَقْضِي فِيهَا عَلَى شَوْكَةِ الصَّلِيبِيِّينَ، بِأَقَلِّ تَضْحِيَةٍ مُمْكِنَةٍ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ.

وَهَا هِيَ الأُمُورُ تَسِيرُ كَمَا تَمَنَّاهَا.....

بَدَأَ الصَّلِيبِيُّونَ زَحْفَهُمْ فِي ظُرُوفٍ بَالِغَةِ الصُّعُوبَةِ؛ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ حَرَارَةُ شَمْسِ الصَّيْفِ الْحَارِقَةِ، وَيُعَانُونَ أَشَدَّ الْمُعَانَاةِ مِنْ قِلَّةِ الْمَاءِ وَوُعُورَةِ الطَّرِيقِ وَبُعْدِ الْمَسَافَةِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ فِيهِ صَلاَحُ الدِّينِ وَجُنُودُهُ يَنْعَمُونَ بِالرَّاحَةِ وَالْمَاءِ وَالظِّلِّ وَالطَّعَامِ، مُدَّخِرِينَ قُوَاهُمْ لِسَاعَةِ الْمَعْرَكَةِ.

وَكَانَ صَلاَحُ الدِّينِ، بِعَبْقَرِيَّتِهِ الْعَسْكَرِيَّةِ الْفَذَّةِ، قَدْ دَرَسَ الْمَكَانَ دِرَاسَةً دَقِيقَةً وَاخْتَارَ لِجُنُودِهِ الْمَوْقِعَ الَّذِي يَمْنَحُهُمُ التَّفَوُّقَ وَالسَّيْطَرَةَ عَلَى مَصَادِرِ الْمِيَاهِ وَيُمَكِّنُهُمْ مِنْ حِرْمَانِ عَدُوِّهِمْ مِنْهَا، إِلَى جَانِبِ مَيْزَةٍ أُخْرَى لَمْ يُدْرِكْهَا الْكَثِيرُونَ إِلاَّ عِنْدَمَا وَصَلَتِ الْقُوَّاتُ الصَّلِيبِيَّةُ، وَأَمَرَ صَلاَحُ الدِّينِ جُنُودَهُ بِإِشْعَالِ النَّارِ فِي الأَعْشَابِ وَالشُّجَيْرَاتِ وَالْحَطَبِ الَّذِي يَمْلأُ الْمَكَانَ، وَفُوجِئَ الْجَمِيعُ بِالْفِكْرَةِ الْبَسِيطَةِ الْعَبْقَرِيَّةِ، فَقَدْ كَانَتِ الرِّيحُ تَهُبُّ بِاتِّجَاهِ قُوَّاتِ الصَّلِيبِيِّينَ حَامِلَةً إِلَيْهِمْ حَرَّ النَّارِ وَالدُّخَانِ، فَبَاتُوا لَيْلَتَهُمْ فِي هَذَا الْجَوِّ الْخَانِقِ، يُعَانُونَ التَّعَبَ وَالْعَطَشَ وَالاخْتِنَاقَ، وَهُمْ يَسْمَعُونَ تَكْبِيرَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَتَهْلِيلَهُمُ الَّذِي يَقْطَعُ سُكُونَ اللَّيْلِ، وَيَهُزُّ أَرْجَاءَ الْمَكَانِ، وَيُثِيرُ الْفَزَعَ فِي قُلُوبِهِمْ. كُلُّ ذَلِكَ، وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ أَنَّ قُوَّاتِ صَلاَحِ الدِّينِ ظَلَّتْ طَوَالَ اللَّيْلِ تَتَسَلَّلُ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلاَمِ، وَتُعِيدُ انْتِشَارَهَا، لِتَضْرِبَ حَوْلَهُمْ حِصَارًا مُحْكَمًا عَلَى شَكْلِ فَكَّيْنِ، إِنَّهُمَا الْفَكَّانِ نَفْسُهُمَا اللَّذَانِ كَانَ صَلاَحُ الدِّينِ يَصِفُهُمَا دَائِمًا لِرِجَالِهِ، وَيَقُولُ لَهُمْ: هَذَانِ الْفَكَّانِ هُمَا مِصْرُ وَالشَّامُ!

# الْقَرْيَةُ الْعَظِيمَة

كَانَ هَـذَا الْمَوْقِعُ الْفَرِيدُ، الَّذِي اخْتَارَهُ صَلاَحُ الدِّيـنِ بِإِلْهَامٍ عَبْقَرِيٍّ، يَقَعُ عَلَى أَرْضِ قَرْيَةٍ عَادِيَّةٍ، لاَ تَخْتَلِفُ عَنْ غَيْرِهَا مِنْ آلافِ الْقُرَى الْجَبَلِيَّةِ الْفِلَسْـطِينِيَّةِ. وَلَمْ يَكُنْ لَهَا، حَتَّى هَذِهِ اللَّحْظَةِ، مَا يُمَيِّزُهَا أَوْ يَمْنَحُهَا الشُّهْرَةَ، وَلَكِنَّهَا مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، سَتُصْبِحُ أَشْـهَرَ قَرْيَةٍ فِي الدُّنْيَا؛ لأَنَّ اسْـمَهَا سَيَكُونُ رَمْـزًا وَعُنْوَانًا لأَكْبَـرِ مَعْرَكَةٍ، وَأَعْظَمِ انْتِصَـارٍ، يُحَقِّقُهُ الْمُسْـلِمُـونَ فِـي تَـارِيخِـهِـمْ عَـلَـى الصَّلِيبِيِّـيـنَ الْمُعْتَدِيـنَ.

إِنَّهَـا قَرْيَـةُ (حِطِّيـنَ).

عِنْدَمَا أَشْـرَقَـتْ شَمْسُ الصَّبَاحِ، اكْتَشَفَ الصَّلِيبِيُّونَ حَقِيقَةَ مَوْقِفِهِمْ، وَالْحِصَارَ الْمَضْرُوبَ عَلَيْهِمْ، وَأَدْرَكُوا مَا هُمْ فِيهِ مِنْ خَطَرٍ، وَلَمْ يُمْهِلْهُمْ صَلاَحُ الدِّينِ لَحْظَةً لِلتَّفْكِيرِ، فَقَدْ قَامَ مِنْ سُجُودِهِ وَدُعَائِهِ الله ، قَافِزًا

عَلَى ظَهْرِ جَوَادِهِ، شَاهِرًا سَيْفَهُ، مُطْلِقًا صَيْحَتَهُ الْمُدَوِّيَةَ: (الله أَكْبَرُ). وَخَلْفَهُ آلافُ الْحَنَاجِرِ تَهْتِفُ: (الله أَكْبَرُ). وَآلافُ السُّيُوفِ تَلْمَعُ تَحْتَ أَشِعَّةِ شَمْسِ الصَّبَاحِ!!

كَانَ هَذَا الْهُجُومُ الْكَاسِحُ كَفِيلاً بِتَمْزِيقِ صُفُوفِ الصَّلِيبِيِّينَ، وَزَعْزَعَةِ قُوَاهُمْ، وَكُلَّمَا تَرَاجَعُوا شَدَّدَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ، بِكُلِّ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ إِيمَانٍ بِالله وَبِحَقِّهِمَ الْمَسْلُوبِ، وَبِكُلِّ مَا فِي هَذِهِ النُّفُوسِ الْمُؤْمِنَةِ مِنْ كَرَاهِيَةٍ لِلظُّلْمِ وَالتَّجَبُّرِ.

قُتِلَ الآلافُ، وَامْتَلأَتْ بِهِمْ أَرْضُ الْمَعْرَكَةِ، حَتَّى ظَنَّ الْبَعْضُ أَنَّ الْجَمِيعَ قَدْ قُتِلُوا، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ!!

وَأُسِرَ الآلافُ وَامْتَلأَتْ بِهِمْ سَاحَاتُ حِطِّينَ حَتَّى ظَنَّ الْبَعْضُ أَنَّ الْجَمِيعَ قَدْ أُسِرُوا، وَلَمْ يُقْتَلْ مِنْهُمْ أَحَدٌ!!

وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ أَنَّ آلافًا قُتِلُوا، وَآلافًا أُسِرُوا، وَآلافًا آخَرِينَ فَرُّوا مِنَ الْمَعْرَكَةِ نَاجِينَ بِحَيَاتِهِمْ، عِنْدَمَا أَدْرَكُوا أَنَّهُمْ هَالِكُونَ لاَ مَحَالَةَ.

## عِنْدَمَا تَرَى بِقَلْبِكَ

خَمَدَتِ النَّارُ، وَتَوَقَّفَتِ السُّيُوفُ، وَوَقَفَ صَلاَحُ الدِّينِ، وَهُوَ فَوْقَ حِصَانِهِ يَمْسَحُ بِعَيْنَيْهِ أَرْضَ الْمَعْرَكَةِ الَّتِي فُرِشَتْ بِأَكْدَاسِ الْقَتْلَى، فَلَمْ يَتَمَالَكْ نَفْسَهُ حُزْنًا وَإِشْفَاقًا. وَفَاضَ قَلْبُهُ النَّبِيلُ دُمُوعًا تَجْرِي فِي عَيْنَيْهِ!!

كَانَ وَزِيرُهُ إِلَى جَانِبِهِ، وَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ يَرَى فِيهَا أَحَدٌ دُمُوعَ صَلاَحِ الدِّينِ. فَاقْتَرَبَ مِنْهُ خَائِفًا مُشْفِقًا، يَقُولُ لَهُ: لاَ تَحْزَنْ عَلَى أَبْنَائِنَا يَا سَيِّدِي، فَقَتْلاَنَا فِي الْجَنَّةِ

وَقَتْلاَهُـمْ فِي النَّارِ، وَهَذِهِ أَقَلُّ تَضْحِيَاتٍ يُمْكِنُ أَنْ يُقَدِّمَهَا جَيْشٌ يَخُوضُ مِثْلَ هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ، لَقَدْ مَنَّ الله عَلَيْنَا بِنَصْرٍ عَظِيمٍ، يُفْرِحُ الْقَلْبَ يَا سَيِّدِي.

وَدُوْنَ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَيْهِ صَلاَحُ الدِّينِ، يَقُولُ لَهُ بِصَوْتٍ مَبْحُوحٍ:

أَنَـا حَزِينٌ مِنْ أَجْلِهِمْ جَمِيعًا. اُنْظُـرْ، لاَ فَرْقَ بَيْنَهُمْ فِي الْمَوْتِ، كُلُّهُمْ أَبْنَاءُ آدَمَ، كُلُّـهُمْ قَتْلَى، كُلُّـهُمْ فُقَرَاءُ كُلُّـهُمْ شَبَابٌ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ وَهُوَ ابْنٌ، أَوْ أَبٌ، أَوْ زَوْجٌ، أَوْ أَخٌ أَوْ حَبِيـبٌ. مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ وَهُوَ حُلْمُ أَهْلِهِ، وَأَمَلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ. هَذِهِ الأَعْيُنُ الْمُطْفَـأَةُ، وَهَذِهِ الأَيْدِي الْخَامِدَةُ، كَانَ حَرِيًّا بِهَا أَنْ تَزْرَعَ، وَتَبْنِيَ، وَتَرْعَى، وَتَحْمِلَ صِغَارَهَا. وَلِمَاذَا قُتِلُوا؟ إِنَّهُمْ ضَحَايَا أَطْمَاعِ هَؤُلاَءِ الْمُلُوكِ الصَّلِيبِيِّينَ الْمُتَجَبِّرِينَ، وَرِجَالِ الْكَنِيسَةِ الْخُبَثَاءِ. الَّذِينَ يُرِيدُونَ السَّيْطَرَةَ عَلَى الْبِـلاَدِ وَإِذْلاَلَ الْعِبَادِ. لَقَدِ اسْـتَغَلُّوا مَشَـاعِرَ هَؤُلاَءِ الْبُسَـطَاءِ، وَأَوْهَمُوهُـمْ أَنَّهُـمْ يُقَاتِلُونَنَـا دِفَاعًا عَنِ الْمَسِيحِ وَالإِنْجِيلِ وَالْكَنِيسَةِ وَالصَّلِيبِ، وَزَرَعُوا فِي نُفُوسِهِمْ أَنَّ لَهُمْ، وَحْدَهُمْ، الْحَقَّ الْمُقَدَّسَ فِي هَذِهِ الأَرْضِ. وَأَنَّ مَنْ سِوَاهُمْ لَيْسَ لَهُ فِيهَا حَقٌّ أَوْ كَرَامَـةٌ، بَلْ إِنَّ مِنْ وَاجِبِهِمْ سَـحْقَهُ وَإِذْلاَلَهُ وَطَرْدَهُ مِنْهَا؛ تَطْهِيرًا لَهَا، وَصَوْنًا لِقَدَاسَتِهَا!! إِنَّهَا الْفِكْرَةُ الْخَبِيثَةُ الشِّرِّيرَةُ الَّتِي مَا دَخَلَتْ قَلْبَ إِنْسَانٍ إِلاَّ

حَوَّلَتْـهُ إِلَى مُجْرِمٍ قَاتِلٍ. وَكُلُّ هَؤُلاَءِ الشَّـبَابِ الْبُسَـطَاءِ، مَـنْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى حَقٍّ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى بَاطِلٍ، كُلُّهُمْ ضَحَايَا هَذِهِ الْفِكْرَةِ السَّوْدَاءِ، وَقَبْلَهُمْ آلاَفُ آلاَفِ الْقَتْلَى وَالْمُشَرَّدِينَ وَالْمَنْبُوذِينَ وَالْمُسْتَعْبَدِينَ فِي كُلِّ الْعُصُورِ.

## صَرْخَةُ الأُمّ

ـ يَا صَلاَحَ الدِّينِ... يَا سُلْطَانَ الْمُسْلِمِينَ.

صَرْخَـةُ امْـرَأَةٍ صَلِيبِيَّةٍ نَائِحَةٍ تَقْطَـعُ عَلَى صَلاَحِ الدِّينِ، وَتَأْتِي مُسْـرِعَةً تَجْرِي إِلَيْـهِ، يَقِـفُ لَهَا الْحُـرَّاسُ لِيَمْنَعُوهَا، وَلَكِنَّهُ يُشِـيرُ إِلَيْهِـمْ بِيَدِهِ، وَيَنْـزِلُ لَهَا مِنْ فَوْقِ حِصَانِـهِ، فَتَقَـعُ الْمَـرْأَةُ عَلَى رِجْلَيْهِ بَاكِيَةً مُتَوَسِّـلَةً: وَلَدِي يَا سُـلْطَانَ الْمُسْـلِمِينَ . وَلَدِي.. أَسْتَحْلِفُكَ بِالله أَنْ تَرُدَّ إِلَيَّ وَلَدِي.

وَيَمُـدُّ لَهَـا صَـلاَحُ الدِّيـنِ يَـدَهُ الحَانِيَةَ لِكَـيْ يُوْقِفَها، وَهُـوَ يَقُولُ: مَـاذَا جَرَى لِوَلَدِكِ؟!

فَتَقُـولُ الْمَـرْأَةُ الصَّلِيبِيَّـةُ: جُنُـودُكَ أَخَـذُوهُ أَسِـيرًا، وَلَيْـسَ لَنَـا سِـوَاهُ، فَمَنْ سَـيُطْعِمُنِي وَيُطْعِمُ الصِّغَارَ، أَسْتَحْلِفُكَ بِالله أَنْ ...

وَيَرْفَعُ صَلاَحُ الدِّينِ يَدَهُ الْحَانِيَةَ أَمَامَ وَجْهِهَا

لِيَسْكِتَهَا، وَهُوَ يَقُولُ: لاَ تَسْتَحْلِفِينِي. فَلَسْتُ ظَالِمًا وَلاَ جَبَّارًا وَلاَ مُنْتَقِمًا، وَمَا فَعَلْتُ كُلَّ هَذَا إِلاَّ إِنْصَافًا لِكُلِّ مَظْلُومٍ.

ثُمَّ يَلْتَفِتُ إِلَى الْحُرَّاسِ وَيَأْمُرُهُمْ: أَكْرِمُوا الأُمَّ، وَرُدُّوا إِلَيْهَا وَلَدَهَا.

وَيَمْضِي صَلاَحُ الدِّينِ مُبْتَعِدًا، وَصَوْتُ الْمَرْأَةِ الصَّلِيبِيَّةِ وَرَاءَهُ، يَدْعُو لَهُ بِالنَّصْرِ!!

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ صَلاَحَ الدِّينِ لَمْ يَكُنْ، فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، يَسْمَعُ صَوْتَ الْمَرْأَةِ الصَّلِيبِيَّةِ، بَلْ كَانَ يَسْمَعُ صَوْتًا آخَرَ، يَأْتِيهِ مِنْ أَعْمَاقِ الذَّاكِرَةِ: إِنَّهُ صَوْتُ الْعَجُوزِ، الَّتِي دَخَلَتْ عَلَيْهِ الْمَسْجِدَ فَجْأَةً، مُنْذُ سَنَوَاتٍ، وَكَأَنَّهَا خَرَجَتْ لَهُ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ، لِكَيْ تُوقِظَهُ مِنْ غَفْلَتِهِ. ثُمَّ ذَهَبَتْ وَاخْتَفَتْ فَجْأَةً، كَمَا ظَهَرَتْ فَجْأَةً، وَكَأَنَّ الأَرْضَ انْشَقَّتْ وَابْتَلَعَتْهَا، فَلَمْ يَبْقَ لَهَا فِي الدُّنْيَا أَثَرٌ، اِسْتَيْقَظَتْ فِي قَلْبِهِ ذِكْرَاهَا، وَشَعَرَ بِحَنِينٍ غَرِيبٍ إِلَيْهَا، وَتَمَنَّى مِنْ أَعْمَاقِ أَعْمَاقِهِ لَوْ كَانَتْ مَعَهُ الآنَ!!

وَالْغَرِيبُ فِي أَمْرِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ أَنَّ الْهُدْهُدَ نَفْسَهُ لَمْ يَسْتَطِعِ الْوُصُولَ إِلَيْهَا، أَوْ مَعْرِفَةَ أَيِّ شَيْءٍ عَنْهَا. وَالْحُرَّاسُ أَنْفُسُهُمْ أَقْسَمُوا أَمَامَ صَلاَحِ الدِّينِ أَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا أَحَدًا يَدْخُلُ مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ، مِمَّا جَعَلَ الْهُدْهُدَ، طَوَالَ حَيَاتِهِ، مُقْتَنِعًا تَمَامًا أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ لَيْسَتْ سِوَى جِنِّيَّةٍ صَالِحَةٍ مُؤْمِنَةٍ، مِنْ سُكَّانِ الخَفَاءِ!!

# الْعِقَاب

عَادَ صَلاَحُ الدِّينِ إِلَى خَيْمَتِهِ، وَمَا كَادَ يَجْلِسُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهِ جُنُودُهُ، وَهُمْ يَسُوقُونَ مِئَةً وَخَمسينَ أَسِيرًا مِنْ مُلُوكِ وَكُبَرَاءِ الصَّلِيبِيِّينَ، عَلَى رَأْسِهِمْ مَلِكُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَمَعَهُ أَرْنَاطُ، الَّذِي لَقَّبَهُ صَلاَحُ الدِّينِ بِعَدُوِّ الله ، وَأَقْسَمَ مَرَّتَيْنِ إِنْ تَمَكَّنَ مِنْهُ أَنْ يَقْتُلَهُ.

اِسْتَقْبَلَ صَلاَحُ الدِّينِ أَسْرَاهُ بِمَا تُمْلِيهِ عَلَيْهِ أَخْلاَقُ الْفَارِسِ الْمُسْلِمِ، مِنَ الاحْتِرَامِ وَالإِكْرَامِ، وَأَمَرَ لَهُمْ بِالْمَاءِ الْمُثَلَّجِ، بَلْ إِنَّهُ قَامَ بِنَفْسِهِ، وَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ أَكْوَابَ الْمَاءِ بِيَدِهِ، وَاحِدًا وَاحِدًا، إِلاَّ أَرْنَاطَ، ثُمَّ يُعْطِهِ الْمَاءَ، حَتَّى لاَ يَكُونَ قَدْ أَعْطَاهُ الأَمَانَ. وَفَهِمَ الْجَمِيعُ مَا يَنْوِيهِ صَلاَحُ الدِّينِ، وَحَاوَلَ مَلِكُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ الاحْتِيَالَ عَلَى الْمَوْقِفِ، فَلَمَّا شَرِبَ، أَعْطَى أَرْنَاطَ الْكُوبَ لِيَشْرَبَ مَا تَبَقَّى مِنْهُ، فَغَضِبَ صَلاَحُ الدِّينِ، وَهَمَّ وَاقِفًا وَفِي يَدِهِ سَيْفُهُ الْمَسْلُولُ، وَقَالَ:

إِنَّ عَدُوَّ الله هَذَا لَمْ يَشْرَبِ الْمَاءَ

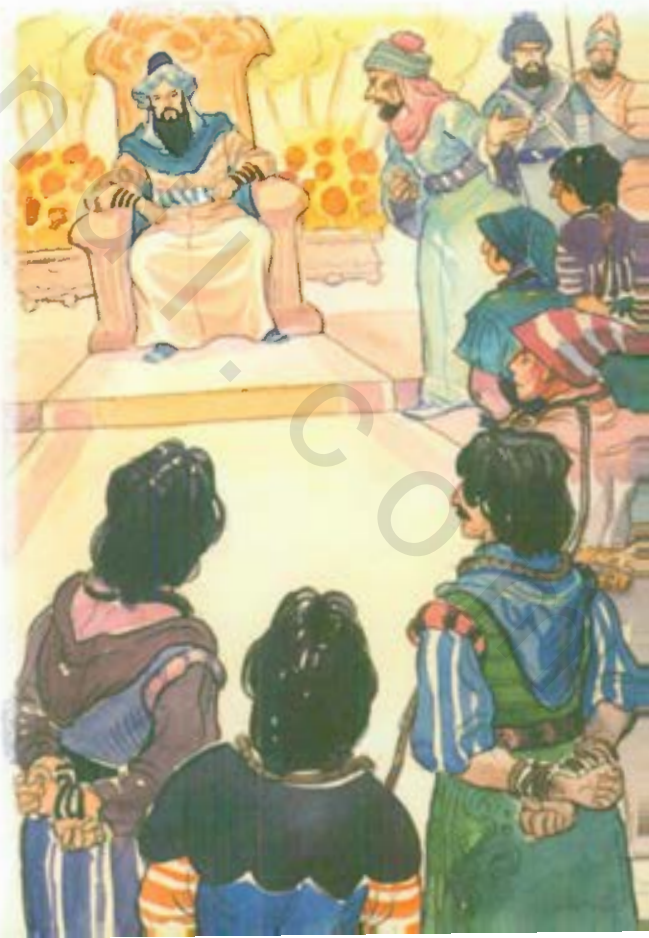

بِـذْنِي، فَيَنَالَ أَمَانِي، لاَ أَمَانَ لَهُ عِنْدِي، فَبِسَبَبِهِ، وَبِسَبَبِ أَمْثَالِهِ مِنْ أَصْحَابِ الْقُلُوبِ الْمُتَعَصِّبَةِ السَّوْدَاءِ، أُرِيقَتْ كُلُّ هَذِهِ الدِّمَاءِ الْبَرِيئَةِ. وَأَنَا لَسْتُ مُنْتَقِمًا وَلاَ جَبَّارًا، إِنَّمَا أَنَا حَاكِمٌ مُسْلِمٌ، يُقِيمُ شَرْعَ الله ، وَيَسْعَى لِتَثْبِيتِ أَرْكَانِ عَدْلِهِ فِي هَذِهِ الأَرْضِ، لِكَيْ يَصُونَ كَرَامَةَ خَلْقِهِ مِنْ كُلِّ الأَجْنَاسِ وَالأَدْيَانِ. وَلَوْ كَانَ هَذَا الْمُجْرِمُ عَدُوًّا لِي أنا لَسَامَحْتُهُ، وَعَفَوْتُ عَنْهُ، وَلَكِنَّهُ عَدُوُّ الله ، الَّذِي أَرَادَ الاعْتِدَاءَ عَلَى حُرُمَاتِهِ فِي مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَالَّذِي نَقَضَ عَهْدَهُ مَعِي، وَنَهَبَ الْقَافِلَةَ، شَأْنُهُ شَأْنُ أَيِّ مُجْرِمٍ، قَاطِعِ طَرِيقٍ، مُفْسِدٍ فِي الأَرْضِ. وَلَمْ يَتَوَقَّفْ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، بَلْ إِنَّهُ تَعَالَى وَتَجَبَّرَ، وَأَسَاءَ إِلَى الإِسْلاَمِ وَإِلَى نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِي الْمَرَّتَيْنِ، أَقْسَمْتُ، وَنَذَرْتُ لله أَنْ أَقْتُلَهُ إِنْ أَنَا ظَفِرْتُ بِهِ، أَمَّا أَنْتُمْ فَلَكُمْ مِنِّي الأَمَانُ، فَمَنْ تَابَ عَنْ حِقْدِهِ وَكَرَاهِيَتِهِ وَتَعَالِيهِ، وَنَبَذَ الْعَدَاوَةَ، فَلَهُ الْحَقُّ فِي الْعَيْشِ مَعَنَا، آمِنًا مَوْفُورَ الْكَرَامَةِ، لَهُ مَا لَنَا، وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا. أَمَّا عَدُوُّ الله هَذَا، فَلاَ أَمَانَ لَهُ عِنْدِي. وَإِنِّي لأَرْجُو الله أَنْ يَكُونَ آخِرَ مَنْ أُرِيقُ دَمَهُ عَلَى هَذِهِ الأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ.

وَفِي غَمْضَةِ عَيْنٍ، كَانَتْ رَأْسُ أَرْنَاطَ تَتَدَحْرَجُ عَلَى أَرْضِ الْخَيْمَةِ!!

oneiKonar.com

# وَمَرَّتِ الأَيَّام

مَضَى الصَّيْفُ بِحَرِّ شَمْسِهِ، وَصِرَاعِهِ الدَّامِي، وَجَاءَ الشِّتَاءُ بِأَمْطَارِهِ الْغَزِيرَةِ لِيَغْسِلَ مَا تَبَقَّى عَلَى الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ مِنَ الدَّمِ وَالدُّمُوعِ، وَيَرْوِي بِهَا أَزْهَارَ الْمَحَبَّةِ وَالسَّلَامِ، الَّتِي عَادَتْ لِتَتَفَتَّحَ فِي الْقُلُوبِ، وَتُزْهِرَ فِي الْحَدَائِقِ، وَفِي الشَّوَارِعِ، وَعَلَى شُرُفَاتِ الْبُيُوتِ.

وَعَادَ الْهُدْهُدُ إِلَى سَعَادَتِهِ الأُولَى، لِيَقِفَ وَبِجَانِبِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ، فِي عُشِّهِ الْقَدِيمِ، فَوْقَ مَنَارَةِ الْمَسْجِدِ الأَقْصَى، يَرْقُبُ أَسْرَابَ الْحَمَامِ، وَهِيَ تَتَقَلَّبُ حُرَّةً فِي الْفَضَاءِ عَلَى صَوْتِ أَجْرَاسِ الْكَنَائِسِ، مَا أَرْوَعَ عَوْدَةَ السَّلَامِ إِلَى أَرْضِ السَّلَامِ، وَمَا أَجْمَلَ عَوْدَةَ الْمُؤَذِّنِ إِلَى مَكَانِهِ الْقَدِيمِ، فَوْقَ مَنَارَةِ الْمَسْجِدِ الأَقْصَى، لِيَقِفَ كَعَادَتِهِ تَحْتَ الْعُشِّ مُبَاشَرَةً، يُتَمْتِمُ بِالدُّعَاءِ وَالتَّسْبِيحِ، قَبْلَ أَنْ يَصْدَحَ بِالأَذَانِ، فَيَبْعَثُ الْحَيَاةَ فِي شَوَارِعِ الْقُدْسِ النَّائِمَةِ.

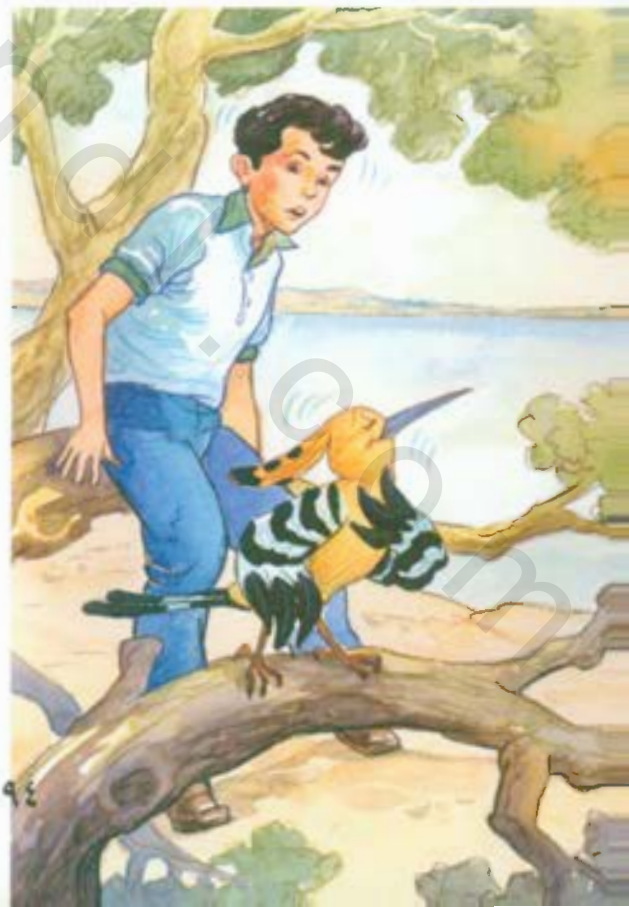

وَطَوَالَ هذهِ الْمُدَّةِ، كانَ صَدِيقِي الْهُدْهُدُ يَحْكِي بِلا توقُّفٍ، وَدُونَ أَنْ

يُـثِـيـرَ عَلَى سِـيْرَةِ وَلَدِهِ الغَائِـبِ!! ولكنَّهُ فِي هـذهِ اللحظةِ، توقفَ فجـأةً عنْ الـكلامِ، ومَطَّ رقبتَهُ، وأخذَتْ عينـاهُ تَزِيْغَانِ فِي كُلِّ اتِّجـاهٍ، وهوَ يَتَشَـمَّمُ الهَوَاءَ بعُمْقٍ وَتَسَـارُعٍ، وَيَسْـأَلُنِي: هَلْ تَرَى شَيْئًا؟!

قُلْتُ خائفًا مُنْدَهِشًا: أيَّ شَيْءٍ تَقْصِدُ؟!

فَقَالَ: وَلَدِي، إنِّي أَشُمُّ رَائِحَةَ وَلَدِي!!

تَعَجَّبْتُ مِنَ الهُدْهُدِ، وَشَعَرْتُ بِالخَوْفِ والإشْفاقِ عَلَيْهِ. فَبَعْدَ أنْ ضَعُفَ بَصَرُهُ، يَبْدُو أنَّ عَقْلَهُ أيْضًا قَدْ أصابَهُ الضَّعْفُ والخَرَفُ!!

وَهُنَا، حَدَثَتِ المُفَاجَأةُ الأغْرَبُ مِنَ الخَيَالِ، فَقَدْ حَطَّ أمامَهُ عَلَى لِغُصْنِ هُدْهُدٌ شَابٌّ يَصِيْحُ: أبِيْ، أنَا وَلَدُكَ!!

وَانْطَلَقَ إلَى حِضْنِ أبِيهِ الَّذِي عَانَقَهُ بِجَنَاحَيْهِ، وَارْتَمَى بِهِ مِنْ فَوْقِ الْغُصْنِ، لِيَتَقَلَّبَا مَعًا عَلَى الأَرْضِ بَيْنَ الصِّيَاحِ وَالضَّحِكِ وَالدُّمُوعِ، وغَرْسِ الْمَنَاقِيرِ فِي الأَكْتَافِ وَتَحْتَ الأَجْنِحَةِ. ثُمَّ انْطَلَقَا مَعًا فِي انْفِعَالٍ غَرِيبٍ يَرْقُصَانِ، وَيُهَدْهِدَانِ، وَيَدُورُ أَحَدُهُمَا حَوْلَ الآخَرِ رَافِعًا جَنَاحَيْهِ، ضَارِبًا الأَرْضَ بِرِجْلَيْهِ، بِإِيقَاعَاتٍ رَائِعَةٍ!!

كَانَتْ لَحَظَاتُ فَرحٍ لاَ حُدُودَ لَهُ، أَعَادَتْ إِلَى الْهُدْهُدِ الْعَجُوزِ شَبَابَهُ، لِدَرَجَةِ أَنَّنِي لَمْ أَكُنْ أُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا فِي الْخِفَّةِ وَرَشَاقَةِ الْحَرَكَةِ، لَوْلاَ الْجَبِيرَةُ الَّتِي لاَ تَزَالُ عَلَى جَنَاحِ صَاحِبِي!!

وَقَفْتُ مَذْهُولاً، أَسْتَرْجِعُ مَا مَضَى؛ فَهَذَا هُوَ وَلَدُهُ الَّذِي كَانَ طِفْلاً نَائِمًا فِي الْعُشِّ، عِنْدَمَا فَجَّرَ الصَّهَاينَةُ الْبَيْتَ، وَهَدَمُوهُ عَلَى سُكَّانِهِ، وَظَنَّ أَنَّهُ مَاتَ مَعَهُمْ تَحْتَ الأَنْقَاضِ، فَجَاءَ إِلَى مِصْرَ يَبْحَثُ عَنْ صَدِيقٍ مِنَ الْبَشَرِ، الَّذِينَ يَكْتُبُونَ وَيَقْرَأُونَ، لِكَي يَنْقَلَ إِلَيْهِ أَمَانَتَهُ وَأَسْرَارَهُ، وَكُنْتُ أَنَا هَذَا الإِنْسَانَ، وَكَانَتْ هَذِهِ النِّعْمَةُ الإِلَهِيَّةُ الْعَظِيمَةُ مِنْ نَصِيبِي!!

وَلَمْ أُفِقْ مِنْ ذُهُولِي، إِلاَّ عَلَى صَوْتِ الْهُدْهُدِ، وَهُوَ يُشِيرُ إِلَيَّ بِجَنَاحِهِ، وَيَقُولُ لابْنِهِ: يَا وَلَدِي، هَذَا أَخُوكَ الْبَشَرُ الإِنْسَانُ. سَلِّمْ يَا وَلَدِي عَلَى أَحْمَدَ الأَمِينِ، فَهُوَ أَخُوكَ، وَحُبُّهُ فِي قَلْبِي مِثْلُ حُبِّكَ فِي قَلْبِي!!

فَطَارَ الْهُدْهُدُ الشَّابُّ، وَحَطَّ عَلَى كَتِفِي، وَأَخَذَ يَمْسَحُ رَأْسَهُ فِي وَجْهِي!!

وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، بَكَيْتُ بِشِدَّةٍ، لَسْتُ أَدْرِي لِمَاذَا، هَلْ بَكَيْتُ مِنَ الْفَرَحِ بِعَوْدَةِ الْهُدْهُدِ إِلَى أَبِيهِ، أَمْ بَكَيْتُ خَوْفًا أَنْ يَذْهَبَ مَعَ وَلَدِهِ، وَيَتْرُكَنِي وَحِيدًا.

وَكَأَنَّ الْهُدْهُدَ، كَعَادَتِهِ، فَهِمَ مَا يَدُورُ بِخَاطِرِي، فَإِذَا بِهِ يُوصِي وَلَدَهُ، وَيَقُولُ لَهُ: لاَ تَتْرُكْ أَخَاكَ هَذَا يَوْمًا وَاحِدًا، فَلَيْسَ لَكَ أَخٌ غَيْرُهُ، كُنْ مُلازِمًا لَهُ طَوَالَ

حَيَاتِـكَ، وَلاَ تُخْـفِ عَنْهُ شَـيْئًا، أَطْـلِعْـهُ يَوْمًا بِيَوْمٍ، عَلَـى كُلِّ مَا تَرَاهُ وَتَسْـمَعُهُ مِنَ الأَسْرَارِ وَالأَخْبَارِ، أَمَّا أَنَا، فَلَنْ أَتْرُكَهُ حَتَّى آخِرِ يَوْمٍ فِي حَيَاتِي.

ثُمَّ نَظَرَ إِلَى السَّـمَاءِ، وَرَفَعَ جَنَاحَيْهِ، وَأَخَذَ يَبْتَهِلُ إِلَى الله ، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ صَاحِبُ الْفَضْلِ وَالْمِنَّةِ، لَكَ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ عَلَى مَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ، وَجَعَلْتَنِي أَسْعَدَ طَائِرٍ فِي الْوُجُودِ.

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَومِ لَمْ نَفْتَرِقْ أَبَدًا، وَلَمْ يَفْتَرِقْ الابْنُ عَنْ أَبِيهِ إِلاَّ عِنْدَ النَّوْمِ، فَقَدْ بَنَى الشَّابُّ لِنَفْسِهِ عُشًّا عَلَى تَعْرِيشَةِ الْعِنَبِ فَوْقَ سَطْحِ بَيْتِنَا. أَمَّا الأَبُ الْعَجُوزُ، فَلَمْ يَعُدْ

يَسْتَطِيعُ الطَّيَرَانَ، رَغْمَ أَنَّ جُرْحَهُ قَدِ انْدَمَلَ، وَلَمْ يَعُدْ يُؤْلِمُهُ. وَلِذَا فَقَدْ ظَلَّ يَنَامُ فِي غُرْفَتِي كُلَّ لَيْلَةٍ فِي قَفَصِ الْكَنَاكِيتِ، لِيَكُونَ فِي مَأْمَنٍ مِنْ شَرِّ الْعِرْسَةِ الَّتِي تَتَرَبَّصُ بِهِ.

وَفِيمَا تَلاَ ذَلِكَ مِنْ أَيَّامٍ، ظَلَّ الْهُدْهُدُ مُحَافِظًا عَلَى مَا تَعَوَّدْنَا عَلَيْهِ، فَكُنَّا نَجْلِسُ كُلَّ صَبَاحٍ فِي مَكَانِنَا الْمُعْتَادِ تَحْتَ شَجَرَةِ التُّوتِ، مِنْ شُرُوقِ الشَّمْسِ إِلَى غُرُوبِهَا، لِيَحْكِيَ لِيَ وَلاِبْنِهِ كُلَّ مَا سَمِعَ وَمَا رَأَى، وَكُلَّ مَا وَرِثَهُ مِنْ حِكَايَاتِ أَجْدَادِهِ، مُذْ جَدِّهِ الأَوَّلِ هُدْهُدِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ.

وَالشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي تَغَيَّرَ، أَنَّنِي لَمْ أَعُدْ أَحْفِرُ لَهُ التُّرْبَةَ بِغُصْنِ الشَّجَرَةِ الْيَابِسِ،

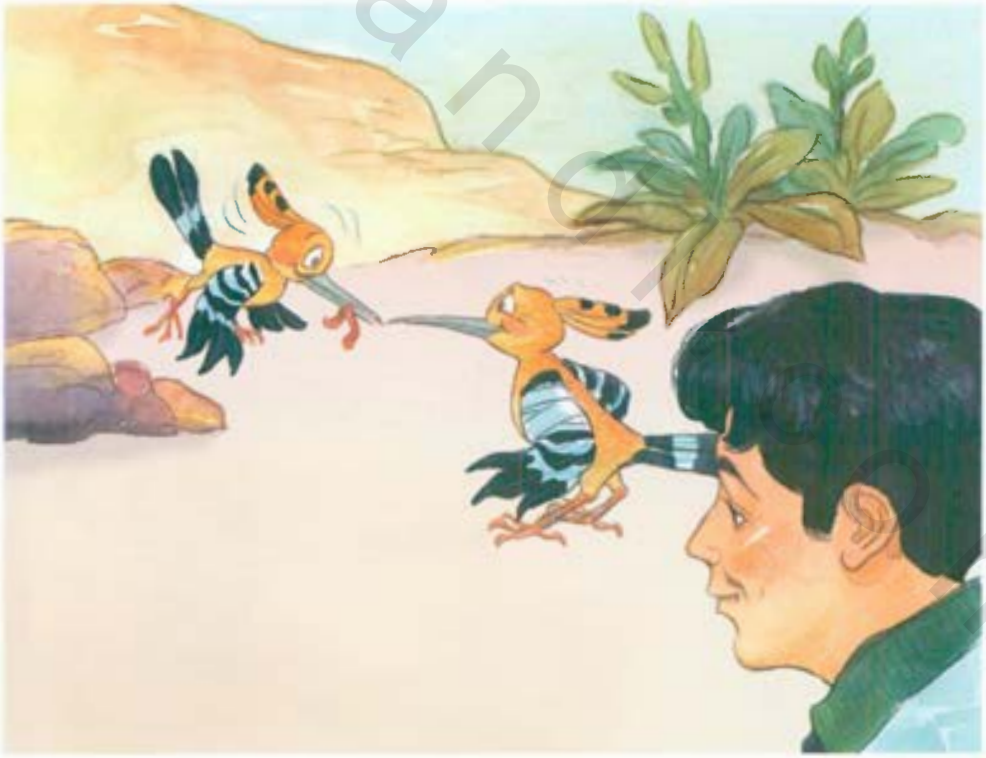

وَ قَلِّبُهَا أَمَامَهُ، لِكَيْ أُسَاعِدَهُ، بَلْ أَصْبَحَ ابْنُهُ الْهُدْهُدُ الشَّابُّ يَقُومُ بِذَلِكَ، فَيَنْقُرُ فِي الرُّبَةِ اللَّيِّنَةِ بِمِنْقَارِهِ الْقَوِيِّ، وَيُخْرِجُ مِنْهَا الطَّعَامَ، وَيَضَعُهُ فِي فَمِ أَبِيهِ!!

● ● ●

أَصْدِقَائِي الأَعِزَّاءَ...

مَا قَرَأْتُمُوهُ، حَتَّى الآنَ، فِي هَذَا الْكِتَابِ، هُوَ الْحِكَايَاتُ الَّتِي اخْتَارَهَا لَكُمُ الْهُدْهُدُ بِنَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ، وَسَمَحَ لِيَ بِنَشْرِهَا، وَتَقْدِيمِهَا إِلَيْكُمْ، بَعْدَ أَنْ حَمَّلَنِي الأَمَانَةَ، أَنَا وَوَلَدَهُ الْهُدْهُدَ الشَّابَّ، وَأَخَذَ عَلَيْنَا الْعَهْدَ مِنْ جَدِيدٍ.

أَمَّا بَقِيَّةُ حِكَايَاتِهِ الَّتِي دَوَّنْتُهَا فِي عَشَرَاتِ الدَّفَاتِرِ، فَهِيَ أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا قَرَأْتُمُوهُ الآنَ. وَلَكِنِّي، بِكُلِّ أَسَفٍ، مُضْطَرٌّ لِلتَّوَقُّفِ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، بِنَاءً عَلَى وَصِيَّتِهِ، فَقَدْ أَمَرَنِي أَلاَّ أَنْشُرَ الْبَقِيَّةَ إِلاَّ فِي مَوْعِدٍ مُحَدَّدٍ، وَأَخَذَ عَلَيَّ الْعَهْدَ بِذَلِكَ!!

وَعِنْدَمَا سَأَلْتُهُ: وَكَيْفَ سَأَعْرِفُ هَذَا الْمَوْعِدَ الْمُحَدَّدَ؟

قَالَ: سَيُبَلِّغُكَ بِهِ أُخُوكَ هَذَا.

وَحَتَّى الآنَ، لَمْ يَسْمَحْ لِيَ أَخِي الْهُدْهُدُ بِذَلِكَ،

رَغْمَ أَنَّه لاَ يَزَالُ الأَخَ الْوَفِيَّ الْحَبِيبَ. فَهُوَ لاَ يَنْقَطِعُ عَنْ زِيَارَتِي، وَلاَ يُطِيلُ الْغِيَابَ عَنِّي، يَجُوبُ أَرْجَاءَ الدُّنْيَا الْوَاسِعَةِ، وَيَعُودُ إِلَيَّ، لِكَيْ يُطْلِعَنِي عَلَى كُلِّ مَا رَأَى، وَمَا سَمِعَ، وَمَا عَرَفَ، وَلاَ أَتَوَقَّفُ أَنَا عَنْ تَدْوِينِ كُلِّ ذَلِكَ.

وَفِي نِهَايَةِ كُلِّ لِقَاءٍ، أَسْأَلُهُ: مَتَى سَتَأْذَنُ لِيَ بِنَشْرِ حِكَايَاتِكَ، وَحِكَايَاتِ الْوَالِدِ؟

فَيَبْتَسِمُ لِي بِحُبٍّ، وَيَقُولُ: قَرِيبًا بِإِذْنِ الله .

ثُمَّ يَنْطَلِقُ مُحَلِّقًا فِي الآفَاقِ.